

الكتب اللغوية



اللغتين العقل والمخاطبة

دكتور
مطفى مندور

رئيس قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة أسيوط

الناشر // منشأة المعارف بالإسكندرية
جلال حزي وشركاه

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

اللغتين العقل والمخاطبة

دكتور
مصطفى مندور

مدرس قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة أسيوط

الناشر: **المطبعة** بالاسكندرية
جلال حزي وشركاه

مقدمتان

- ١ -

على درب الحياة

اللغة ضرورة الحياة البشرية ، وهى صانعة رحلة الانسان الطويلة على الأرض ، ومعها العديد من الأدوات التى كانت معيناً له ، يتغلب بها على ما حوله من ظروف البيئة : الخارجية والداخلية ، التى كثيرا ما بدت أمامه غير قابلة للاختراق ٠٠٠ ثم بعد أن امتلك بعض مفاتيحها صارت طيعة هادئة ، تغلب بأدواته التى عثر بها على أزمت حياته النفسية والفكرية والعاطفية ، تلك التى كانت فى فترات من عمره سرا هائلا ووعاء محكما لا يستطيع الولوج اليه أو حتى الفرار منه .

وبغير رغبة فى الحصر نقول انه اكتشف الكهف والكوخ والمنجل ، تماما كما اكتشف الزواج والأسرة والقبيلة ، وورث معانى الالتقاء وبقايا الفراق . ثم جاءت مع ذلك ألوان من الحق والواجب والاثرة والايثار ٠٠٠ وما من شك فى أن عددا كبيرا من العلاقات قد تم اجدائه اما عن طريق المصادفات ، واما من خلال التجارب غير المخططة ، ثم منها كذلك ما عرفه الانسان بالجهد القاصد ، وبالتجارب الواعية التى تفاوتت المخاطر المحيطة بها : فى خيرها وفى شرها . والشئ الذى يبدو واضحا فى تاريخ الانسان أنه ما من مرة تم له استجلاء شئ جديد أو وقع فى طريقه على فتح بديع الا وصار ذلك الحادث ملكا له ، يتحكم فيه ، ويدخل فيه من التعديلات والتغييرات ما يجعله دائما طوع ارادته ، بل وتوشك الصورة الأخيرة التى تصل اليها ذات المستكشفات أن تبدو منبئة الصلة بصورها الأولى . ولو شئنا المثال على ذلك فدonna الطاقة الحرارية التى عرفها الأوائل فيما نسميه بـ « النار » ، وكان اكتشافها قلبا لصفحة تكاد تكون كاملة من التاريخ . وكم غمرته الاساطير عن أصلها ومنشئها ! ولعله من خلال فيض الخير وفيض التوجس أيضا أن عزا

اليونانيون وجودها الى الاله برومئوس الذى يروى أفلاطون أسطوره فى محاورته « بروتاجوراس » ، وفيها غامر الاله ليسرق قبسا من النار يهديه للانسان فيستفيد بها فى حياته وفى فنونه . ولو تجاوزنا ما بعد البدايات والاساطير ، ونظرنا الى أوضح المراحل التى غيرت فيها وجه الحياة : من طاقة البخار الى طاقة الكهرباء الى طاقة الذرة ، لو تجاوزنا ذلك ولمحنا الآفاق التى تفتحها للبشرية ألا يهولنا الأمر ونشعر بالاطمئنان الكبير !!

ولقد يقال ان مثل تلك الطاقة ذات وجود خارجى عن الانسان ، ومن ثم أبيع له أن يزاول فيها ما شاء من اجراءات مما هون عليه دفعها ، ولكن : ألم يحدث الانسان نفس الدفعات فى امكاناته الخاصة ؟ لقد أدرك مرونة عضلاته فاستخدمها بذكائه وارادته مما شق له حجبا كثيرة : لقد مكنته اليدان من ارتياد مجالات باهرة ومن صنع أعاجيب معجزة . ولو تجاوزنا مراحل البدايات والاساطير واسترجعنا صورة الكائنات التى تسعى على قوائمها الأربعة أمام الانسان المتربع على عرش ساعد على بنائه بذراعيه ، ألا يهولنا الأمر ثم نشعر باطمئنان كبير !!

ومن بين الاكتشافات تنفرد اللغة فى حياة الانسان بمنزلة خاصة . لقد اكتسبت منذ وعائها وضعا أسطوريا فى حياته . فهى عند الأصل البعيد لعمليات السحر والكهانة ، وهى عند الأصل البعيد للطقوس الدينية التى التزم بها الانسان ارضاء لقوى حسية تحيط به ، يبغى حسانها أو يدرأ قسوتها . هى عند جهوده لارضاء أسرار تكتنفه ويبقى عاجزا عن كشف لثامها . فى حياتنا الأولى ، كما فى حياتنا المعاصرة مشاهد متتابعة لأنواع من السحر أو القوى المتافيزيقية عمادها اللغة . وليس من قبيل المصادفات أن المعرفة تكاد تتناسى الأصول التى التفت حول أصول الكثير من وسائل الحياة : النار ، الزراعة ، الصناعة . . . الزواج ، الولادة ، الموت . . . وربما تنفرد اللغة بثوبها الأسطورى الذى أحاط بها قديما ويحيط بها حديثا . ولعلنى أقول ان وجودها ذاك لا فكاك للانسان منه . فهى أسطورية حين اصطنعها لنقل تراث الأوائل . وهى أسطورية حين نلتمس سحرها لدى المعاصرين خلال عروض المسارح أو من بين دقات حروف المطابع ! ومثال : لعل « الرقى » أقل الأنواع اختفاء ، وهى صياغات لغوية التمس فيها الأجداد الشفاء

والراحة عبر ابتهالات لقوى الخير أن تعينهم على قوى الشر ، ثم هي ، في صورة معاصرة ، كشف لعلماء النفس أو لبعض الأطباء عن أسرار من المكبوتات عسى أن يكون لديهم شفاء وراحة . وحين نبحث عن الأصل اللغوي «الرقية» نجد المعجم يرده الى الفعل « رقا » ومنه « الرقوة » التي هي دعص من الرمل . ويقولون رقا الرجل الى الشيء رقيا ، وارتقى بمعنى صعد . وكان « الرقي » من سياق مجازي فيه يصعد المسترقى الى منزلة أعلى من المحيط به ، لاثنا - أثناء دعواته - بقوى تفوقه . أو ربما كان صاحب الرقية يتخذ منزلا في مكان قصي لتنضج هناك طقوسه . وأما عن ماهيتها فهي كما يقول ابن الأثير : العوذة التي يرقى بها صاحب الآفة كالحمى والصرع وغير ذلك من الآفات (١) . وتسوق بعض مصادرنا القديمة أحاديث نبوية فيها ما ينكر « الرقي » وأخرى فيها اجازتها . من الأول قوله : « ما كنا نأبه بالرقى » ، ومن الآخر قوله : « استرقوا لها فان بها النظرة » . وإيا ما كان الأمر في صحة هذه الأحاديث ، فلا شك في أن جمع الموقفين المتعارضين يعرض ضربين من الفكر : أحدهما لا يستطيع الهروب من صيغ كان عليها السلف ، والآخر يمثل فكرا مريدا للتخلص من تأثير الاستسلام لجانب من قوى الغيب المبهم . والجمع بينهما هو المثل الشرعي لعلاقة الانسان باللغة ، بجانيبها : العاطفي - وهو أصل مكين - والعقلي ، وهو فرع مكين كذلك . ويصبح المزج بينهما وضعاً أسطوريا وشرعيا كما نقول . ومثل هذا القلق هو ما يصوره أحد الرجاز في صورة حية نابضة أمام خوف الموت ثم أمام الأمل في الحياة :

قد علمت والأجل الباقي أن لن يرد القدر الرواقى (٢)

ان « الرقي » تفسح الآمال . ولكن أنى لها والموت مصر !!

ولسنا في حاجة للإلحاح على دور اللغة في مثل ذلك المدار . هي من الأسباب الأولى لتوكيد ذلك الايمان . وحتى حين تتظاهر أمامنا المعتقدات في رداء حسي خالص ، وفي مظهر مادي مستقل ، فمن المستحيل تصور توارثهم

(١) لسان العرب ، ج ٥ ، ص ٣٤

(٢) لسان العرب : ج ١٩ ، ص ٤٧ - ٤٨ .

لتلك المعتقدات الا من خلال صيغ لغوية تناقلتها الأجيال : يحكون أن أهل الجاهلية كانوا اذا نزلت رفقة منهم فى واد قالت : « نعوذ بعزير هذا الوادى من مردة الجن وسفهاثهم » . كم كان التعوذ كافيا لينتظير الجن والخطر من طرقاتهم !!

هى اذن ماثورات سجلتها أقوالهم ، وهى معتقدات وجدت الطريق الى حيواتهم فى صلب التراكييب اللغوية . وللشاعر الأعشى أبيات يقول فيها :

فانى وما كلفتمونى وربكم ليعلم من أمس أحق وأحوبا
لكالثور والجنى يركب ظهره وما ذنبه ان عافت الماء مشربا
وما ذنبه ان عافت الماء باقر وما تعاف الماء الا ليضربا

ويفسر ابن طباطبا المعتقد الأسطورى بقوله : « انهم كانوا يضربون الثور اذا امتنعت البقر من الماء . ويقولون ان الجن تركب الثيران فتصد البقر عن الشرب » (١) . وهل كان تراثنا العربى ، بل وكل تراث الانسانية ، حول الجن وأساطيره ، هل تعدى كل ذلك التراث عدة ألفاظ لغوية حملت للأجيال المتلاحقة صورة من خيال انسانى عن مثل تلك المخلوقات التى لا يمتلك الانسان عنها سوى صور مشوهة يذكىها الخيال ويضفى عليها الوهم حماية من غزوات العقل العالم ! ومن الغريب فى حياة الانسان أنه حين تتكشف أمامه بعض أسرار تلك القوى ، فانه لا يلبث أن يتحول عنها الى غيرها ، وكأن للمجهول دائما سحرا خاصا يجتذب الانسان اليه كما يجتذب السنا الفراش !

واذا كان بعض السنا يوقع بالانسان أنواعا من القلق أو الشقاء فان المنطق العاقل يسعى دائما ليحول بعض السنا الى مصاييح كاشفة .
وأيا ما كانت التحولات فى حياة البشر فان اللغة هى قناة الاتصال

بينه وبين الجديد ، بل هي التى تجمع له الماضى وتصفى منه خلاصته لتصبها فى الجديد . ونخطئ اذ نطن بالانسان المعاصر تخليصا للغة من الهالة الأولى (الأسطورية) ، وما زال الكلام الكثير والرغى الذى لا نهاية له حول أسرار الجمال ، وحول عبقرية القول ، وحول أجنحة ربات الشعر ، وأرباب الفنون ، أقول ما زال كل ذلك يصدر عن جهد لكشف بعض سمات اللغة ، وليس هناك مجال لرفض الفكرة التى ترى أن الهالة الأسطورية التى لفت اللغة فى طياتها نابعة من ارتباطها بـ « الفعل » ، ذلك يعنى أن ترقب الانسان للغة يصدر عن ترقبه للحدث الذى تدل عليه ، أو أن الوجود الخارجى للماهيات ينعكس حتما على الوجود الداخلى للألفاظ حين تدور فى عقل المتحدث أو القارئ .

واذا كان علماء اللغة يذهبون الى أن « اللفظة » توضع لموضوع واحد فقد لا يصعب على غيرهم ادراك أن الفكر قادر دائما على أن يحرك هذا الموضوع من منزله الى منازل أخرى ، كما أنه يستطيع - أعنى الفكر - تغيير شحنات الألفاظ فيما بين الجمود والسيولة ، أو فيما بين الطمأنينة والعذاب ، وذلك حين يسكبها فى عبارات على غير النسق المألوف فى مثالية الواضحين ! . ولا يحدث شئ من ذلك الا اذا كان للغة جوانبها الميتافيزيقية والأسطورية . وبحكم ذلك التلازم تصير اللغة موضوعا لاثارة التفكير ، كما يصير الفكر محركا للغة من مكائنها التى تبدو فيها كوحداث القطا الكدرى لا يفزعها الا المتجول فى الغدو والرواح . ولو أن بعض تقاسيم المواد اللغوية تنزع الى التعامل بين بعضها البعض على أساس ما نسميه بالذاتية وبالموضوعية ، أو ما نسميه بالعاطفية وبالمنطقية فما أشد تداخل القسمين عندما يعركهما العقل لحلق الأحداث . ولو أخذنا فعلا مثل « يحب » وافترضنا أنه يحمل أعمق الجوانب الانفعالية أو الذاتية ورايناه يتركب فى مثل : يحب المال - يحب العلم - يحب السفر وما إليها ، ثم يتركب مع مثل : يحب نفسه - يحب الله - يحب الخير وما إليها ألا نستشعر خلطا بين المجموعتين من المساقات ؟ وكم تبدو الذاتية باهتة مع رنين الموضوعية فى القسم الأول ، وكم تبدو واضحة مع رنين الذاتية المبهمة فى القسم الثانى !! ويمكن أن نمر بمثال آخر حين نأخذ لفظة نستقبلها عامة كممثل للموضوعية الخالصة ، وليكن مثالنا

مع كلمة الاشتراكية : فلو أنها دخلت فى مثل العبارات : الاشتراكية زائلة - الاشتراكية باقية ، وفى مثل العبارات : الاشتراكية مكروهة - الاشتراكية محبوبة ، فلن يصعب الوصول الى التداخل الحاد بين ما نقبله على أنه موضوعى وما نقبله على أنه ذاتى . هى اذن الوظيفة التى لا حدود لها . هى وظيفة الكائن البشرى بحدوده الجسدية والحيوية ولكن بغير حدوده الزمانية والمكانية .

ادراك الانسان للخارج متوقف على ما تقدمه له اللغة ، وحين يزن الوهم للانسان أنه يمتلك الكثير مما حوله تكون الحديعة من اللغة . ولذلك لا تكاد حضارة من الحضارات التى حفظت أنماطها تخلو من مؤلفات حول اللغة ، ومن تجارب أشرف عليها مختصون بغية الكشف عن سر تلك الأداة ، التى لا يكاد ادراك الانسان لما هو خارجها يكون واضحا . حرص أصحاب الألسنة المختلفة على زعم يرى كل من خلاله أن لغته هى « الأم » ومنها انبثقت لغات الجحافل الأخرى .

وحتى لا نفرق وراء أبحاث لا حصر لها قام بها علماء قدماء ومحدثون ، واصطنعوا فيها مناهج باللغة الواضوح أو غاية فى التعقيد ، نقف مع ما عمله العرب القدماء . فلهم فى السياق قدح واف . ولسنا نعرف فى تاريخ الحضارات نصا « لغويا » نال من الرعاية ما ناله النص القرآنى . فمنذ من الله على المسلمين بالوحى ، والأبحاث لاتنقطع محاولة الكشف عن تفسير الإعجاز ، وعن استخلاص كل ما يحركه النظم القرآنى سواء فى مجال الدراسات الصوتية أو الدراسات البيانية أو مجال الفقه والتطبيق التشريعى ، وكما شغلوا بالقرآن شغل فريق منهم بالبحث عن أسرار القصائد وفنون القول . وكل بحوثهم فى المضمار كانت استمرارا لادراكهم أثر اللغة فى الحياة . فكم أذكت كلمات الشعراء الحروب وكم خففت من جراحهم !!

التحليل اللغوى يحظى بجهد كبير فى كل الثقافات . وينال الجهد ما يسمى باللغة العامة التى تكون للأمة الاحساس العام بكيانها وارتباطاتها ، ويناله أيضا ما يسمى باللغة الخاصة التى تكون للأمة آدابها وفنونها

ومحاوراتها الفلسفية والمنطقية . ومع ذلك الجهد فما زلنا نشعر بأن اللسان تعوزه الطاقات التعبيرية ، رغم طول الملابس ومئات القرون من المعاشة . ويبتهج فؤادنا اللغوى - ان صح هذا - حين نسمع طاقة تعبيرية غضة الرواء أو فيها ماء جديد ! وكل مناهج التحليل اللغوى سعى وراء ادراك أوفى بعد أن عجز الثوب عن أن يطبق المحمول ، فبات المحللون يبحثون عن المكنونات والمبهمات ، وسبب ذلك هو ما يلحظ من تفاوت بين الاستنتاجات حين تعمل عقول مختلفة فى نص لغوى واحد . وقد سعى فلاسفة اليونان الى تحديد مدلول « اللوجوس » وقالوا انه التماثل بين عمل الفكر والعمل الكلامى . وركز عبد القاهر آراء فريق من سلفه وأظهر أن الأساس فى النظم هو مراعاة معانى النحو . ويؤكد فريق من المناطقة المحدثين أن النحو هو الجزء الأول من المنطق ، لأنه بدء تحديد عملية التفكير ، ومبادئ النحو وقواعده هى الوسائل التى بها تصبح صور اللغة مماثلة لصور الفكر الكلية العامة (١) . ويتخذ فريق آخر موقف الشك فى قدرة انسجام الأشكال النحوية مع الأشكال المنطقية ، من هؤلاء برتراند رسل الذى يرى أن اللغة العادية غير قادرة على التعبير بدقة عن الفكر العلمى . ويرى أن اللغة تضللنا سواء بالفاظها أو بتركيبيها ، فلنحذرهما . ولا بد أن نميز بين الشكل النظمى للجملة من ناحية ، وبين شكلها المنطقى من ناحية أخرى . لأن الأول لا يناظر دائما الثانى . وأكثر من هذا ، كثيرا ما يضلنا الأول عن الثانى ، ويولد ألوانا من التشويش الفكرى والخلط المنطقى (٢) .

الجدل اذن بين ما نتخيله وضعا نحويا وما نتخيله وضعا منطقيا .

(١) انظر الفصل الذى يخصصه أرنست كاسيرر فى كتابه *Essay on man* وقد ترجم الكتاب الدكتور احسان عباس تحت عنوان : « فلسفة الحضارة الانسانية » . وكاسيرر ينقل ذلك الراى عن جون ستيوارت مل الذى يمنح تأييده لنهضة اليونان .

وما يعنيه الجرجاني « بمعانى النحو » هو الصلة بين الوحدات الكلامية أو ما يسمى بالاسناد : ما بين المسند والمسند اليه .

(٢) انظر عرض الدكتور عبد الرحمن روى للموضوع فى مقاليه « اللغة والمنطق فى الدراسات الحالية » المنشور بمجلة عالم الفكر - المجلد الثانى - العدد الأول (١٩٧١) .

ونحسب أن اثارته حادثة منذ قسم الاغريق الكلام الى قسميه الكبيرين :
الفعل والاسم .

وقد بدت تلك القسمة موضوعية خالصة ، وحسب الذين أخذوا بها .
أنها تحسم طريقة التعامل مع الأداة اللغوية وخاصة بعد أن أضيف الى
القسمين الكبيرين قسم ثالث هو الحروف أو « المتعلقات » ، ولكن مع ذلك
بقيت المفارقات قائمة بين كل تناول منطقي للعبارات وتناول نحوي ، وضعي .
ومن الغريب أن كل المدارس النحوية في الشرق وفي الغرب أخذت بمثل
ذلك التقسيم رغم استمرار الشكوى من عجزه عن حل القضايا اللغوية . وفي
لغتنا : لو أننا أخذنا جملة مثالية تتكون من فعل واسم مثل قولنا : « يلعب
الولد » فالفعل فيها ، رغم نموذجيته ، لا ينم عن نوع اللعب : أكان ضارا أم
مفيدا ؟ أكان عنيفا أم لينا ؟ أكان مطلوباً أم غير مطلوب ؟ وهكذا ما شئت من
تساؤلات . ثم : ذلك الولد ؟ المجهول السن وصاحب الصفات الغائبة . . أترأه
كان يركل بقدميه أم يلقف بيديه ؟ . . . وما أكثر حاجتنا حتى نستقر على
منطق حسب الذي ألقى الجملة التقريرية أنه فرغ منه .

ونوع آخر من هذه الجمل التقريرية ، وما أكثرها ، يحمل نفس العجز
المنطقي رغم أنه يعتبر جملاً تقليدية أو قياسية ، ان مثل قولنا : الشمس
تطلع . . . لا تتفق مع أية معايير فلكية أو معجمية ، فالثبات في الشمس
مستقر والطلوع لها غير متيقن . . . ولكنها المعرفة التي أحاطت بالاستخدام
اللغوي هي التي ما زالت ترسى مثل هذه الجمل في اللغات كافة . فالانجليز
يقولون : The sun rises والفرنسيون : Le soleil se lève

والألمان : Die Sonne geht auf

وهكذا . . .

والتخلف الذي نشكو منه اليوم ، هو وليد فهم القدماء ، حين كانت
الشمس هي التي تطلع وهي التي تغيب . أما حين دارت الأرض فتغير
الكلام .

وحين نترك الاستعمال الذي قد نتمحل لعجزه عند المستخدمين له ،
ونقف أمام الأنواع النحوية من مفرد ومثنى وجمع ، فهل لا يثير القصور بسبب

غياب المثني في الكثير من اللغات تساؤلات عن سره ؟ ان اللغة تقوم في أساسها على الثنائية : بين متكلم ومخاطب . ويصبح غياب المثني مما يعتبر عجزا يوشك أن يفارق الفطرة اللغوية . وحتى في اللغات التي اخذت به من العربية تبقى معاملة الثلاثة أو الاربعة بنفس النمط النحوي الذي نعامل به الماه أو الالف مما يلفت النظر ويثير الخوف من العجز^(١) ولكني احسب ان حنول الجمع ، القائم بحكم الاجتماع البشري في تكويناته الواسعة ، كان هو الذي أدى الى اندثار الثنائية في الاغلبية الساحقة من اللغات . لقد أصبح المجتمع هو المحاور الثاني للمتكلم ، ومن هنا كانت الجموع .

واقسام الكلام : ما هي ؟ أصحح أن الاسم هو ما ميزه النحاة بمثل قول ابن مالك :

بالجر والتنوين والنسب وال
ومسند للاسم تمييز حصل
أو بمثل قوله :

والاسم قد خصص بالجر كما قد خصص الفعل بأن ينجز ما

الجر عند النحاة من علامات الاسم ، بل ان ورود تلك الخصيصة في أول سماته يدل على اهتمامهم بتلك الحالة النحوية . وعلى هذا المنوال (الشكلي) تسير وجهات نظر النحاة نحو هذا القسم الكبير من أقسام الكلام . ومن التناقضات التي تكاد تمر وسط فيض من الجزئيات ذلك الباب النحوي الكبير الذي يفرد النحاة للأسماء التي تعمل عمل الفعل . ويضم الباب عشرة أنواع هي : المصدر واسم الفاعل ومثال المبالغة واسم المفعول والصفة المشبهة واسم الفعل والظرف والمجرور واسم المصدر ثم اسم التفضيل . ولم يكن هذا التداخل بين صفات الاسم النحوية وصفات الفعل النحوية مما يكفي لمعاودة

(١) من الملفت للنظر أن بعض لغويينا قد أدركوا بعض ذلك . لكن الرصد اللغوي لم يمكنهم من مزولة الجهد . ابن جني يقول : جمع ياء أبواب لثلاثة . ويزان لأكثر من ذلك (الخصائص ج ١ ، ص ٥) ولعل كلامهم من جموع القلة والكثرة محاولات لحل الصعوبة والعجز . ولكن كل ذلك جهد منطقي لا يشبع الجانب الذاتي بها .

النظر في حدود أجزاء الكلام . ليست وظيفة الاسم محصورة في قبوله الجبر أو التنوين أو . . ان الاسم يقوم « لتأكيد جانب خاص من الشيء المسمى وهذا القصر أو التحديد هو وحده الذى تعتمد عليه قيمة الاسم . وليست من وظيفة الاسم أن يشير على نحو جامع شامل الى موقف محسوس ، وانما حسبه أن يفرد مظهرها واحدا يتعلق به » (١) . ذلك جانب بالغ الأهمية فى النشاط اللغوى الذى تتعهد به الأسماء . وبنفس النهج يتحدد دور الفعل فى النشاط مستقلا عن خصائصه الاعرابية الخالصة . الحوا على أن « أل » تختص بالأسماء ثم حين وجدوا الفرزدق وهو من كان ينحت من صخر يقول :

ما أنت بالحكم الترضى حكومته ولا الأصيل ولا ذى الرأى والجدل
تعاوره النحاة ، وكل يجتهد للوصول الى تخريج لدخول « أل » الموصولة على
الضمار المبنى للمجهول ، بعضهم رماه بالشذوذ (٢) ، وبعضهم أباح مثل
الاستخدام (٣) .

وكما حدث الخلط فى دخول « أل » كذلك حدث فى « التنوين » .
ونحن لا نستقصى انما هى نماذج لمجرد التلميح الى خطورة الوقوف بالتفكير
المنطقي الخالص . قالوا ان التنوين من علامات الأسماء والفراء يقول سمعت
العرب تقول : من شب الى دب ومن شب الى دب مخفوض منون . يذهبون
به مذهب الأسماء . والمعنى مذ كان صغيرا يشب الى أن دب وكبر (٤) . واذا
كان ما يذكره الفراء يتأرجح بالتنوين بين الفعل والاسم فى مثل ذلك القول
الذى يلعب فيه التنغيم الفردى شوطه بحرية المنطلق من قيد الوزن الشعرى .
فان الروايات تكثر من ذكر بيت الشاعر :

-
- (١) كاسير : فلسفة الحضارة الانسانية ، ص ٢٢٧
(٢) انظر ص ١٢ من شرح شذور الذهب - لابن هشام (نشر محمد محيى الدين عبد الحميد)
(٣) انظر شرح ابن عذيل (نشر محمد محيى الدين عبد الحميد) الجزء الأول ص ١٧٩-١٨٠
وفيه يضيف الشاعر بينين آخرين على نفس النسق النحوى وهما للشاعر ذى الخرق الطنبورى
يقول الخنى وابفض العجم ناطقنا الى ربنا صوت الحمار الجذع
فمستخرج اليربوع من ناطقائه ومن حجره بالشيخه الناطق
(٤) القرطبي : ج ١ ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

أقلل السوم عاذل والعتابا وقولى ان أصبت لقد أصابا

على أنه قد اكتسب تنوين ترنم فى قافيته فصارت روايته :

أقلل السوم عاذل والعتابن وقولى ان اصبت لقد أصابن

وظاهر أن الترنم هنا لم يفرق بين الاسم فى نهاية الصدر « العتابن » وبين الفعل فى نهاية العجز « أصابن » ، وكأن التنوين لا يختص بالأسماء كما يحدد النحاة . وما من مرة وقف التفسير النحوى أمام هذه الاعتراضات أو القضايا الا والقارىء يوشك أن يرى تعدد الصيغ اللغوية فى داخل التراكيب . ويوشك أن يلمس « فردية » اللغة لولا ضغوط المجتمع لتحفظ بنمطية التعابير أو بالقنوات النموذجية . فذلك أيسر !!

لا يمكن أن ينشأ مثل هذا التخليط عن تخلف لسانى . فلا شك فى قدرة هذه العضلة الكلامية على اصطناع ألفاظ جديدة لا تكاد تحد الا بقوة الإدراك العقلى ، وقوة الإرادة على التنفط . فى كل هذه الحالات التى نرى فيها التداخل ، أو الخروج فما يسمى بالعلاقات بين أجزاء الكلام لا تفسر الا حين يستخدم المتحدثون لغة « خاصة » ، لغة التقنين اللغوى ، فلتكن لغة الأدب عامة أو لغة الشعر خاصة . وتفسير هذه المواقف أن المتكلم ، وهو صاحب الرصيد الاول فى التركيب ، يمتلك ما يريد التعبير عنه . وما دام واضح الرؤية فنن يصعب عليه منع أقواله الألفاظ والنغمات التى يريد بها . وهو قادر دائما عن طريق جرس « صوته » أن يستتفز من عباراته أكثر طاقاتها على تحريك رصيده العقلى أو الفكرى . والأصل - عند الكلام - أن يستهدف المتحدث تقديرا واحدا ، وحتى فى المقامات التى يمن له فيها أن يغلف نفسه بكثير أو بقليل من التستر والموارة ، فلا محيص عن وضوح رؤية واحدة تسمو عنده على غيرها . وحين يترك عباراته وتراكيبه حاملة للشك ، فإن مثل هذا الشك لا يصدر عن منطق ، وإنما يكون وليد منطق السامع أو مناطق السامعين ، وربما القارئ . والأمر دائما لا يبدو أن يكون لهثا منهم ليمتلكوا بـ « القوة » ما يمتلكه المتحدث بـ « العقل » . وتتفاوت أرض الالتقاء بين مستقبل النص ومبدعه . وقد تكون جهود المنسرين مما يتجاوز ما أراد

المتحدث ، وقد يكون لها عجز المنبت • وأبرع ما يكون ذلك حين يتعامل العقل المستقبل مع نص يحتمل الإضافات - لان صاحبه ضمن بها - وما كان يمكن أن تتاح الفرصة لو أن التعابير جاءت ذات منطق محكم أو على قدر المضمون المعجمي •

ما نلمسه من عجز في « اللغة » يكاد ينتسب في أغلبه الى السمات النحوية التي صنعها « منطق النحو » ، والى القيود التي فرضها العقل البشري المحب في كثير من حالاته للوقوع في أسر السابقين ، يخشى أن يستحدث جديدا ، مخافة أن يكون حجابا بين التراث والوارثين ، ومخافة أن تنبهم روائع الفكر والأدب ، ثم مخافة أن تضيع منه معالم رحلة الحياة فيما مضى ، كما تضيع منه رحلة الحياة فيما بقى !! ولعل ذلك هو تفسير السعة التي يبقى عليها باب دخول المصطلحات العلمية والرياضية وما اليها من معارف بحثة لا تندرج تحت الفنون والآداب اندراجا مباشرا •

علاقات الفكر اللغوي تنشط اذن حول محورين واضحين : أولهما تلك الجهود التي فتتت الوحدات الى أقسام وضعوا لها علامات ، ثم بانث العلامات غير كافية لاستيعاب كل الخصائص التي يمنحها المتحدثون للوحدات • والثاني يختص بالتعابير والتراكيب ، وعندها أيضا لا تبدو الرموز الصوتية كافية لتحمل الانفعالات التي يود العقل أن ينفثها مع الألفاظ • ويبقى الخطر كامنا في أننا نستقبل ذلك الرمز كدالة الى مرموز لا يصلنا الا من خلال رمزه • فكثيرا ما تأتينا الدلالات وقد تداخلت فيها خبرتنا القادمة مع الرمز وخبرتنا المباشرة التي لا تستند اليه •

ليست العلامات اللغوية وحدها هي الطريق الى اقتناص المعنى • ففي مثل العبارتين : يشكر الأستاذ التلميذ ، ويشكر التلميذ الأستاذ ، أو نأخذ ما ضربه القدماء مثلا : حرق الثوب المسمار ، تتوقف الدلالة التي يكتسبها العقل على قدرته على الانتقال من الصياغات اللفظية الى مبنى العبارة - أو الى الاسناد الذي تستند اليه العملية العقلية • ثم بعد ذلك يقفز العقل الى المعنى المجرد ، الى الدلالة المرادة • واذا كانت المرحلتان الأوليان تعتمدان على

التشخيص الذى يعتبر العلامات اللغوية سواء كوححدات أو كميان ، فان النهاية التى نصل اليها هى التجريد الخاص للخلاصة ، مضافا اليه تجريد من العرف اللغوى العام . ومثل هذا النظر لا يغيب عنه دور معانى النحو ، التى تحدد الفاعلية أو المفعولية أو غيرها من علاقات . ولكن الذى يجب ان يكون حاضرا عند كل فهم هو الادراك العقلى او دور الارادة المفتشة عما وراء الصيغ . وفى مثل هذا المقام يمكن أن نأخذ ما يقوله فندريس : « تبلغ الصعوبة فى تصنيف أجزاء الكلم حدا يعوقنا حتى الآن عن الوصول الى تصنيف مرض . وما زال نحونا التقليدى يعلمنا أن نقسمها الى عشرة اقسام تبعا لتقليد قديم يرجع الى مناطق الاغريق . ولكن هذا التصنيف لا يثبت أمام الامتحان ، فان تبرير تطبيقه على اللغة التى خلق من أجلها لا يخلو من عناء ، فمن باب أولى أن توجد لغات كثيرة لا ينسجم معها هذا التقسيم اطلاقا . وبمناقشة عن كتب نرى أنفسنا مضطرين الى تصحيحه » (١) . ويسلك صاحبنا منهجه ليستبعد الكثير من الأقسام التى وقف عندها النحاة . ومن دقيق ما يصنعه أن تكون أدوات التعجب أو حروف التعجب interjection كما يسميها أول ما يستبعده من أصناف الكلام . واذا كانت هذه الحروف « مثل مصمصة الشفاة أو صوت الضيق أف . . . » تمثل طابعا فرديا أو طابعا انفعاليا فى اللغة فانها لا تندرج تحت البنية العقلية للغة - حتى حين تتعدى ذلك المضمار وتصبح أداة أمر أو طلب فعل .

وكما يستبعد فندريس هذه الحروف يستبعد كذلك حروف الجر والوصل ، لأن الدور الذى تقوم به فى لغة من اللغات « يمكن أن تقوم به فى لغات أخرى عملية صرفية تختلف عنها كل الاختلاف » (٢) . واذا كانت أداة

(١) اللغة - ص ١٥٥

(٢) المصدر نفسه ومثال ذلك ما يعبر عنه فى الفرنسية بقوله Le livre de Pierre

تبر عنه العربية بقولها كتاب بدير مستغنية بالاضافة عن أداة الملكية أو حرف de ونفس الشيء يمكن أن يقال عن حرص الكثير من اللغات الهندوأوربية على فعل الكينونة كمحور فى بناء الجمل ، نراه اختفى أمام الاسناد فى العربية : الوردة جميلة تترجم الى The flower is beautiful فان اسناد الخبر الى مبتدأ طمس موضع الكينونة هذا حتى وان ساورنا ذكره اختفائه مع الزمن .

التعريف هي في الأصل اسم إشارة ضعف معناه ، فانها صارت مجرد وسيلة للتمييز بين النكرة والمعرفة أو لتصنيف معناه . فانها صارت مجرد وسيلة حاملة لخصائص نحوية . ولذلك يمكن الا تقبل كقسم خاص من أقسام الكلام .

واذا كان النموذج السابق مأخوذا من لغات لا تعرف ما تسميه عربيتنا بالجملة الاسمية ، فان مثل هذه التركيبية تنفرد بوضع خاص . ونسمة « الاسمية » كانت لهذا النوع من الجمل بحكم البداية اللفظية . ولا تمنع هذه البدايات ان يكون المسند ما وسمه النحاة بالفعلية أو بالظرفية أو ... وليس من الغريب ان تكون عناية قدمائنا منصرفة الى أقسام الكلام أو الى الوحدات الرمزية المستقلة ، ثم ما يدور حولها من عوامل واعمال تظهر آثارها في علامات الاعراب . ولمثل ذلك الدرس كان على العقل اللغوي أن يفرق بين الدراسة النحوية ودراسة الدلالات . ومن ثمة أبدعوا « علم المعاني » على تفاوت كبير بين رجل مثل عبد القاهر الجرجاني يحرص على إبراز « معاني » النحو في النظم ، ورجل مثل السكاكي يحرص على القول بأن علم النحو « هو أن تنحو معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلم » (١) . ولكن اذ نترك أقوال أهل المعاني حين ، فأننا نأخذ ما يقرره ابن هشام في حد الجملة الاسمية : « هي التي صدرها اسم كزيد قائم ، وهيئات العقيق ، وقائم الزيدان عند من جوزه ، وهو الأخفش والكوفيون » وليس علينا كبير عناء ان نفحصنا عن العقل مثاله الثاني « هيئات العقيق » فالصدر هنا « اسم فعل » !! ومعنى الفعلية فيه طافح ، سواء في تخليه عن سمات الأسماء الاعرابية أو تخليه عن المعنى الاسمي الصرف . ولكن أليس ذلك امتدادا لفلسفة مدرسة البصرة التي كانت ترى أن الاسم أصل المشتقات فهو الأصل وغيره الفرع !! وكأنه لابد من تصور أصل يخالف الحدث المنتمي في صلبه الى الفعل .

الأصل الذي يستحق الرعاية هو الجهد العقلي الذي من خلاله يعقد

المتحدث العلاقة بين أجزاء الكلام ، أو لنقل هو فكر اسناد الخبر أو الحدث الى مسند اليه . فاذا قلنا « الحق ظاهر » فاننا نسند فكرة الظهور الى مسند اليه هو الحق . وحين نقول : « ظهر الحق » فاننا نسند الظهور الى الحق . والمسند اليه في الحالتين هو الاسم الأول - المبتدأ - في الحالة الأولى ، وهو الاسم - الفاعل - في الجملة الفعلية الثانية . والعملية العقلية متماثلة في العبارتين . ولكن صنيع النحاة هو صنيع عقل منطقي مولع بالتقسيم الشكلي أكثر من تعلقه بالعلاقة المعنوية أو لتكن العلاقة العقلية . ولا جديد حين نقول ان كل عملية لغوية هي في الأصل مصنوعة في معامل العقل المختزن للرموز وللدلالات وللعلاقات كذلك . واذا كان فريق من المناطق يذهبون الى أن استكشاف المعاني النحوية في العبارة يعتبر البداية التي ينخرط فيها العقل لاستكشاف الفكرة ، فلا شك في أن مثل هذا الدرب من التصور لا وجود له الا بعد أن تمر رحلة التأمل اللغوي في شوط طويل ، أى بعد أن يتفرغ العقل للتفتيش عن ماهية الجمل و ماهية الألفاظ و ماهية العلاقات بينها ، أما الأصل فيها فهو الاستخدام الفطري . وقد يكون حقا أن الكثير من التوجيه النحوي هو سليل تفكير عملي يبحث عن أسرار الظواهر التي تحيط بالانسان وقد ساهم اليونانيون بمنطقهم في ارساء بذور قديمة فيما نسميه بـ « منطق اللغة » ، وان كان الكثير من ذلك قد نحا وجهة تقسيم الكلام الى أقسام ، فانهم أيضا قد طرحوا السؤال حول اللغة : ماهيتها وصلاتها : أمواضعة أم طبيعية ؟ وكان السفسطائيون في زمن أفلاطون من أوائل الذين ركزوا أضواءهم على الجمل بأقسامها التقريرية ، والطلبية ، والاستفهامية وغيرها ، ونحا أرسطو نحو اللوجوس وهو الكلام المفيد ، ومن ثمة ولج الى عالم الجمل القائمة على الاسم : *anoma* ، بالاشتراك مع الفعل *rhema* . ولم يكن له محيص من اضافة أقسام أخرى حين حلل العبارات ، فقال بوجود الروابط والحروف . أن الكثير من تراث البشرية النحوي يأتينا مما خلفه السابقون . ولست في حاجة لتوكيد أن اهتماماتهم بالمنطق الخاص كانت أكثر طغيانا من اهتماماتهم بفلسفة اللغات . ولا شك في أن اعتدادهم بلغتهم اليونانية ، ورفضهم لغيرها قد صبغ قواعدهم

بخصائصها محصورة . وفي براء برانهم الادبي والفلسفي يمكن لارائهم (١) .

ولعل الشيء الواضح الذي يمكن أن يستخلصه الناظر في عمليات المراجعة الدائمة « لأقسام الكلام » منذ قام الاغريق بتقسيمهم هو أنها تؤكد لبعدها عن الحدود المنطقية القريبة ، فلها أبعادها التي هي وراء المنطق . وما زاد عند نحاة اللغات الهندوأوربية يقابله أيضا تملل عند فريق من نحاة عربيتنا فهم يشعرون أن الكثير من الكلمات تستقل بسمات عن الفعل والاسم والحرف مثل : اسم الفعل - اسم المفعول - الظرف وما إليها (٢) .

ومع مثل هذه الوقفات يشعر العقل ، أو الحس اللغوي أن ما اصطللحنا عليه من رموز لغوية يكاد يتحول في بعض اللحظات الى علامات كما تحولت العلامات الطبيعية الى رموز .

(١) يمكن الرجوع الى كتاب :

Ogden & Richrads : The meaning of meaning, p. 24-59.

والى كتاب :

Dineen : An introduction to general ligustics, p. 55, ed., 1967.

(٢) انظر على سبيل المثال : كتاب د. عبد الرحمن أيوب « دراسات لغوية في النحو

العربي » ط ٥٧ . و « في النحو العربي » د. مهدي المخزومي ، بيروت .

- ٢ -

من نظرات قدمائنا

ما أكثر الاختراعات التى كانت للانسان منذ بدأ تاريخه ، ومع ذلك فما أكثر الذى تساقط منها ! حدث ذلك لأن مكتشفات جديدة بدت أكثر ملاءمة تحت الحاح شوط حضارى جديد ، أو حدث لأن جدوى الاختراع لم تعد توائم الجهد المبذول ، أو لأن اختراعا جديدا يجب ما كان ٠٠٠٠ ومن بين كل ما اخترعه الانسان تبقى اللغة شامخة الشراع .

فهما كان الطور الحضارى ، ومهما كانت انعكاسات البيئة الاقتصادية والاجتماعية والروحية ، فان الفرد والجماعة بقيا يعيشان الحياة اللغوية كرباط لا فكاك للمجتمع البشرى عنه . ويصدق قول هـمبولت : « شكرا للغة فيها صار الانسان انسانا » (١) ، فهى فالقة الكائن البشرى عن غيره من الكائنات . وسواء قلنا ان الانسان حيوان ناطق ، أو مفكر ، أو اجتماعى ، أو ضاحك ، أو رامز ، فكلها أفلاك متجاوزة تدور فى كنف اللغة : انه ناطق لالفاظها ، مفكر بها ، اجتماعى بفضلها ، ضاحك بمفارقاتها ، رامز بأصواتها : هى اذن التى تجعل كل هذه الصفات لصيقة بالانسان ، مسندة اليه .

واذا كنا لا نعرف حتى اليوم اختراعا سبق وجود اللغة ، فانها توشك أن تكون الابتداء الوحيد الذى لازمه منذ تحرك فى مهده .

وفى تراث البشر : عند الفراعنة ، وعند الهنود ، وعند اليونان

والرومان . أنماط مختلفة من الجدل حول صلة الإنسان بالأداة السانية .
وإذا كانت دعوى الجنس باثت متارجحة إزاء الاشتجار الدائم بين الأجسام
ورفض النقاء العنصري . فإن الوعاء اللغوي أصبح الملاذ لتنس الفرائد
والمميزات ، ذلك لأنه في كل العصور تسكب العقول عصارتها في حومته ،
ومن العصارات نأخذ ما نريد .

ومن بين تراث الشعوب القديمة ينفرد تراث العرب بمنزلة خاصة . فبحوثهم
رائعة حول الصوتيات : في مجال وصف مخارج الحروف ، أو في مجال
مركباتها المحدودة ببنية اللفظ - أو علوم الصرف - ، أو مجال علاقات
الوحدات الكلامية ، علوم النظم ، أقول إن الذي صنعوه ما زال من أوفى
الذي كان . وبه كثير من الصحة والسبق رغم تقلبات مناهج البحث وأخذها
بمختلف المعايير . وبالمثل : كانت أقوالهم بشأن اللغة : فلسفتها ووظيفتها ،
فيها الكثير من الأصالة والاتقان .

ويسجلون أن الخليل بن أحمد الفراهيدي ، ومن بعده تلميذه سيبويه
قد صنعا صناعة عند دراسة الأصوات وذوق الحروف لتحديد المخارج
والصفات (١) . ومع ذلك فإن جهودا مستمرة نشطت من بعدهما وأعطت
حلو الثمرات . كان الخليل « يمتاز بحس لغوي دقيق جعله يفقه أسرار
العربية ودقائقها في العبارات والألفاظ فقها لعل أحدا من معاصريه لم
يبلغه . ويتوقف سيبويه مرارا لينقل عنه مثل : « إن هذه العبارة أو هذه
الظاهرة تكرهها العرب » ، أو إن هذه الصيغة جيدة في لسانهم أو أنهم
يميلون إلى هذا الأداء رغبة في التخفيف . ومن أروع الجوانب التي يتضح

(١) قد يرى بعض العلماء والدارسين أن هذين العالمين قد تأثرا بجهد كان قد ترجم عن
علماء الهند في مجال الدراسات الصوتية .

انظر : التطور النحوي للغة العربية للمستشرق برجستراسر (المقدمة) .

وانظر : دراسات نقدية في النحو العربي للدكتور عبد الرحمن أيوب .

والشيء الذي نضفه أن التطبيق الذي التزم به يوشك أن يجعل جهودهم حيلة
بل وفريدة . والدور الذي لعبه يحتم استنتاج أن الحقل الدراسي كان يروج شيء من الذي
أحسننا انتطافه .

فيها ذوقه اللغوى المرفه أحاديثه الكثيرة التى نقلها عنه سيبويه فى
الادغام والاعلال ومواضع قلب الواو ياء والياء واوا « (١) » .

لم تكن دراسات الخليل ، ودراسات سيبويه بمعزل عن منطق اللغة ،
وعن القضية التى شغلت العصر ، عن : أفصح اللغات . ما مواصفاتها ؟ ولأى
القبائل تنسب ؟ وكيف تركبت ؟ ٤٠٠ ؟ ولكن : يمكن أن نعزل مثل ذلك
الدرس عن الموقف الحضارى العام ! وتلك قضية لكل العصور ، وفرض على
كل الانسانيات .

* * *

كان خلاف بين قراء القراءات القرآنية ، وانتصر رؤوس بعض المدارس
اللغوية لحروف ، وانتصر السلطان لحروف أخرى (٢) . ولم يكف الجسد
اللغوى . وإذا كانت قاعدة مشروعة ذهبت الى « أن الاعتماد فى نقل القرآن
على حفظ القلوب والصدور لا على حفظ المصاحف والكتب » (٣) ، فإن هذه
الشرعية قد ولدت موقفا آخر ، يحدده الحافظ أبو عمرو الدانى فى كتابه
« جامع البيان » بعد أن يحاج سيبويه فى انكاره قراءة « بإرئكم ويأمركم »
بالاسكان . وينتصر الدانى لهذا الوجه ، ويسوق قاعدة شرعية أخرى :
« أئمة القراء لا تعمل فى شئ من حروف القرآن على الأفشى فى اللغة
والأقيس فى العربية بل على الأثبت فى الأثر والأصح فى النقل والرواية .
إذا ثبت عنهم لم يردوها قياس عربية » (٤) .

(١) المدارس النحوية للدكتور شوقى ضيف ، ص ٣٧ .

(٢) فى كتاب المصاحف للحافظ أبى بكر عبد الله بن داود السجستاني رصده واضح
لخلافا الحروف فى عدد كبير من المصاحف . وفيه باب ما كتب الحجاج بن يوسف فى
المصاحف (ص ٤٩) . وينسب للحجاج أنه تدخل لاختيار أحد عشر حرفا من حروف القراءات
وأمر بها . وتفسير الطبرى يجمع الكثير من وجوه القراءات معزوة لأصحابها . بل لا يكاد كتاب
كبير من كتب السابقين المتصلة بالقضية الأوبه تقول من القراءات . وكان الاممندان بالقلوب
والعزلة اللغوية والتثبت فى الرواية هى الضوابط التى رعت كل شئ . والنظر مقدمة
تفسير الطبرى ، ج ١

(٣) النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى ، ص ٩

(٤) المصدر السابق ص ١١

هذا نمط من معايير جدل القراء ، يستند في جوهره الى فهم ننوضع اللغوى والظروف الاجتماعية التى احاطت بالقبائل العربيه فى صدر حياتها الاسلامية . وليس لنا أن نتتبع « الدور » فى موقفنا هذا ، ولكننا نذهب الى أن العناية بالدراسات الصوتية ، وبالدراسات الصرفية ، وبغيرها من وجوه علوم اللغة كانت فى أصلها مشدودة الى رعاية النص القرآنى الكريم . ويرسم أحمد بن فارس حدا من القضية فى قوله : « ان لعلم العرب أصلا وفرعا . أما الفرع فمعرفة الاسماء والصفات كقولنا « رجل » و « فرس » و « طويل » و « قصير » . وهذا هو الذى يبدأ به عند التسم .

وأما الأصل فالقول على موضوع اللغة وأولييتها ومنشئها ثم على رسوم العرب فى مخاطباتها ، ومآلها من الافتنان تحقيقا ومجازا . والناس فى ذلك رجلان : رجل شغل بالفرع فلا يعرف غيره ، وآخر جمع الأمرين معا . وهذه هى الرتبة العليا ، لأن بها يعلم خطاب القرآن والسنة وعليها يعول أهل النظر والفتيا . . . ولو أنه لم يعلم توسع العرب فى مخاطباتها لعى بكثير من علم محكم الكتاب والسنة ، ألا تسمع قول الله جل ثناؤه : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه » الى آخر الآية ، فسر هذه الآية فى نطقها لا يكون بمعرفة غريب اللغة والوحشى من الكلام ، وانما معرفته بغير ذلك . . . » (١) .

تلك صورة مما كان يلح على العلماء ويحفز الهم للدرس والاستكشاف ، ومع الحوافز الدينية والعقدية كانت الحاسة اللغوية بذل قيمها الجمالية مما شغل علماء العربية . واذا كان حقا أن لكل شعب فنونه التى تمتص طاقاته وتستوعب تطلعاته ، فان « فن القول » كان مما أمسك بتلابيب العرب ، وأعطوه الكثير من عواطفهم وأنوار عقولهم . وبعد المراحل التى تشتفى فيها النفوس ، وتطمئن الى تراث فيه أصالة الأجداد وابداعهم يحلو دائما للعقل - اللاحق زمانيا - أن يعود الى كلاسية الأول يفتش

ويتأمل روائعها • وأحسب أن التحليل طريق يسلكه الفكر عساه أن يقوده الى بذور أولى أو نبت رشيق • وتحت الضوء كانت قضية القديم والحديث • واللغة وعاء الزادين • وانتصرت جماعة للقديم ، للألفاظ البدوية التي لم يشبها لين الحواضر وألسنة المولدين ، فأبو عمرو بن العلاء يرفض أن يروى أشعار جرير والفرزدق والأخطل ، لأن العبارة عندهم آخذة بغير ما أخذ به الجاهليون والمخضرمون(١) • وعارضت الاتجاه جماعة أخرى ترى أن لكل عصر رواءه ، ويلقى ابن قتيبة قولته المشهورة : « لم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عبادته في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثا في عصره »(٢) •

وغير بعيد عن خصومة القدماء والمحدثين ، بكل ما نتج عنها من ثراء لغوى وفكرى ، سواء مما قال به أبناء مدرسة يمثلهم أنصار أبى تمام ، كرأس لمذهب يميل الى الصنعة والمعانى الغامضة التي تستخرج بالغوص والفكرة ، أو مما قال به أبناء مدرسة يمثلها البحتريون ، حين ينسبون صاحبهم الى حلاوة النفس وحسن التخلص ووضع الكلام فى مواضعه وصحة العبارة وقرب الماتى وانكشاف المعنى(٣) • تقول غير بعيد عن هذا كان رافد ثالث من روافد حضارة العصر يشتمل فيما كان من جدل فكرى حاد بين رجال الفرق الدينية والأحزاب السياسية • لقد امتد الجدل ليغطى قضايا بارزة مثل الأخذ من ثقافات أخرى وخاصة الفلسفة الاغريقية ، ومثل الانتصار لعرق « جنس » على غيره من « العروق » • ولم تكن قضية الأخذ بظاهر اللفظ « أو بباطنه » الا جهدا آخر لتوكيد دور الدلالات اللغوية

(١) انظر موقف ابن الاعرابى من أبيات رقيقة لاسحاق الموصلى ، وكيف أنه حكم بفسادها بعد أن عرف مؤلفها ، الموازنة ج ١ ، ص ٢٣

(٢) الشعر والشعراء ج ١ ، ص ٧

(٣) فى سبيل مثال نرى يمكن ذكر كتاب الموازنة بين الطائيين للأمدى وخاصة باب « احتجاج الخصمين » ، وفيه كثير من القضايا النقدية التي يقوم أغلبها على تحديدات لدور العبارة اللغوية فى مفهوم الشعر •

في الصراع العقدي والفقهى بل والحضارى . واصطدم « المنقول بالعقول » ، وكانت حلقات درس عامرة بالحياة . وكان شرطاً أساسياً لكل من يسهم في القضايا أن تحسن معرفته باللغة ، بل وأن يكون ذا رأى في الكثير من قضاياها (١) .

* * *

التفسير كان في بدء نشأته يدور على السنة رجال اللغة (٢) . والقراءات كانت الحقل الذى برز فيه العديد من اللغويين (٣) . والدراسات البلاغية والبيانية والنقدية كانت كلها بين أيدي اللغويين والأدباء من أصحاب البيان (٤) .

(١) انظر كتاب جولد تسيهر عن « مذاهب التفسير الاسلامي » . ترجمة د. النجار . وبصرف النظر عن بعض النقط في الكتاب فإنه يحيط احاطة كافية بالكثير من الجدل اللغوي والعقل .

وانظر كذلك البيان والتبيين لاجاحظ ، وفيه محاولة واسعة لتحديد مفاهيم البلاغة والبيان عند العرب وعند غيرهم من الشعوب .
ولسنا في حاجة الى التذكير بما كان يذهب اليه الامويون حين اصروا على ارسال بعض اولادهم الى البادية ، أو استقدام المؤدبين اليهم ممن عرفوا بفصاحة اللسان . ولم يكن ذلك الا حفاظاً على أوعيتهم اللغوية .

(٢) أما أن نزول القرآن قد أثار الاحساس البياني عند العرب فذلك واضح من التحدى الذى اقنم القرآن للمشركون لياتوا بسورة من مثله . ومن ثمة كان الوجه الذى غلب على المفسرين الأوائل هو الوجه اللغوي . وما زال تراث التفسير يذكر ما ذهب اليه ابن عباس من أنه اذا تعاجم شيء من القرآن فالتمسوه في الشعر فإنه ديوان العرب . وربما كانت بعض ملاحظات ابن عباس وتلميذه مجاهد هي التي امدت أصحاب التفسير بـ « المعقول » بكثير من خبرتهم اللغوية ، والجهود اللغوية في هذا المجال أوسع بكثير من أن نحيط بها . ولكن يكفي أن نذكر نماذج كتب « غريب القرآن » ، « مجاز القرآن » ، « مشكل القرآن » .

(٣) ان حركة الجدل الذى قام حول القراءات هي في اصلها حركة لغوية خالصة . وسواء كانت القراءات المتواترة أو الأحاد أو الشاذة فهي تتركز الى توجيهات لغوية . وحين دنا من شيوخ القراءة اختار أصحاب القراءات السبع أو العشر أو غيرهم كان الاختيار مستنداً - بعد التسليم بصحة الرواية - الى منزلة القراء في مجال المعرفة اللغوية .

(٤) ان الجدل الكبير بين المدرستين الكبيرتين : البصرة والكوفة لم يكن الا توكيدا لموقفين من الاداة وطرق فهمها وتحقيقها . وحين ترك الجهود النحوية الخاصة ونقول انه اذا صح وكانت كتب اجاحظ كالبيان والتبيين وابن سلام « طبقات فحول الشعراء » وابن قتيبة =

وما يكاد القرن الثالث للهجرة يكتمل حتى تكون مواد الموسوعات اللغوية قد صنفت وقام العلماء بجهـد ضخم لتنقية الألفاظ والعبارات ، وتحقيق الدواوين قديمها وحديثها . وما تكاد قضية من قضايا اللغة فى عصرهم تمر دون وقفات من العلماء يـمـخـصـونـها . ولعل أبا الفتح عثمان بن جنى (١) يمثل منزلة خاصة بين رجال القرن الرابع للهجرة . لقد استوعب الرجل كثيرا من التراث حتى عصره . ثم قفز به قفزة رائعة للأمام . ما عاد يكتفى بالرصد والوصف ، بل أخذ يشق الطرق للجديد ، وتدفعه جسارته العقلية الى تناول اللغة كأداة مقرونة بالانسان ، لا فكاك له عنها ، ولا وجود لها بدونه . وحين يعرض القضية التى دارت مع السنة الأصوليين والعقليين والنقلين وهى قضية أصل اللغة : ألهم أم اصطلاح نراه يأخذ بحذر العالم الورع الذى لم يشنه حبه للغة ، ولا ما شاع على السنة بعضهم من فضل العربية وشرفها . فهى لغة آدم . وهى لغة أهل الجنة (٢) . وحين يقف ابن جنى أمام القضية يقول : « هذا موضع محوج الى فضل تأمل » ، ويعرض آراء « أهل النظر » ، « وهم أهل الاعتزال » الذين ذهبوا الى أن اللغة تواضع واصطلاح لا وحى وتوقيف . ويعرض رأى أستاذه أبى على الفارسى الذى قال انها من عند الله . ولكن برعاية البر يناقشه ويعرض الكثير من الآراء المتارحة بين الماخذين : التوقيف والاصطلاح ، وبعد ذلك يضيف صاحبنا رأيا : « أصل اللغات كلها من المسموعات ، كدوى الريح وحنين الرعد وخرير الماء وصهيل الفرس ... ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد » .

= « الشعر والشعراء » كتبنا تسجل الكثير من الجدل النثدى والبلاغى . فان الطابع اللغوى لذاك الجدل واضح تماما . ثم حين ننظر الى كتاب عبد القاهر الجرجاني « دلائل الاعجاز » تسفر القضية وتسنم الحاسة البلاغية أو اللغوية ذروة البحث .

(١) الرجل مشهور . ومع ذلك فلنقل انه ولد عام ٣٢٠ هـ وتوفى ٣٩٢ هـ ودرس على يد أستاذه أبى على الفارسى . وتمتاز أبحاثه بعمق الفكرة وكأنه استوعب مقاييس العصر : عند اللغويين الأصوليين وانحاة المتكلمين ... لترجمته انظر : تيمية الدهر ج ١ ، تاريخ بغداد ، معجم ياقوت ج ١٢ . أو المقدمة التى كتبها المرحوم النجار لكتاب الخصائص .

(٢) انظر السيوطى - المزهر ج ١ ، ص ٣٠ . حيث يسوق ما يأخذه عن ابن عساكر ، منقولاً عن ابن عباس « كانت لغة آدم فى الجنة العربية . فلما عصى الله سلبه العربية ، فتكلم بالسريانية ، فلما تاب رد الله اليه العربية » وعند فهم هذا لن تغيب فكرة العصبية المحبة للغة ..

« وهذا عندى وجه صالح ومذهب متقبل » . ومع هذا الالتزام فهو يشعر أن الموضوع بطبيعته المنتمية الى « ما وراء اللغة » أخطر من أن تكون فيه كلمة قاطعة . « واعلم فيما بعد : أننى على تقادم الوقت دائم التنقير والبحث عن هذا الموضوع ، فأجد الدواعى والحواليج قوية التجاذب لى ، مختلطة جهات القول على فكرى . وذلك أننى اذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة ، وجدت فيها من الحكمة والدقة والارهاف والرقّة ما يملك على جانب الفكر . حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر ، فمن ذلك ما نبه عليه أصحابنا رحمهم الله ، ومنه ما حذوته على أمثلتهم . . . وانضاف الى ذلك وارد الاخبار الماثورة بأنّها من عند الله جل وعز . فقوى فى نفسى اعتقاد كونها توفيقا من الله سبحانه ، وأنها وحى » (١) . ذلك احساس عالم ، كم يستشعر الرهبة كلما تأمل فى مادة علمه ؟ ثم هو يدرك فضل شيوخه وقيمة أعمالهم ، فأصبح يتأمل اللغة وكأنه يتأمل « الكون » . أليس ذلك هو الاحساس نفسه الذى ينتاب أشد الناس ايفالا فى الأخذ بالعقل الصرف حين يجنح الى وهم يحسبه مريحه من نسبة الكون الى قوى غيبية ، ثم حين تتاح فرصة المراجعة والتنقير والبحث تهوله أعماق الكون وأسراره ، ويصبح لا مندوحة له من الالتجاء - من جديد - الى الخالق ييسر لعقله ادراك شىء من السر الهائل . والذى يبهر الناظر فى آراء ابن جنى أنه على الرغم من ورعه اللغوى يعود ليقول : « ثم أقول فى ضد هذا : كما وقع لأصحابنا ولنا ، وتنبهوا وتنبهنا ، على تأمل هذه الحكمة الرائعة الباهرة ، كذلك لا ننكر أن يكون الله تعالى قد خلق من قبلنا - وان بعد مداه - من كان ألطف منا أذهانا وأسرع خواطر وأجرا جنانا . فأقف بين تين الخلتين حسيرا . وأكاثرهما فأنكفى مكثورا . وان خطر خاطر فيما بعد ، يعلق الكف باحدى الجهتين ، ويكفها عن صاحبها ، قلنا به . وبالله التوفيق » (٢) .

هو عقل عامل اذن . يجمع الكثير من القضايا التى أحاطت بعصره ،

(١) الخصائص ، ج ١ ، ص ٤٧

(٢) المرجع السابق .

قضايا القياس ، والاشتقاق والأصول والفروع ، ومباحث الفقه واللغة ،
ومذاهب أهل الأصول والمتكلمين (١) .
التاريخ :

وإذا تركنا هذه النظرة الكلية الى أصل اللغة ، لنقف أمام محاولته لتقديم حد للغة أذهشنا جهده . انه يقول : « أما حد اللغة فانها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم » (٢) . وهذه كلمات تسبق ما جاء به غيره بمئات السنين . انه يعرض فكرة الأصوات اللغوية ، سواء كانت نظرتنا اليها أنها غريزية أم مكتسبة ، وسواء ألحنا أنها رموز أم أجزاء من رموز . كما يعرض وظيفة اللغة في المجتمع حين تعبر عن آراء كل قوم . وذلك « حد » يقع تحت النظر المنطقي الذي يفترض « وضعاً » مسبقاً أو منطقياً في كل نظر لغوي . وهو أيضاً لا يقع تحت الحاح ضيق فيشدد حده الى لغة معينة . ولكنه اطلاق أصيل يذهب اليه ، يجعل من حده وعاء يتسع للكثير مما أضافه اللغويون من بعد . ولعلنا نختار ما يقوله ابن سيده الأندلسي في مقدمة (المخصص) وهو أحد شوامخ القرن الخامس للهجرة : « ان الله عز وجل لما كرم هذا النوع الموسوم بالانسان وشرفه بما آتاه من فضيلة النطق على سائر أصناف الحيوان وجعل له رسماً يميزه وفضلاً يبينه على جميع الأنواع فيحوزه ، أحوجه الى الكشف عما يتصور في النفوس بضروب من اللفظ المحسوس ليكون رسماً لما تصور وهجس من ذلك في النفوس فعلمنا بذلك أن اللغة اضطرارية وان كانت موضوعاتها اختيارية . فان الواضع الأول المسمى للأقل جزءاً وللأكثر كلا ، وللون الذي يفرق شعاع البصر فيبثه وينشره بياضاً ، وللذي يقبضه ويضمه ويحصره سواداً ، لو قلب هذه التسمية فسمى الجزء كلا ، والكل جزءاً ، والبياض سواداً ، والسواد بياضاً

(١) يمكن الرجوع الى كتابه « المنصف » لمراجعة آرائه حول اشتقاق الأفعال من أسماء الأعيان في الجزء الأول أو من الحروف في الجزء الثاني .

وفي « الخصائص » الى أبواب مثل تعارض السماع والقياس ج ١ ، أو باب « الفروع والأصول » في الجزء الأول أيضاً .

وهذه مجرد نماذج لتوضيح اتجاهه الآخذ بالتفكير المنطقي واللغوي الخالص .

(٢) الخصائص ، ج ١ ، ص ٣٣٠

لم يخل بموضوع ، ولا أوحش أسماعنا من مسموع . ونحن مع ذلك لا نجد بدا من تسمية جميع الأشياء لتحراز بأسمائها وينماز بعضها عن بعض بأجراسها وأصداؤها ، كما تباينت أول وهلة بطباعها ، وتخالفت قبل ذلك بصورها وأوضاعها ، ونعما ما سددت الحكماء اليه فى ذلك من دقيق الحكمة ولطيف النظر والصنعة ، لما حرصوا عليه من الايضاح وأغدوا اليه من ايثار الابانة والإفصاح ، (١) .

كلام ابن سيده أكثر تفصيلا من الحد الذى قدمه ابن جنى ، ولكنه يرتد فى كثير من أصداؤه الى فلسفة الشيخ القديم . فضيلة النطق من سمات الانسان . والألفاظ المحسوسة التى ينطقها هى الطريق للكشف عما يتصور ويهيجس فى النفوس . ويؤكد ابن سيده فكرة اختيارية الألفاظ . فوضعها اختياري ، وان كانت الحاجة اليها اضطرارية بحكم انتماء الانسان الى المجتمع . وهو يؤكد حتمية تسمية الأشياء « لتحراز بأسمائها » . وتلك نظرة عميقة فى فهم علاقة التفكير باللغة ، فى موقفها من الحضارة عامة . عن طريق امتلاك الأسماء والكلمات نمتلك الأشياء ، نمتلك مفهومها عن طريق ملكية منطوقها . ومن يمتلك اللفظ يمتلك الشئ . وإذا كانت النظرة السحرية القديمة تتركز حول فعل هذه المقولة ، فان النظرة التى تسعى اليوم لعدم اهمال الجانب الأسطورى من اللغة ، تدور فى نفس الفلك : لا معرفة بلا لغة ، ولا ادراك دون لفظ ما دمنا فنشد الوضوح والابانة .

عناية العلماء بالدرس اللغوى تحقيق لوظيفتها الاجتماعية والروحية . واتجهت العناية الى ناحيتين : ناحية ترعى الأجزاء أو الأصوات ، وناحية ترعى التراكيب أو الجمل ، وفى الحالتين كان التحليل هو المهيمن . وكل تحليل يستهدف الوصول الى سر التكوين . وكانت « الأصوات » - فى عصر من العصور - مدخلا لا بد منه لعقل لغوى أشبع بالمقاييس المنطقية ، والقضايا التحليلية والتفريعات التى حملت على الأصول . ثم جاء زمن ،

ولعله لم يتأخر كثيرا ، اخذ فيه نهج التركيبات يقود بعض السفين ، يدرك أن الالفاظ وحدات يكاد استقلالها أن يكون غير ذى بال . أما القيمة الحية فانها وليدة العلاقات ، وليدة «النظم» وليدة « وظيفه الاعراب » ، أو « معانى النحو » فى أحلى صور التعبير : « اعلم أنك اذا رجعت الى نفسك علمت علما لا يعترضه الشك : أن لا نظم فى الكلم ولا ترتيب ، حتى يعلق بعضها ببعض ، ويبنى بعضها على بعض ، وتجعل هذه بسبب من تلك . وهذا ما لا يجهله عاقل ، ولا يخفى على أحد من الناس . واذا كان كذلك فبنا أن ننظر الى التعليق فيها والبناء ، وجعل الواحدة منها بسبب من صاحبها : ما معناه وما محصوله . واذا نظرنا فى ذلك أعلمنا أن لا محصول لها غير أن نعلم الى اسم فتجعله فاعلا لفعل أو مفعولا ، أو نعلم الى اسمين فتجعل أحدهما خبرا عن الآخر ، أو تتبع الاسم اسما ، على أن يكون الثانى صفة للأول ، أو تأكيدا له أو بدلا منه ، أو تجيء باسم بعد تمام كلامك على أن يكون الثانى صفة أو حالا أو تمييزا ، أو تتوخى من كلامه هو (أى فى أصل وضعه وتركيبه) لاثبات معنى أن يصير نفيا أو استفهاما أو تمنيا ، فتدخل عليه الحروف الموضوعة لذلك ، أو تريد فى فعلين أن تجعل أحدهما شرطا فى الآخر ، فتجيء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى أو بعد اسم من الأسماء التى ضمنت معنى ذلك الحرف . وعلى هذا القياس » (١) .

واذا كان النص السابق يؤكد دور التراكيب أو العلاقات فان الاعتراض الذى يثور فى النفس عند قراءته هو أن الجرجانى يوشك أن يجعل معانى النحو صاحبة الطاقة المهيمنة على العبارات . وأخشى أن يتوارى دور الفرد ، ودور النطق ، أو دور ما يمكن تسميته بالطاقة الوجدانية التى تعجز كل الصيغ النحوية عن الافصاح عنها ، فهى لصيقة بالأعماق ! ويدفع الايمان بالعلاقات النحوية صاحبنا الى توكيد أن اللفظ تبع للمعنى فى النظم ، وأن الكلم تترتب فى النطق بسبب ترتب معانيها فى النفس . هذا التوالى الهندسى يحيل اللغة الى متوالية ستاتيكية لا تقوى على حمل الوجدان اللغوى

المساوى للوجدان البشرى ، ولهذا تحاول بعض الدراسات الحديثة أن لا تقبض على القاعدة النحوية وحدها ، وإنما تلتفت حول محور الماهيات ، ومحور العلاقات أو النسب بين الماهيات . فلكل ماهية « دالة » ولكل نسبة « دالة » أيضا . كذلك قال فندريس : « تنتظم كل جملة نوعين من العناصر المتميزة : أولا التعبير عن عدد من المعاني التى تمثل أفكارا ، وثانيا الإشارة الى بعض العلاقات التى بين الأفكار » (١) وهذان القسمان يقابلان ما يسمى بدوال الماهية *sémantèmes* ، وهى العناصر اللغوية التى تنوب عن الماهيات المتصورة ، ودوال النسبة *morphèmes* وهى العناصر التى تعبر عن النسب بين الماهيات . والعقل يقوم بحكم نشاطه ، وبفضل الوجدان ، بتحليل العبارات الى ماهياتها ، ثم يركب هذه الماهيات فى نسب ، أو يسند بعضها الى بعض . وقد تأتى الكلمة ، وقد شحنت بكل ما تحتاج اليه من جانبى الماهية والنسبة ، وقد تأتى وصورتها الصرفية معطية للنسبة المرادة . « ان نمطية الدلالات *semantic regularities* ليست مجرد نمطية عائدة الى العناصر النحوية *Linguistic elements* ، صحيح انها موجودة بها ، ولكن الدلالة ليست شديدة التقيد بها . ان نمطيتها تستمد من الترابط مع التركيب عبر العناصر اللغوية وغيرها : من النطق ، من الجمل ، من المواقف أو من الأشخاص أو من الأداء الصوتى وغير ذلك » (٢)

ان كل الجهود التى تبذل تستهدف الوصول الى الادراك ، وكشف الدلالات هو غاية العناية باللغة ، أو بالأداة التى تحقق الانسان ، وليس بشرط أن تقبل ما قال به السابقون من أن اللغة ظاهرة اجتماعية . انها أبعد من ذلك ، تستوعب الممكن الاجتماعى وتتجاوزه . ولقد نشطت مناهج مختلفة تدرس الدلالة وتحاول الامساك ببعض قوانينها . وفى الصفحات التالية محاولة - عن قرب - لتتبع مناهج تترسم السمات ، آملا أن نجد ما يهب الشجرة الطمأنينة الندية .

(١) انظر اللغة : ترجمة القصاص والدواخل ، ص ١٠٤ وما بعدها .

وفى جملة مثل « الحصان يجرى » تصبح فكرتا الحصان والجرى تمثلا لدالتي ماهية واسناد الجرى للحصان يعتبر اسنادا للنسبة بينها . مع تنوع واسع فى دوال النسبة .

Paul Ziff; *Semantic Analysis*, p. 27.

من تاريخ القضية

الرموز والدلالة :

حين يرجع الانسان بفكره الى ذكرياته التي علقت في ذهنه ، والى أحلامه التي عاشها أثناء نموه ، يشعر بأن في قدرة الألفاظ وهي وسيلته لربط أفكاره ، وإحياء ما همد من الماضي ، كما أن في قدرتها تجسيم صور المستقبل ، حتى لتصبح كالحقيقة في حيويتها وانفعالها . والعبارة تمتلك القدرة نفسها ، إذ تخلق عوالم خيالية يتصورها الذهن . وكان من الطبيعي أن يقف الانسان أمامها ، ويحاول ادراك سر ذلك الارتباط بين الدلالة التي تنتشر في نفسه وبين الصياغة التي حملت له الدلالة . وكانت طبيعة ذلك الارتباط مما أثار عقول الفلاسفة واللغويين والأدباء .

« ان الرموز التي يستخدمها الانسان منذ أقدم العصور ، لتساعده في عملية التفكير ، وتسجل كل ما يصل اليه ، كانت دائما منبعاً مستمراً لاثارة التعجب والاندهاش . لقد تأثر الجنس البشري كله بخصائص الكلمات التي هي أدوات للسيطرة على الأشياء بعد أن أضفت عليها - عبر كل العصور - نوعاً من القوى الخفية . وفيما بين موقف المصيرين القدماء وموقف الشاعر المعاصر ، يبدو - عند الوهلة الأولى - فرق بسيط . وفي السياق ، يقول وولت ويتمان Walt Whitman . « كل الكلمات مزودة بطاقة روحية ، ولا شيء أكثر روحية منها ، ومن ثمة فما هي الكلمات ؟ »

تري عبر كم من الآلاف ، أو عشرات الآلاف من السنين انحدرت إلينا اللغة ! وما لم ندرك ، بوعي ، التأثير العميق للمعتقدات السحرية Superstitions التي تحيط بالكلمات فلن نفهم سر انتشار العادات اللغوية

التي ما زالت تتحكم حتى في أشد أنواع التفكير دقة ، (١) .

ان البحث حول صلة اللفظ بدلالته ، ارتبط تاريخيا بالبحث الذي عالج فكرة « نشأة اللغة » ، وذلك حين سعى الباحثان لكشف النقاب عن أولية انطلاق الشفاء بأصوات معينة لتأدية معان محدودة ، أو عن أولية تسرب المعاني الى النفس بمجرد سماع أصوات تم التواضع عليها ، وعدت - فيما بعد - من لبنات اللغة .

واذا كانت مناهج بعض قدمائنا قد جنحت في الكثير من معارضها الى خلط القضايا ، استطرادا أو تحرزا ، فقد يكون من الممكن أن نحاول استخلاص شيء من الفكر الذي أثير حول الأمرين من صفحات كتبها الشيخ أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي ، المتوفى عام ثنتين وعشرين وثلاثمائة للهجرة في كتابه « الزينة » ، والذي صنعه لشرح ما يجيء في الشريعة من الأسماء في أصول الفرائض والسنن . فبعد أن يفرد الرازي صفحات طويلة للعربية : حروفها وشعرها ، يقف أمام الآية الكريمة : « وعلم آدم الأسماء كلها » وسياقها كان مما استند اليه القائلون « بالتوقيف » في حياة اللغة ومنشئها ، يضيف صاحبنا « أن الله عز وجل لما أظهر فضيلة آيينا آدم عليه السلام علمه الأسماء كلها : » ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا ، انك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنباهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم اني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » . (س : البقرة آية ٣١ - ٣٣) فأبرز فضيلته لعلمه بالأسماء . ثم أمرهم بالسجود له . وكان معرفة آدم للأسماء هي سلمه الذي يرقى به الى تلك المنزلة الخاصة . والرازي يرى أن تعليم آدم الأسماء كان الطريق الى معرفة الصفات أو ادراكها . « وانما صار الفضل في معرفة أسماء الأشياء ، لأن كل شيء يعرف باسمه ، ويستدل عليه بصفته . والصفة تقوم مقام الاسم .

وتكون خلفا منه ، (١) . وهذا الاطلاق يتضمن ادراك البشر لذات الله . فعن طريق معرفة أسمائه وصفاته يستقر الذهن على « الصورة الكلية » . وإذا كان بعض اللغويين قد ميزوا الأسماء عن الصفات فإن أبا حاتم يمزجها بحكم انتمائه الى العقيدة العلوية التي ترى الصفة قرينة الاسم . « الله عز وجل يعرف بأسمائه ، وينعت بصفاته . ولا درك للمخلوقين الى غير ذلك وصفاته أسماؤه » . وأسماء الله الحسنى هي أسماء الله وصفات له . وكذلك أسماء المخلوقين وصفاتهم . ومنه كان حرص الناس على منح الملوك والأئمة أسماء كأنها صفات : كالصادق والمتوكل والهادي وما الى ذلك ووسيلتنا الى معرفة الأسماء أن نعرف الأسماء ونستدل عليها بالصفات . سيان في ذلك ما نراه شاهدا يدرك أو غائبا لا يدرك بالحواس .

تلك محاولة لربط الاسم بالصفة . وإذا كان فقه اللغة المعاصر يرفض ذلك بحكم قدرة العقل على تحويل الصفة الى اسم أو تحويل الاسم الى صفة ، ففي مثل قولنا : « الرجل صادق » يلعب الخبر « صادق » دور الصفة للاسم ، ولكن حين نعكس العبارة الى « الصادق رجل » ، فإن الاسم تحول بحكم المقولة النحوية وهي الخبرية الى صفة بينما صار « الصادق » الاسم المحتاج الى مسند اليه . ومع هذا الاعتراض فإن مزج القدماء الاسم بالصفة هو بلا شك وليد الاعتقاد بدوام الارتباط وتأثير الصفة على أدراكنا لحدود الاسم (٢) وكان لابد من أن تقرر أذهان اللغويين عدة أسماء تبدو منبئة عن أصولها . فكللمات مثل : الجمل ، والحجر ، والشمس ، والقمر لا تفصح عن انتمائها لأرومة خاصة في الأصول اللغوية . بينما هناك أسماء أخرى لا يصعب تطبيق « شجرة الأنساب » عليها . وكان الفكر حريص على تلك القاعدة التي وسمت حياته الأولى .

(١) الزينة : ص ١٣٢

(٢) فندريس صاحب كتاب اللغة ، يعالج قضية أقسام الكلام في فصل ممتع . رغم ما به من غموض في بعض مساقاته . وفيه يناقش صنيع المناطقة بأجزاء الكلام ليعمل الى رفض مثل تلك التقسيمات المنطقية . انظر من ص ١٥٥ الى ص ١٨٢ .

« ربما دعى الشيء باسم لا يعرف اشتقاقه من أى اسم هو ، بل يكون مصطلحا عليه ، قد خفى على الناس ما أريد به ولاى شيء نسمى بذلك الاسم . كقولك الفرس والحمار والجيل والحجر وأشياء ذلك » (١) . وهذا التحديد يفرض « حدا » معيناً للاسم ، فهو غير المشتق أو الجامد أو هو الذى لا ينتمى لأسرة « معنى » ، لأنه عنده « مصطلح عليه ، والمصطلح عليه لا يكون مشتقا من آخر ، ولا يعرف معناه الا الله عز وجل ومن علمه الله . لأنه ان كان الاسم لا بد أن يكون مشتقا من غيره ، فإن ذلك الأول يقتضى اسما قبله يكون هو مشتقا منه ، فهذا ما لا نهاية له . وهو غير ممكن » (٢) .

ولست أظن أننا فى حاجة الى توكيد خلاف ذلك مما يذهب اليه النحاة فى تعريف الاسم وحده بقبول علامات الاسم . وأما الأسماء التى تشتق فمنها ما يشتق من معنى تقدمه ، قد فسر العلماء اشتقاقه والمراد منه . . . ويضرب الرازى لذلك أمثلة : فأدم سمي بذلك لأنه أخذ من أديم الأرض ، والإنس سمي بذلك لظهورهم ، ويقال أنست الشيء اذا أبصرته ، والجن سمي بذلك لاستخفائهم ، يقال اجتن اذا استخفى . وهناك أيضا نوع ثالث من الأسماء : اسم بمنزلة الصفة « كقولك محمد هو مشتق من الحمد ، والحسن مشتق من الحسن » (٣) : وهو يرى استحالة « الدوران » لأن المصدرين : الحسن والحمد مصطلح عليهما .

فى جهد الرازى الذى رأينا قبلا منه خلط واضح بين الأصول والفروع ، بين « وضع » اللغة وسعى العقل لاشتقاق صياغات مختلفة يردّها الى الجذور . واذا كانت التجارب ، والملاحظات ، والبحوث التى أجريت للوصول الى بدايات اللغة لم تبعث بعد أقدامها فى أرض صلبة بالحقائق العلمية فإن الدراسات التى تتبع صلات الألفاظ بعضها ببعض ، كتلك التى عالجت القياس أو الاشتقاق أو التصريف ، أو ما يحدث للألفاظ من تغير

(١) الزينة . ص ١٣٢

(٢) المصدر السابق ص ١٣٣

(٣) المصدر السابق ص ١٣٢

معانيها مع تغير صياغاتها ، قد انضوت تحت راية التنقيب عن سر «الدلالة» .
ولا شك فى أن اثاره هذا المبحث يحركها خوف الانسان مما يمكن أن يجرى
له كلما جرت اللغة بين بنى الانسان ، ولطالما شهدت الانسانية شرورا كثيرة
حين أساء بعض القوم استخدام « اللغة » فصارت أداة تحريض وارهاق ، بدلا
من أداة للتفاهم والتعاون . ان الأمل فى تبديد المخاوف ، والتغلب على
الصعاب يدفع الانسان للتشبث بادراك سر اللغة ، وهكذا يرقب الدور
الاجتماعى الخطير الذى تلعبه فى حياته .

ومنذ بدأ علماء الانثروبولوجيا يفتشون عن ماضى الانسان ، وهم
يعتبرون اللغة ، بجانبها الغيبى ، مصدرا ثريا يمدهم بكثير من معتقدات
السابقين . وفى السياق يقول جيمس فريزر - أحد الذين أرخوا للدين
وللتراث الشعبى - : « لو أننا استطعنا أن نفتح رأس رجلين ينتميان الى جيل
واحد والى بلد واحد ، ولكنهما يقعان فى طرفين متباعدين من الحياة الثقافية ،
لو استطعنا أن نفعل ذلك ، لكان من المحتمل أن نجد عقليهما مختلفين
وكانهما ينتميان الى جنسين متباينين . ان المعتقدات الخرافية تعيش لأنها فى
الوقت الذى تصدم فيه أفكار بعض المتفتحين من أفراد المجتمع ، تبقى متسقة
مع أفكار ومشاعر الآخرين ، الذين رغم انتمائهم الى مظهر من مظاهر التقدم
يضمون قلوبهم على روح بدائية أو بربرية . والذين قادتهم دراساتهم
لفحص الموضوع ، هم وحدهم اليقظون الى مدى عمق الأرض التى نقف عليها .
انها كقرص شمع العسل ، عامرة بقوى غير مرئية » (١) .

الأفكار التى يسعى فريزر لاكتشافها لن تكون الا مع الرداء اللغوى ،
فهو وحده القادر على أن يحمل لنا الواقع الثقافى والاجتماعى الذى يتفرد به
كل كائن بشرى .

* * *

الزمن والدلالة :

وإذا كان الإنسان قد سلخ - عبر شلوط بعيد المدى - عن لغته بعض الارتباطات السحرية ، فإن الطاقة الهائلة التي تحدثها عبارة دينية أو بيت شعري ، لما يحن إليها أكثر العقول أخذاً بالجانب المادى أو بالجانب العلمى . كل أنماط الحياة لها جوانبها السحرية ، وللمجتمعات البدائية التى يسرف بعضنا فى تجسيم بدائيتها ، منطلقها العلمى الخاص . وأستعير من المجتمعات البدائية ، والمجتمعات المتقدمة موقفها من الطاقة الضخمة التى تلتهمسها حين تجعل « القسم » وسيلة من وسائل اكتشاف الحق . ولقد تتفاوت مواقف القضاة منه ، وتتفاوت موضوعاته ، ولكنه يبقى فى كل الحالات بارزاً كأثر من آثار عقيدة السلف فى الارتباط « الطبيعى » بين لفظ « القسم » والقوة « المقسم بها » . انه سعى فى الدرب الذى سلكه القدماء وصولاً لشيء من المستور .

١٣٥

ومنذ لاحت للإنسان قوة الألفاظ ، ركن إليها سائلاً العون . فهو ينطق ببعض منها ، فتشخذ همته ، ويستشعر القوة والعزم ، وقد يبدد عنه الخوف والرهبة . وان دهمته قوى لا يستطيع مقابلتها فهو رهين سر بعض الكلمات التى اختارها لتهيئ بقوى الطبيعة ، أو بقوى الغيب ، حتى تمد يدها إليه . والذى نتصوره أن عدداً من الألفاظ صارت كالأعلام الثابتة . ومع امتداد الزمن أصبحت تلك الألفاظ ذات قوى دائمة ، ولاحت دلالاتها متصلة بالصياغة الصوتية اتصالاً موحياً . وفى الصلوات والدعوات والتوسلات أدلة واضحة على هذا ، وتراث الانسانية من أساطير السحر والخرافات هو نبع من قدرة الألفاظ على إثارة قوى تستجيب لأعلام من الألفاظ . ان نشأة السحر مرتكنة الى معرفة الساحر ببعض الكلمات التى تمكنه من فرض سلطانه وسلطان الغموض على عقول المستحورين . ولم يقتصر ذلك الدور على اللغة المنطوقة ، بل انه امتد الى الكتابة . وبحكم ثباتها ، ودوام حياتها ، صارت الكلمات السحرية المقيدة ، أكثر خطراً على الحائف من السحر من مثيلاتها المسموعة : « ان الذين بدءوا باستعمال الكتابة ، كانوا يستعملونها فى عمليات شبه سحرية ، فالكتابة فى أصلها كانت طريقة من طرق السحر ، وقد احتفظت اللغة المكتوبة بهذه الصفة زمناً طويلاً .

فكتابة اسم على قطعة من اللحاء أو من اهاب حيوان كان معناها القدرة على رفعه أو خفضه ، وعلى نجاته أو اهلاكه ، تبعا لارادته . وأول ما خط من سطور تحتوى على اسم أحد الاشخاص كان ضربا من الرقى : تعاويد يقصدها بها النجاح أو الشقاء ، والاختضاع أو الاضرار . اذا كانت الكلمة الملفوظة لها قوة سحرية فالكلمة المكتوبة من باب أولى . ومن ثم كان الكتاب الأولون من «السحرة» (١) .

ولا تعنى هذه القوة التى ملكتها الألفاظ المكتوبة ربط حياتى اللفظ — منظوقا ومكتوبا — ربطا لا انسلخ له ، فللفظ المنظوق أو المسموع كيانه المستقل عن صورته المكتوبة ، مهما كان للكتابة من أثر دائم أو على الأقل من استمرار أكثر فى ذهن القارئ من مثيله المسموع فى ذهن السامع . ومهما بدت الكتابة كقيد للأفكار التى تلوح كالأوايد تود الفرار مع الزمن — فتردها الكتابة — ، ثم مهما كان العون الذى عرفته الانسانية من النصوص المقيدة التى وعت لنا الكثير ، أو جل ما نعرف من تراث الانسان ، فان النطق أسبق فى حياة اللغة من الكتابة ، وان تكن الأخيرة أكثر قدرة على عبور حدود المكان والزمان . ورغم هذه الحقائق التى عاشت الكتابة فى ظلها آلاف السنين ، يلحظ اللغويون عودة القيادة المؤثرة الى اللفظ المنظوق ، وذلك منذ عرف الانسان أجهزة الاتصال الصوتى كالتليفون والراديو وأجهزة الاعلام المماثلة . ومن جديد يقف الانسان متوجسا أمام الطاقة التى تمتلكها تلك الأجهزة لتحويل أحاسيس الناس ، بل ولتحويل مواقفهم السلبيه الى طاقات ايجابية — بانية أو مخربة — .

ان الانسان يستمع اليوم الى جلجلة الكلمة فى حياته ، انها تهزها هزا . لقد أصبحت الألفاظ ذات خطرين داهمين : أما الأول فهو قدرتها على « تميع » المعتقدات و « الايديولوجيات » التى طالما استقر معها الوجدان الانسانى . الكثير منها عرضة للاهتزاز ، نتيجة للجدل المذاع أو المنشور . والثانى من الخطرين يتعدى وجدان الفرد لينال من الجماعة ، والكثير مما تحمله

الموجات الأثرية هادف الى احداث تغييرات فى بناء التركيب الاجتماعى . مهما تفاوتت الحدود المنشودة . ومع هذا الاحساس ، فهناك فرق واضح بين موقف القدماء وموقف الانسان الحديث . لقد كان الأوائل يستشعرون أنواعا من القدسية تربطهم بالألفاظ ، وكثيرا ما كان اعتقادهم يصل بهم الى حد تصور الخير أو الشر من الألفاظ فى حد ذاتها ، ومن ثم كان وجلهم منها . أما المحدثون فان الألفاظ ترتبط أمام الكثيرين منهم بقدرتها على تحريك الارادة المستقلة بعيدا عن المعتقد السائد أو تحريكها الى فلك آخر يخالف الفلك العام الذى يريده القائمون على أمر المجتمع . ومع نشدان الارادة الفردية فان اللغة المنطوقة تنشد الوجدان الفردى ، وقد أصبح فى قدرته التمرد على كثير مما ألفه وجدان الجماعة . وذلك أمل يلوح أمام أصحاب الفلسفات المختلفة ، سياسية واجتماعية - يغريهم بيت أقوالهم لتكتسب جموعا جديدة أنصارا لها وأعوانا !

ان المجتمعات الحديثة تخشى اللغة ، وعلى حق . انها أخطر سلاح تملكه البشرية اليوم . لقد مكنت وسائل الاتصال المعاصرة لنفوذ اللغة . وكم من مرة كانت كلمات أغنية أو بيت شعر ، أو شعار من الشعارات ، مما ثبت أقدام جند فى مواقعهم حتى كتب النصر لهم ، وعلى عكس ذلك : كم من مرة أيضا كانت شائعة من الشائعات ، أو بضعة ألفاظ تتبادلها الألسنة والآذان ، مما أذاب عزم آخرين ، فوهنت قواهم وسكنوا الى الهزيمة . وليس عبثا ما ينادى به فلاسفة وقادة فكر حين يلحون على ضرورة الاتزان والحذر عند استخدام اللغة . ولم يكن النداء الذى ألقاه الفيلسوف الفرنسى جان بول سارتر دون مبررات ، لقد ألع الرجل على تجريد « الثقافة من السلاح » ، انه أحد الذين عانوا من آثار « الدعاية » - اللفظية - التى بذلها نظام الحكم النازى فى ألمانيا قبيل الحرب العالمية الثانية ، تلك الدعاية التى خيلت للألمان فضلا على شعوب الأرض ، وسيادة على كل الأجناس . ولقد روع سارتر مما يتعرض له الانسان من تضليل وبلبله تزخقان بالبشرية نحو حرب تهددها بدمار جديد ان نجح العابثون فى السيطرة على أفكار الجماهير وقلوبها . ان تجريد الثقافة من السلاح معناه أن توجه الثقافة - وعربتها

إسمها اللغة - الى تقريب ما بين المختلفين من بنى الانسان ، والى الفرار من المخادعة والتضليل (١) .

ان ذلك الخوف اللامع فى الأفق كان مع الاختراعات الحديثة ولقد كان مثل هذا جائما على صدر الانسان فى تاريخه القديم ، وان يكن مصدر اللوئين متباينا . كان الاجداد يخافون للتداعى المقدس بين اللفظ والمعنى ، ذلك التداعى الذى جعل العقول تؤمن بقدرة ألفاظ معينة على اثارة قوى معينة ، فمن ينطق - بعد أن يتهيأ بوضع خاص - باسم أحد الجنة ، أو يكتبه ، يستطيع أن يستدعى ذلك الجن ، ويسخره فيما يشاء . ولقد يحاول الناطق احاطة عمله بشيء من الغموض والتضبيب ، فيثقل الاسم ، بأداء معين ، وفى أجواء خاصة مصطنعة . ولقد يضيف بعض المقاطع الصوتية ، كالههمزة أو الزمزمة لتكمل له عمليات التعمية . ولا شك فى أننا نقع مع السحرة والمشعوذين على مجال واسع لاستغلال طاقات اللغة استغلالا معيناً ، يتظاهرون بدلالات تبدو طبيعية الارتباط مع ألفاظها . وما زالت بعض فئات من مجتمعنا تتحاشى نطق كلمات مثل « الثعبان » أو « الشيطان » فى الليل ، لأن ذكر الاسم يستحضر صاحبه ، بل وكثيرا ما يعبرون عن سخطهم على فرد بنعته بـ « مخفى الاسم » ، وكان اختفاء اسمه كفيل باخفاء الشخص ذاته . ويعبر فندريس عن هذه العادة النفسية بقوله : « اننا عندما نقيم اثلافا بين الاسم والشئ ، نسير على عادة نفسية قديمة قدم العالم نفسه فقد ظل الاسم زمنا يعتبر جزءا من الشئ وليس مجرد علامة قد توضع عليه : كان يشترك فى خصائصه فلم تكن العلامة تميز عن الشئ » (٢) .

وليس من العسير أن نقع فى كل الديانات السماوية والبدائية على مفاتيح قوتها ، اذ نلتقى بألفاظها العقائدية . ثم ان خطونا زمانا حتى بدء الشعر رأيناها مرتبطا بقدرة الشاعر على تملك الحظ فى اثارة النفس أو

(١) اللغة - ص ٢٣٧

(٢) ترجم الدكتور محمد مندور نداء سارتر لضرورة نزع سلاح الثقافة ، ونشره فى عدد سبتمبر عام ١٩٦٢ من مجلة « المجلة » المصرية .

الروح بالألفاظ وتعابير ذات دلالات خارقة بالنسبة للغة الحديث . « ان الكلمة المنظومة كانت كقيلة بإحداث آثار جسم ولا سيما اذا كانت مسلوكة فى بيت من الشعر ، حيث تثبت الكلمات بوساطة الوزن ، أليس فرجيل هو القائل : « انه يمكن انزال القمر من السماء بجملته منظومة » (١) .

يروى الأصمعى عن أبى عمرو بن العلاء أنه قال : « كانت الشعراء عند العرب فى الجاهلية بمنزلة الأنبياء فى الامم ، حتى خالطهم أهمل الحضرة ، فاكسبوا بالشعر ، فنزلوا عن رتبهم » (٢) . أو ليس من هذا القبيل أن نرى كفار الجاهلية يتهمون محمدا - عليه الصلاة والسلام - بالسحر تارة وبالشاعرية تارة أخرى ! هل كان ذلك الاتهام الا لحوفهم من دلالات الألفاظ القرآنية ! أليست قدرة ألفاظ القرآن الكريم على هز كيانه معتقداتهم وخلخلة مواقفهم راجعة الى امتداد طاقة الألفاظ لتحرك ما اعتقدوا فى قدسيته وثباته ! وحين اتهموه بالشعر وهجوه بأقوالهم كان لابد أن يصفعهم ، فنزلت « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » ونزلت أيضا « والشعراء يتبعهم الغاوون » . ولكن ، مع ذلك ، فقد اصطنع الرسول نفرا من الشعراء الذين آمنوا بالرسالة لينتصروا له . ويقول الرازى : « ولولا ما فى الشعر من النفع والنصرة لما استثنى الله عز وجل المؤمنين من الشعراء ، ولا جعلهم ممن انتصروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ممن ظلمه بشعره وآذاه بهجائه ، ولما سماهم منتصرين بالشعر ، فقال « وانتصروا من بعد ما ظلموا » فهجن ما تخرصوه من الكذب وما لفظوا به من الكفر بهجائهم النبى ، ولم يهجن غيره من الشعر ولا أسقط ما فيه من النفع ولا أبطل ما فيه من الحكم . فقد أنشده بعض بعض الشعراء (٣) قوله :

(١) المرجع السابق : ص ٢٣٨ .

(٢) كتاب الزينة : ص ٩٥ .

(٣) هو كما يقول المرجع حسن الهمدانى ناشر « الزينة » العلاء بن الحضرى البغوى .

فحى ذوى الأضغان تسب قلوبهم تحيثك الأدنى فقد يرفع النغسل
وان دحسوا بالود فادحس بمثله وان خنسوا عنك الحديث فلا تسئل
فان الذى يؤذك منه سماعه وان الذى قالوا وراءك لم يقل

النفل : الفساد والافساد .

دحسوا بالود : ستروه وأخفوه

فقال صلى الله عليه وسلم : « ان من الشعر لحكمة وان من البيان
لسحرا » (١) .

سقت النص لنقف أمام نمط من اصطناع الرسول لشعراء منتصرين
له ، ولنقف أمام الحاح الشاعر على دور الكلمة : انها تحية الرسول الى ذوى
الأضغان ، وهى الطريق الى استلال حقدهم ، ثم هى توكيد لتسامى الرسول
عن كل ما قيل وراء ظهره ، وهنالك ذلك القول عن حكمة الشعر وسحر
البيان . انه تخفيف عن كاظم الغيظ وترويح عن النفس المهمومة . وبقي
الشعر يقوم بدوره ، يلتمس به الكرام الطرق الى المكارم .

ولولا خلال سننها الشعر ما درى بغاة الندى من أين تؤتى المكارم (٢)

هى اذن انكلمات التى يسجلها الشعراء لتثير أمام طلاب العلى الطريق
نحو المكارم .

ان نحن تأنيينا أمام الفكرة ، أفلا تسلمنا الى تصور نوع من المناسبة

(١) الزينة . ص ١٣٢

(٢) البيت لابی تمام . ديوانه . ص ٢٥٥

الطبيعية بين الالفاظ ودلالاتها . فكلمات من التوحيد والسموات والاعقاب والجنة والنار ، لها مناسباتها المربطه بصياغاتها عند الذين سسفر العبارات مع وجداناتهم . ولننقل نكتة طريفة يرويها ابن قتيبة في كتابه « الشعر والشعراء » ، لما أتى النايغة الجعدي الرسول انشده قصيدته الى ابن فبال .

بلغنا السماء مجدا وجدودنا وانا لمرجو فوق ذلك مظهرا

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم . الى أين ! أبا ليلى . فقال اني الجنة . فقال الرسول ان شاء الله . ودعا له ان « لا يفضض الله فاه » . فعمر (مائتين وعشرين سنة) لم تنقض له سن (١) . وبصرف النظر عن مبالغه السن فان سببة عدم انقضاى اسنان الشاعر الى كلمات الرسول يحمل أصداء العدة اللغوية التى كثيرا ما يربط بها الناس .

* * *

أقوال عن الارتباط :

وإذ نحاول تتبع بحوث الفلاسفة والمفكرين القدماء فى علاقة اللفظ بدلالته . نرى الاتجاهات تنشعب الى شعبتين أساسيتين : فبينما قال فريق ان الارتباط طبعى ، أى ان لفظا معينا يثير معنى معيناً ، أو ان المسمى يوحى بسر اختيار الاسم له . قال فريق آخر ان تلك الصلة مصطنعة . يفرضها الانسان بإرادته ، وبحكم طول ملاسة اللفظ للدلالة ينمو ما يشبه التلارم . ولكن فى قدرة الانسان أن يمزق تلك الصلة ليفرض رموزا لغوية جديدة للدلالة نفسها . ولقد ظهرت القضايا اللغوية فى التراث الفلسفى عند اليونان . وكانت فكرتهم الدينية عن وجود عالم للمثل يقابل هذا العالم المحسوس مما طبع دراساتهم اللغوية بمثل تلك الروح التى تفرق ما هو كائن عما هو متصور . واذا كانت آراء فيثاغورس الفلسفية ، ونظره الرياضية مما مكن لفكرة الرموز فان جهد هراقليطس كان واضحا فى المجال اللغوى . لقد آمن ذاك الفيلسوف بأن كل شىء فى العالم لا يكف عن التغير .

أما اللغة . فإنها عنده الثابت الدائم . لأنها تعبر عن الحكمة العامة التي يمتلكها كل البشر . ومن ثمة فهي تماثل تركيب ذلك العالم ، أو تتضمن ترتيبه . واشتغل بارمنيدس بفكرة وظيفة الرموز السلبية . وحين كتب أفلاطون عام ٣٦٦ ق . م محاورته التي أسماها Le Cratyle (قراطيلوس) صارت بمثابة تلخيص لأهم الآراء الفلسفية الباحثة عن علاقة اللفظ بالمعنى . ولقد اختار الفيلسوف التسمية نسبة لأحد تلاميذ هيراقليطس وهو « كراتيل » الذي يرى أن لا وجود لقانون طبيعي دائم ، فكل شيء متغير . وفي المحاوره يرفع « كراتيل » أن الأسماء تستمد من طبيعة الأشياء . فهناك ، في الطبيعة اسم صحيح لكل كائن في الحياة . واللفظ الذي يطلق للدلالة على الماهية إذا كان لا يصدر إلا بعد اتفاق ففي الطبيعة ثمة طريق صواب للتدليل على المسميات . وذلك هو الطريق الصحيح لكل الناس . وأما محاوره هرموجين Hermogène - أحد تلاميذ سقراط - فإنه يرى أن الأسماء علامات تنشأ des signes عن المواضع de convention (١) ، وينفى أن في طبائع الأشياء ما يحتم اختيار اسم دون غيره . وبضرب المثل بقدرة السيد على تغيير اسم عبده إلى اسم جديد ، ومع ذلك لا تفقد الدلالات التي في ذهن السيد شيئاً من وضوحها . وتتدخل سقراط ليوفق بين المتحاورين مقررًا أن مجموعة من الأسماء كانت مواضع عامة ، أو حدثت بمحض الصدفة . كما أن التكرار وطول الممارسة هما محدثا الألفة بين ذهن الإنسان واللفظ حتى تختلط الأسماء أحياناً بالأشياء الخالدة (٢) .

لقد أثار أفلاطون هذه القضية عند بحثه عن الحقائق التي تحملها اللغة . « لن يوجد الإنسان ، مهما كانت جسارته ، الذي يستطيع أن يعبر باللغة عن الأشياء التي يتأملها عقله ، ولو صنم ذلك فلن تكون الآلهة هي التي دفعته لذلك إنما هو مدفوع بعواطفه البشرية » (٣) . ولكم أثارته اللغة الهروب - وما كف عن تمحيصها ، ولكنه لم يخرج بفلسفة حاسمة أو واضحة بعد تردده

بين قطبي القضية . « ان أفلاطون كان يصارع قضية اللغة . ومن الواضح أنه بالرغم من مصارعاته قد فشل في حلها » (١) . ولقد حاول أسناده سقراط أن يضع الحقيقة رائدة ، حين أفتى بأن اللغة نشاط اجتماعي ، وانها أداة للتفاهم بين أفراد المجتمع ، وليس في استطاعة فرد أن يخالف ما تواضع عليه أفراد البيئة والا فقدت تلك الأداة وظيفتها . ولكن مثل هذا التقرير لا يحل السر الذي يسعى الفكر الفلسفي لكشف شيء من أسرارهِ .

ومن بعد أفلاطون حمل أرسطو نفس الرغبة في الكشف ، ومال الى تحطيم فكرة الارتباط الطبيعي بين الاسم والمسمى . وظل الفلاسفة وعلماء اللغة والمفكرون يتقاذفون القضية بغية تفكيكها ، حتى يومنا هذا . ولم تشفع مقولة سقراط التي ذهب فيها الى أنه « لا بد أن نسلم بأن كلا من المواضع والاستعمال يسهم بقدر في اظهار ما في العقل حين نتكلم » (٢) . ويركز العالم اللغوي استيفان أولمان في كتابه « أسس علم الدلالة » تمرد هذه القضية بقوله . « منذ بداية الفلسفة الغربية ، وربما قبل ذلك بكثير ، والعلاقات بين اللغة والحقيقة هي المشكلة الأولى في فلسفة علم الدلالة ، وبعد أنارت سلسلة من التفسيرات المتناقضة » (٣) .

الخلاف الذي يرى حيطه يمتد منذ فلاسفة ما قبل الميلاد حتى زماننا هذا ، كان أيضا مما أثار مفكرى العرب منذ القرون الأولى للثقافة الاسلامية . وقضية « الدلالة » تبرز عندهم مزجا واضعا بقضية أصل اللغة . والخط بين الأمرين نشأ عن عوامل عدة . ومن الممكن ان نلمح بوضوح من بينهما محورين رئيسيين يدور حولهما الحدل اللغوي عامة : أما الأول فهو ولبسد الاعجاز البياني للقرآن الكريم . ومنذ كان التحدي للكفار والفكر البياني يعمل مفتشا عن تفسير للاعجاز . ومن ثمة أصبحت اللغة أداة تستحق النظر في ذاتها . وتولدت عن ذلك تفسيرات شتى للبيان القرآني . ثم كانت

Urban : Language and reality. p. 52, London, 1939.

(١)

Pineen. An Introduction to General Linguistics p. 76 1967

٢

S Ullmann The principles of Semantics. p. 66 Oxford 1957

٣

تفسير الذين يأخذون بظاهر الالفاظ ، حتى وإن نسبوا آراءهم لسلف ، وقالوا انهم يتمسكون بالمأثور ، وكانت كذلك تفاسير الآخذين بباطن الالفاظ ، حتى وإن نسبوا آراءهم لنفر من السلف كذلك ، وقالوا انهم يتمسكون بالمعقول . فالموقفان هما وجهها عملة للنظر اللغوى . وإذا كان من الدقة بمكان أن نتصور هذين الاتجاهين معتمدين فقط على الصياغة اللغوية مستغلة العبارات ما كانت لتسمح به ، لولا طبيعة اللغة ومرونتها . واصطرع المعتزلة والأشاعرة وأهل النظر والأصوليون حول قواعد الأصول والفروع والعلل . وكانت النصوص اللغوية عند أنامل كل فريق (١) .

وأما المحور الثانى فنلقاه مع قدرة العربية على تمثيل القضايا والأفكار التى احتكت بها بعد أن تمت الفتوحات الاسلامية . ولقد كان الاحتكاك مع تيارات متباينة ، بل ومنها ما كان بطبعه معارضا لأصحاب الفكر العربى عن الموقف الفلسفى والعقدى ، نقول اذا كان ذلك شبه مستحيل ، فإن الأصيل . ولكن أصحاب اللغة العربية استطاعوا - بمهارة رائعة - تمثيل الكثير من ذلك الفكر وأضافوا اليه الجديد من ابداعاتهم . وما كان يمكن أن تتم هذه المزاوجة المدهشة الا بفضل الدقة التى عليها العبارات والألفاظ .

هذا التراث العظيم هو الذى ولد فى نفوس اللغويين مزجا بين نشأة اللغة وعلاقة اللفظ بالدلالة . فلقد بدت الأمور ، من فرط الالف والملاسة ، وكأنها قضية واحدة . أو لنقل ان فرط حساسيتهم للألفاظ ودلالاتها جعلهم يميلون فى أغلب مراحلهم ، الى أنها توقيفية .

وحين نبحت عن مواقفهم من صلة الألفاظ بمعانيها نرى فخر الدين الرازى يجمع أربعة آراء فى كتابه « المحصول » كما يقرر السيوطى :

« أ - الألفاظ اما أن تدل على المعانى بذواتها .

(١) رغم ثراء المكتبة الأصولية الفقهية ، فيمكن الإحالة الى « مناهج البحث عند مفكرى

الاسلام » للدكتور على سامى النشار . وخاصة الباب الثانى من ص ٦٤ الى ١٨٢ ، ص ١٦٦ .

ب - أو بوضع الله اياها .

ج - أو بوضع الناس .

د - أو يكون البعض بوضع الله ، والباقي بوضع الناس « (١) » .

والرأى الاول منسوب الى عباد بن سليمان . وهو يحتج لمذهبه بقوله .
« لولا الدلالة الذاتية لكان وضع لفظ من بين الألفاظ بازاء معنى من بين
المعاني ترجيحاً بلا مرجح . وهو محال » . وكان (عباد) هنا يوشك على
القول بأن وضع الألفاظ ازاء المعاني يتم بمرجحات تعقد الصلة بين الاسم
والمسمى . كان يوحى المسمى بالاسم الذى يريده ' او يوحى الاسم بالمسمى
الذى أطلق عليه . وأغلب الظن أن (عباد) يريد أن يلقي الضوء على قضية
الاصطلاح أكثر من القائه حول احياء اللفظ بالدلالة . ومع ذلك فإن مذهبه
لم يقبل عند جمهور التقليديين . بل ان السيوطى يقول عنه « ودليل
فساده أن اللفظ لو دل بالذات لفهم كل واحد منهم كل النغات ، لعدم اختلاف
الدلالات الذاتية . واللازم باطل والملزوم كذلك » .

والرأى الثانى هو رأى الاشعرية ويمثلهم أبو الحسن الاشعرى ومحمد
ابن الحسن بن فورك . وهم يأخذون بوضع الله للصلة بين الالفاظ والمعاني ،
وبذلك يتبنون فكرة توقيفية اللغة ، وأحسب أن رأيهم ذاك يساير نظرتهم
عن « العادة وجريانها » أو « العناية بمعناها العام المطلق » ، فعندهم أن
المقدرة الالهية هى علة وجود العالم . ولن تخرج اللغة عن طاقة العلة
ودورها .

وكان المعتزلة هم الذين رأوا أن دلالات الألفاظ حادثة من وضع
الناس . وأحسب أيضاً أن موقفهم ذاك حادث أو مشارك فى رسم عقيدتهم
التي كانت تنكر العلة الأرسطية ، فقد أخذ أهل الاعتزال بفكرة أن الانسان
هو الفاعل على الحقيقة ، ومن ثمة ظهر رأيهم المشهور عن حرية الإرادة

الانسانية . واللغة لن تقلت من موجتهم الفلسفية العامة وفيهها يرون أن اللغات « لا تدل على مدلولاتها كالدلالة العقلية » . أى أن ألفاظها ليست لازمة الدلالة بذواتها ، وذلك عمدتهم فى تفسير اختلاف اللغات : وجدلهم عند نفى توقيفية الدلالات ينهض على « دور » من أدوار المنطق : « لو ثبتت توقيفيا من جهة الله تعالى لكان ينبغى أن يخلق الله العلم بالصيغة ، ثم يخلق العلم بالمدلول ثم يخلق لنا العلم بجعل الصيغة دليلا على ذلك المدلول ، ولو خلق لنا العلم بصفاته لجاز أن يخلق لنا العلم بذاته . ولو خلق لنا العلم بذاته بطل التكليف ، وبطلت المحنة » (١) . وكان من الطبيعي أن لا يقبل أهل السنة فرض المعتزلة من أن خلق العلم بذات الله يبطل التكليف فعندهم أن هذا أصل قاسد . وما علينا من جدلهم الفلسفى . ولكن علينا أن نسألهم عن « حد الوضع » الذى افترضوه : يحده التاج السبكى فى كتابه « شرح منهاج البیضاوى » بقوله : « الوضع عبارة عن تخصيص الشيء بالشيء بحيث اذا أطلق الأول فهم منه الثانى » (٢) . والمثال الذى يناقش الحد هو قولهم ان « قام زيد » يفهم صدور القيام منه . والشرط الثانى يضعه التاج السبكى فى حده حين يقول . . . اذا أطلق . . . يقصد به استبعاد الكلام الذى قد يخرج عن كونه كلاما ، واستبعاد الكلام الذى يتغير معناه بالتقييد . فحين نقول : « ان قام الناس » فان الوضع هنا يخرج عن كونه كلاما . وحين نقول : « قام الناس الا زيدا » لم يخرج عن كونه كلاما ولكن خرج عن اقتضاء قيام جميعهم الى قيام ما عدا زيدا . وبذلك يمكن استخلاص ثلاثة شروط لصحة الوضع : ألا نبتدىء الخبر بما يخالف خاتمته ، والثانى ألا نختتمه بما يخالفه ، والثالث أن يكون صادرا عن قصد . وهذه الشروط هى التى تجعل اللفظ فى حيز : « أن وضع الواضع له معناه أنه جعله مهيا لأن يفيد ذلك المعنى عند استعمال المتكلم على الوجه المخصوص » (٢) . ان مثل هذا التحديد « شك أن يحول الألفاظ الى أداة ميكانيكية تفقد حيويتها . ان فكرة « الوضع » هى فرض منطقى وصل اليه العقل الذى يبحث دائما عن بدايات كأنما فيها

(١) المزهر ج ١ ص ٣٠

(٢) المصدر السابق ص ٣٨ - ٣٩

النجاة . ولذلك يرتد الباحثون عن « حد الوضع » الى القول « المفيد في الحقيقة انما هو المتكلم ، واللفظ كآلة الموضوعة لذلك » (١) . وتلك نظرة فيها الكثير من الحس اللغوى السليم . ان الصنيع هو فعل المتحدث ثم أوثر ان يكون اللفظ أكثر التصاقا بوجدانه .

ذلك جدل اصولى حول صلة اللفظ بالدلالة . ولست أظن أن تراثا لغويا كان له تلك الوقفات مع القضية . وأيا ما كان من حوارهم فإن منهجا فريدا امتازوا به ، ذلك هو منهج التحليل اللغوى الذى نراه مشرقا فى القرن الرابع للهجرة ، وربما سبق غيره بمئات السنين . ومن الخير أن نقف مع ذلك المنهج وقفة مستأنية فلقد أثرى علم اللغة بأبحاث ناصعة .



عن عبقرية العربية

لابن جنى فى خصائصه باب يقول فيه : « اختلاف اللغات وكنها حجة » ، وهو يقرر ما كان فى عصره - الرابع للهجرة - : « اعلم ان سعة القياس تبيح لهم ذلك ، ولا تحظره عليهم . الا ترى ان لغة التميميين فى ترك افعال (ما) يقبلها القياس ، ولغة الحجازيين فى افعالها كذلك ، لان لكل واحد من القومين ضربا من القياس يؤخذ به ، ويخلد الى مثله . وليس لك أن ترد احدى اللغتين بصاحبيتها ، لانها ليست أحق بذلك من رسلتها ، ولكن غاية ما لك فى ذلك أن تتخير احدهما ، فتقويها على أختها ، وتعتقد أن أقوى القياسين أقبل لها ، وأشد أنسابها . فأما رد احداها بالأخرى فلا ، (١) .

والمبدأ الذى يقرره ابن جنى يمثل نظرا لغويا أصيلا بعد أن صارت العربية لغة الثقافة المتمشدة للكثير من التراث الانسانى الذى احتكت به ، والذى خرجت منه بحصيلة هائلة من الفكر ومن القدرة على استيعاب عشرات القضايا التى ربما يتردد العقل العربى المعاصر - رغم مرور ما يزيد على الألف عام - من طرحها لمناقشة والجدل الفكرى ، فمن قضايا الألوهية وخلق القرآن وصفات الله وذاته الى قضايا النبوة والأحاديث والصحة والضعف الذى تعرضت له ، ومع ذلك لم تهن عزائم أهل الثقة فى ربحان كفة العلم مهما حامت السحب ، بل ان سحب الخصومة الفكرية كانت هى التى تبلل الحق دائما فيشند نبته . وكما أثير الجدل حول القضايا الفقهية والعقدية كذلك تحرك حول اللغة وماهيتها وألفاظها ، ولم يستطع العقل التقليدى أن يحدد عصر الاحتجاج تحديدا مانعا جامعا . ولهذا يعبر ابن جنى كما رأينا فى نصه السابق عن مدى سعة اللغة ، فكلها حجة . وهو مستند الى حديث القراءات : « أولا ترى الى قول النبى صلى الله عليه وسلم : « نزل القرآن بسبع لغات كلها كاف شاف » . وهذا الحديث هو نفسه الذى لعب دوره العظيم فى تجويز الكثير من القراءات القرآنية ، والتى لولاها لغاب من تاريخ اللغة شيء كثير من سماتها وخلافاتها ، ومن ثمة لبدت متحوصلة فى قالب اختاره نفر من رجالها لا عاصم لهم من الخطأ أو الاسراف .

ومع ذلك فلم يكن القياسي وحده هو الشفيع ، ولكن الى جواره ناني
 الإستعمال . فاذا كانت النفتان متدانيتين استعمالا ويسرا في القياس فهما
 على قدم واحدة . وأما أن تقل احدهما جدا وتكثر الأخرى فانك تأخذ
 بأوسعهما رواية . الاستعمال اذن هو ديدن هذا الرجل اللغوى فى الحكم عند
 ترجيح كل ما يجيزه القياس . واذا كان ابن جنى ينفرد بمنزلته بين مفسرى
 اللغة ، فلا بد أن نفهم صنيعه وسط التيار الحضارى العام الذى شاع فى
 عصره . لقد كانت أبحاث المعانى والألفاظ واحدا من أهم الروافد التى أذكت
 الدراسات اللغوية عامة ، والنقدية والبلاغية خاصة . ثم قصة الصراع بين ما
 أسموه لغة « البادية » ولغة « الحاضرة » ، وهو صنو لصراع بين عرق يود أن
 يحتفظ بكل ما تصوره روحا عربيا خالصا ، وعرق يود أن يفلت بالحياة من
 قبضة تلك الروح الآسرة . قصة صراع بين مناهج اثبات الاعجاز القرآنى ،
 وخاصة بعد أن تخطى الأمر الوقوف مع نماذج من آى القرآن للبحث عن
 مجازاتها واستعاراتها وتشبيهاتها ، وأصبح فى الميدان آراء لأهل الكلام
 ولأهل النظر ولأهل الأصول ولأهل كثر وتنتهى القصص لمحاولات
 لغوية تستهدف فهما جديدا واستخلاصا لجديد . ومع كل ذلك لابد من أن
 ندرك شيئا خطيرا كان يمس الناس : لغويين ونحاة ومفسرين وفقهاء . . .
 أعنى به موقف القراءات القرآنية . ومن فرط الجدل وخطره يتدخل السلطان
 ويأمر شيخ قراء بغداد « أبا بكر بن مجاهد » باختيار القراء السبعة . وذلك
 غير بعيد عن الربع الأول من القرن الرابع للهجرة . لقد حدث الأمر عام
 ٣٢٢ هـ . ومع تحديد القراء لابد أن ترسم علامة لغوية واضحة فى تاريخ
 الدرس .

ومع كراهيتى لكل تعميم فى أحكامنا على المواقف الفكرية للإنسان ،
 بحكم تطورنا الدائم ، والذى لابد أن يصل بنا الى تنصل من قديم أو نين
 لجديد أو على الأقل تطويع لمكاننا بالنسبة لزماننا الحادث ، الجديد ، أوول
 على الرغم من كراهيتى للقطع فى الأحكام ، فإن صاحبتنا ابن جنى كان يؤثر
 أن ينقاد لحسه اللغوى الخاص ، واذا كانت تصانيفه التى جاءتنا يبدو فيها
 بعض التردد والعرض على آراء السلف بناجدة ، ان لم نقل بنواجذه ، فذلك أن

الجدل حول الأخذ عن أهل المدر ، كما أخذ عن أهل الوبر ، قد بلغ حده بعد أن دالت دولة أصحاب لغة البادية .

لقد كان قد « انفق الرأي على أن الكلام الذى يحتج به فى الشئون اللغوية ، ويؤخذ به فى الاستشهاد - هو الكلام العربى الاصيل ، الذى لا محال لاتهامه أو تجريحه ، وهم يريدون بالعربى الاصيل : من نشأ بالبادية ، وأقام فيها حياته ، فلم يفسد لسانه بلغة الحضرة المختلطة ، ومعاشرة الأعاجم ٠٠٠ » (١) . ولكن لا شك فى أن مثل هذا الافتراض المثالى ما كان يمكن أن يستمر بعد ان انزاحت أمواج العرب فيما يقترب من نصف العالم آنذاك وبعد أن تمثلت لغتهم بحرص وبعبقرية نادرة الكثير من تراث الشعوب . ان القدرة التى شق بها الفكر الاسلامى مناهجه وسط أمواج المعرفة ، القديمة والمعاصرة لفترة ازدهاره ، أعنى فى القرنين الثالث والرابع ، تبدو فريدة فى مسافات التزاوج الحضارى البليغ . وأحسب بأنه ما كان يمكن أن يتم ذلك لولا التطور الكبير الذى التزمته اللغة ، تراكيبها أولا ثم مفرداتها من بعد . ويصبح من الجمود أن نتشبت بنمط لغوى كان فى البادية أو فى الأمصار المعزولة ! وبحكم ذلك الاهتزاز الذى تعرضت له الصورة التقليدية ، صورة طلبها أبو عمرو ابن العلاء أو طلبها الأصمعى أو طلبها ابن الاعرابى حين رفضوا أشعار جرير والفرزدق واسحق الموصلى والكميت والطرماح وغيرهم (٢) ، نقول بحكم ذلك الاهتزاز - لمفارقة التطور الطبيعى - يقول ابن جنى فى خصائصه : « علة امتناع ذلك (الأخذ عن أهل المدر) ما عرض للغات الحاضرة وأهل المدر من الاختلال والفساد والخلل ، ولو علم أن أهل مدينة باقون على فصاحتهم ولم يعترض شيء من الفساد للغتهم لوجب الأخذ منهم أيضا كما يؤخذ عن أهل الوبر . وكذلك أيضا لو فشا فى أهل الوبر ما شاع فى لغة أهل المدر من اضطراب الألسنة وخبالها ، وانتقاص عادة الفصاحة

(١) عباس حسن اللغة والنحو . ص ١١٧

(٢) انظر طبعات فنون الشعر .

واثر الشعر والشعر

واثر الزمر . ج ١ ص ٢١٢

وانتشارها لوجب رفض لغتها ، وترك تلقى ما يرد عنها « (٣) . ذلك تقرير للوضع فى القرن الرابع من وجهة نظر واحد من كبار علمائه . وحجته شئ ذلك « أنا لا نكاد نرى بدويا فصيحاً ، وإن نحن آنسنا منه فصاحة فى كلامه ، لم نكن نعدم ما يفسد ذلك ويقدح فيه ، وينال ويغض منه » (٢) ما أشق الدرب الذى يود التفكير المنطقى الخالص أن يقود المنطق اللغوى اليه !! انه نجفاف قاعدة القياس التى التزم بها الناس !! أليس للعقل أن يشق حدود السابقين !! فلم الحجر وقد وهب الله - سبحانه - كل عصر قادريه ؟ وبحكم ذلك الروح المنتمى فى أعماقه الى الماضى اصطنع أهل البادية حرفة « التفاسيح » . ويروى ابن جنى نادرته : « كان قد طراً علينا من يدعى الفصاحة البدوية ، ويتباعد عن الضعفة الحضرية ، فتلقينا أكثر كلامه بالقبول له ، وميزناه تمييزاً حسن فى النفس موقعه ، الى أن أنشدنى يوماً شعراً لنفسه يقول فى بعض قوافيه : أشيؤها وأداؤها بوزن أشعها وأدعها ، فجمع بين الهمزتين كما ترى ، واستأنف من ذلك ما لا أصل له ولا قياس يسوغه » (٢) . ذلك حال رجل كان ابن جنى يراه من أمثل الرجال الذين قدموا المدينة من البادية ، فما بال مرذول أقوال تلك الطوائف . وصريح أقوال ابن جنى تقرير لحالة عصره ، عصر جدل مستمر بين القديم والحديث من كافة فروع المعرفة ، وعصر اضافة هائلة لتراثنا المشرق . ولست أرى اعتراضاً يدفع به بعض العلماء المعاصرين : « لقد عاش ابن جنى خلال القرن الرابع ومات آخره ، فهل يرتضى تضبيق حكمه على أهل الجاهلية والاسلام معا الى عصره ، فى الحضر والوبر ؟ ان ساغ تطبيقه فى العصر الاسلامى فكيف يسوغ تطبيقه فى الجاهلية ووبرها ؟ أليس معناه أن عرب الجاهلية يخطئون ويعجمون ؟ فمن لهم حق الحكم عليهم بهذا ؟ وعلى أى أساس يستندوهم أهمل اللغة وأزايها ؟ وهم المرجع الوحيد فى أصولها ، الصواب ما كان منهم ، وما وافقهم . والخطأ ما خالفهم ؟ وكيف يعجب ابن جنى بعربى ويصفه بفصاحة اللسان ثم يرتد متهما اياه جارحاً له ؟

(١) الخصائص ، ج ٢ ، ص ٥

(٢) الخصائص ، ج ٢ ، ص ١٠٥

ومن أجل ذلك أخطأ ابن جنى فى كل الذى ذهب إليه من قصة ذلك
الاعرابى « (١) » .

مثل هذا الاتهام الذى يوجه الى عالم لغوى له اصالته وورعه كان له
صنوه فيما مضى (٢) .

لم يستقر أهل اللغة على منهج « للتوثيق » ، ومن ثمة اشتق بعضهم
منهاج أخرى يخضعون المادة لها . ولعل التحليل الصوتى المرتبط
بالدلالة كان من المباحث التى امتاز بها ذلك العصر . لقد كان خلط
غريب ، شعر به أصحاب الحس اللغوى فحاولوا التفتيش عن طريق لا يربطهم
وسط ركाम جميع « اللغات » أو جهود استخلاص لغة « مثلى » يقاس عليها
كما يقولون !

منهج التحليل الذى شغلهم هو جهد يطبق على جزئيات من اللغة ، ولكن
طموح أصحابه لا يخفى .

* * *

اتجاه للتدوير :

لقد بدأ تحليل الصلة بين اللفظ ودلالته من نبع صغير كشفته ملاحظة
الخليل بن أحمد فى القرن الثانى للهجرة ، ثم صار ذلك النبع معيناً ضحكاً

(١) عدى حسن اللغة والنحو : ص ١٢٤ : ١٢٥ - وتبرير الأستاذ عباس حسن
لاتهام ابن جنى بالخطأ بلخص فى سببين الأول اما أن يكون ذلك العربى له ما انظاره العرب
من الفصاحة فيصبح حجة لا عيب فيه . وهو الأمر الذى قرره ابن جنى فى صدر كلامه .
والثانى اما أن يكون العربى متهما فى فصاحته ولابد من أصول للاتهام . والأمر غير قائم
فى حاله هذه .

ان الأمر مع ابن جنى ليس بعميق ان مرفق معين يحدد فيه الرجل رأيه .

(٢) لمضى قصه أخرى مع اعرابى : الخصائص ج ١ . ص ٢٣٩

اسم من المتأخرين طاقة هائلة من التحليل التفصيلي العميق . وأول ما جذب انتباه الخليل بن أحمد الى دربه كانت الألفاظ المعبرة عن أصوات « مسموعات » . ورأى فيها أصواتا محاكية للطبيعة . والأقوال في ذلك الاتجاه تستهدف إثبات نوع من الصلة الطبيعية بين أجراس الحروف ودلالاتها من جهة ثم بين أنغام الألفاظ ومعانيها الكنية من جهة أخرى . وشي ذلك النظر تبدو الحروف والصيغ مترابطة مع الدلالة . وكان هناك نتيجة ضرورية للايحاء من تتابع الحروف أو بناء الكلمات . ولكي تصور الوصف النفوس تأخذ مما قال به عناء الصرف من « ن الأصول ثلاثة ثلاثي ورابعي وخماسي . فاکثرها استعمالا وأعدلها تركيبا الثلاثي . وذلك لأنه حروف يبتدأ به . وحرف بحشي به . وحرف يوقف عليه » (١) . النظر هنا على عقل صرف . لا يستند الى مجرد الوصف . هو نظر المناطقة الذين يفسرون الظواهر وفق مقولات منطقية تحاول ان تطبق المقولات . « ليس اعتدال الثلاثي لقلة حروفه فحسب . لو كان كذلك لكان الثلاثي أكثر منه لأنه أقل حروفا ، وليس الأمر كذلك » (١) . نظر عقل يستند الى تبرير وضع قائم . وليس الى استقراء . ومن ثمة يصح الرباعي واخماسي في رأى ابن جنى أثقل من الثلاثي الذي هو خفيف وأمكن من الثلاثي والرابعي وعبره (٢) .

ولكن ! من أين كل ذلك . وما فلسفته الصونية التي يريد اليها ؟

لم يكن اكتشاف ذلك الاتجاه الا نتيجة للبحث عن أصل اللغة ومشنه . نسبه الى التوقيف أو الى الاصطلاح أو الى محاكاة المسموعات . ومن النسبة الأخيرة لاحت صلات بين الألفاظ والمعاني . او تلاوات روابط بين التسميات ومسميتها . ومن هنا بدأ العقل في الفعل . بدأ فيما يشبه المحادعة حين تصور العاقلون تلك الصنة . قال الخليل : « كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومدا فقالوا صر . وتوهموا في صوت المازى تقطعا

(١) الخصائص . ج ١ . ص ٥٥

(٢) المرجع السابق . ج ١ . ص ٦٩

فكانوا صرصر ٠٠ « (١) . وإذا كان الحليل قد به على مثل ذلك التساوق ، فإن سيبويه يدفع الامر خطوة أخرى حين يقرر « ومن المصادر التي جاءت على مثال واحد حين تقاربت المعنى قولك : النزوان والنقران والققران . وانما هذه الاشياء في رعدة البدن واهتزازه في ارتفاع . ومثله العسلان والرتكان ومثل هذا الغيان لانه زعزعة وتحرك ، ومثله الغثيان لانه تجيش نفسه وتور ، ومثله الخطران واللمعان لأن هذا اضطراب وتحرك ، ومثل ذلك اللهبان والوهجان لانه تحرك الحر وتثوره . فانما هو بمنزلة الغليان » (٢) . هذا منهج يأخذ بالوصف النغوي في محاولة لكشف أوليات اللغة ، انه يتخطى الجدل الذهني المفرط الذي يتساءلون فيه عن بداياتها . ولقد قام على جميع ملاحظات عن الجزئيات ثم استخلاص قاعدة كلية ما وسعهم السبيل .

وإذا كانت عنايتهم بالدراسة الصوتية هي قرينة بقضايا الاعجاز القرآني ، حين ذهب فريق الى أن القرآن معجز بالمعاني ، وذهب فريق آخر الى أنه معجز بالألفاظ ، ومن ثمة شرعوا في التنقيب عن أسباب الجودة والتلاؤم أو التأخر والتنافر ، أقول اذا كانت تلك هي البدايات فسرعان ما امتد البحث الى عالم الشعر والى عالم اللغة عامة ، وصار الوعاء النغوي هو الميدان . لقد استشبهوا أهمية العلاقة التي تربط اللفظ بدلالته ، وما زال البحث عن ذات العلاقة هو حجر الزاوية في كل دراسات الدلالة حتى يومنا هذا . وأحسب أنها باقية أبدا مهما اختلفت المناهج . ويعبر « استيفيان أولمان » عن القضية كاتباً : « ان نواة دراسة علم الدلالة هي العلاقة ذات القطبين بين وجهيها المتداخلين : العلامة Sign (٣) (وهذا يقابل اللفظ عند علماء العربية) والشئ المدلول عليه : أى بين ما يدل على معنى والشئ المعنى » (٤) .

(١) ابن حنى . الخصائص . ج ٢ . ص ١٥٢

(٢) سيبويه . الكتاب . ج ٢ . ص ٢١٨

(٣) ابن اللغة . Sign . ج ٢ . ص ١٥٢ . وهو الذي ترجمها الى محمد عيسى . وفي بعض الإصحاح تبدو

ترجمتها الى « العلامة » . فترجمها الى « العلامة » . وفي أحد آخر ترجمها الى « الدالة » .

وما يقوله أولمان هو الذى يفتتح به أوجدن وريتشاردز كتابهما الموسوم بـ « معنى المعنى » ، والذى لعب دورا كبيرا فى توجيه الدراسات اللغوية منذ صدر عام ١٩٢٣ . « وفى الأعوام الأخيرة اكتسبت قضية المعنى *Meaning* أهمية أكيدة ، ولكن من سوء الحظ أن الذين حاولوا حلها كثيرا ما تنازلوا عن طموحهم ، سواء فى الماضى كما حدث مع ليبنتز *Leibnits* ، أو ما حدث مع *Pierce* فالمناهج التى عالجوا بها البحث عن الدلالة ظلت متأرجحة فى شك . ولقد دفع كل فرع من فروع المعرفة هذه القضية الشائكة الى الفرع الآخر . ويستوى فى ذلك الميتافيزيقيون أو الفيلولوجيون ، فكل يتحمل نصيبه من الخطأ ... » (١) .

ان القضية ، وعلاقتها ، كانت تحت مجهر قدمائنا منذ أكثر من عشرة قرون ، وقالوا فيها الكلام الطيب . فنضج اللغة العربية مكنهم من الكثير ، والارتباط الوثيق الذى ربط أنماط حياتهم بالنص الدينى الكريم فرض عليهم رعاية خاصة لها ، وثبات الحضارة وتفوقها مكن عقولهم من علاج الكثير دون خوف ولا وجل . هى عندهم الطريق الى فهم الشرع وتحديد الموقف بين جدل أهل الكلام والفرق الدينية . لم يكن القائلون بالتشبيه لله الا ضحايا فهمهم لظاهر الألفاظ ، ولم يستند المنزهون لله الا على فهمهم لأصول معانى الألفاظ : « ذلك أن أكثر من ضل من أهل الشريعة عن القصد فيها ، وحاد عن الطريقة المثلى إليها ، فانما استهوا واستخف حلمه ضعفه فى هذه اللغة الكريمة الشريفة ، التى خوطب الكافة بها ... وأصل اعتقاد التشبيه لله تعالى بخلقه ، منها ، وجاز عليهم بها وعنها . وذلك أنهم لما سمعوا قول الله - سبحانه ، وعلا عما يقول الجاهلون علوا كبيرا - (يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله) (سورة الزمر آية ٣٩) ، وقوله : (فأينما تولوا فثم وجه الله) (سورة البقرة آية ١١٥) وقوله : (لما خلقت بيدي) (سورة ص آية ٧٥) بوقوله : (مما عملت أيدينا) (يس آية ٧١) ، وقوله : (ويبقى وجه ربك) (الرحمن آية ٢٧) ، وقوله : (ولتصنع على عيني) (طه آية ٣٩) ، وقوله :

« والسماوات مطويات بيمينه » (الزمر آية ٦٧) ، ونحو ذلك من الآيات الجارية هذا المجرى ، وقوله فى الحديث : خلق الله آدم على صورته ، حتى ذهب بعض هؤلاء الجهال فى قوله تعالى : (يوم يكشف عن ساق) (القلم آية ٤٢) أنها ساق ربهم - ونعوذ بالله من ضعفة النظر وفساد الاعتبار ، ولم يشكوا أن هذه أعضاء له ، وإذا كانت أعضاء ، كان هو لا محالة معضى على ما يشاهدون من خلقه ، عز وجهه ، وعلا قدره » (١) .

المشبهة ، والمجسمة اذن ينحدرون فى تفاسيرهم - كما يقرر النص - بحكم عدم الادراك لعلاقة الألفاظ بمعانيها وعلاقة العبارات بمجازاتها . و « لو كان لهم أنس بهذه اللغة الشريفة أو تصرف فيها أو مزاوله لها ، لحمتهم السعادة بها ، ما أصارتهم الشقوة إليه بالبعد عنها » (١) . الأناشيد التى يرمى اليه صاحبنا هو الاستخدام المجازى للغة ، لقد عاش الشعر به ، وقام كل بديع عليه . ولم يكن الذين رفضوه فى العبارات القرآنية بغافلين عنه أو بمنحطة أفكارهم دونه ، ولكن احساسهم الدينى كان يربأ بهم أن يتحولوا بالألفاظ القرآنية عن مجالاتها الظاهرة وكانهم ينشدون نمطا لغويا خاصا مع أنه بلسان عربى مبين . الخطأ كان مع نظرهم العقلى . المجرى للنظم القرآنى عن مثيله من النظم المجازى . ولذلك يقرر اللغوى ابن جنى : « ان هذه اللغة أكثرها جار على المجاز ، وقبلما يخرج الشيء منه على الحقيقة ، فلما كانت كذلك وكان القوم الذين خطبوا بها أعرف الناس بسعة مذاهبيها ، وانتشار أنحائها ، جرى خطابهم بها مجرى ما يالفونه ويعتادونه منها ، وفهموا أغراض المخاطب لهم بها على حسب عرفهم ، وعاداتهم فى استعمالها فكذاك قوله (يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله) أى فيما بينى وبين الله اذا أضفت تفريطى الى أمره لى ونهيه إياى . وإذا كان أصله اتساعا ، جرى بعضه مجرى بعض وكذاك قوله « فأبنا تولوا فثم وجه الله » ألا ترى الى بيت الكتاب :

أستغفر الله ذنبا لست محصيه رب العباد إليه الوجه والعمل

أى الاتجاه . . . » (١) .

تلك وقفة مع بعض الألفاظ القرآنية باستخداماتها فى المجالات ، ويمكن أن نرد آراء اللغويين الى الاحساس العقدى الذى هو بلا شك عند أقدم كثير من الحشوع ومن المسلمات . ومع ذلك فإن مجال الشعر ، وكان مما أثر حوله جدال آراء تبريره أو منعه بين علماء الفقه وأهل السنة ، أقول ان مجال الشعر خاضع لنفس الروح التى نظاردها أو تطاردنا ، روح الانتماء للألفاظ وأفلاكها ، وروح تأثيراتها الحسية والغيبية . ونستعير من كتاب « عيار الشعر » نصا فيه وضوح وتقرد : « قال بعض الفلاسفة ان للنفس كلمات روحانية من جنس ذاتها . وجعل ذلك برهانا على نفع الرقى ونجعتها فيما تستعمل له . » (٢) .

تطابق كامل اذن بين روحانية النفس وروحانية الألفاظ ولن تسلك الألفاظ طريقها الى النفس الا ان تحلت بنفس الشفافية التى تستمتع بها قرينتها . فما كان يمكن أن تنفع الرقى الا بفضل التزاوج الكامل بين روحانية النفس وروحانية الكلمات . وتلك محاولة لتفسير التأثير السحرى الذى تمتاز به كل صيغ التعاويذ والأحجبة وما إليها . وحين نفس الكلام الشعر وعيانه يقول ابن طباطبا : « فاذا ورد عليك الشعر اللطيف المعنى ، الحلو اللفظ ، التام البيان ، المعتدل الوزن ، مازج الروح ولام الفهم . وكان أنفذ من نفث السحر ، وأخفى ديبيا من الرقى ، وأشد اطرابا من الغناء ، فستل السخائم ، وحلل العقد ، وسخى الشحيح ، وشجع الجبان . وكان كالحمر فى لطيف ديبية والهائه وهزه واثارته . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ان من البيان لسحرا . » (٣)

هذا المزاج الدقيق بين أثر الشعر فى النفس وأثر الحمر فى ديبية ، ثم الحديث عن الكلام الذى يستل السخائم ويحلل العقد ، ألا يذكرنا بشيء مما

(١) الخصائص . ج ٣ . ص ٢٤٧

وبيت سيبويه فى الكتاب . ج ١ . ص ١٧

(٢) عيار الشعر ص ١٦

(٣) المرجع السابق .

يقدم المعاصرون فى مجال التحليل النفسى ؟ ثم ألا يذكرنا بما قاله أرسطو عندما تحدث عن نظرية التطهير : catharsis ، التى هى فى أصلها - عيما نرى - أثر من آثار التصور السوفى ، لارتباط الألفاظ بدلالاتها ، ومن ثمة تنتقل العبارات المسرحية الى تجسيم للفكرة ، حتى تستحيل الى ما يشبه الواقع .

• كانت تنسب الى الشعراء الأقدمين قوة مخفوفة تتلخص فى الاسم . satire - الهجاء - هذه الكلمة لا تثير فى أذهاننا نحن المتحضرين ، غير فكرة تمرين أدبى ، عدا عليه الزمن بعض الشيء ، ولكنه على كل حال لا يملك خيرا لانسان . غير أن الهجاء فى وقت ما كان يتقمصه ساحر . وكان الهجاء نعتة فادحة تصيب من يوجه اليهم . . . إن الشاعر الهجاء لم ينفصل عن الساحر الآثم الا فى العصور المتأخرة بفضل تقدم المدنية . (١)

وقع الألفاظ مع الحياة وقع مستمر ، والعكس أيضا صحيح . ومن هنالك كان البحث عن صلة الألفاظ بالدلالات هو بحث عن آثار الوحدات البيانية مع أصحابها .

وفى مجرى الإلهام ذاته كانت جهود القدماء ، كانت ملاحظات الخليل وسيبويه حين أشارا الى امتزاج صيغ معينة بدلالات معينة . ومن بعدهما يتسلم النغويون القضية ليدل فيها كل بدلو . ويجىء ابن جنى ويقرر أن منهج الرجلين قد تلقته الجماعة بالقبول له ، والاعتراف بصحته . أما هو فقد وجد الكثير على سمت ما حدها ومنهاج ما مثلاه .

دراسة فى مناهج التحليل :

السمت والنهج اللذان وجدهما ابن جنى متأسيا فيهما بما صنعه العالم الخليل بن أحمد ثم تابعه فيه تلميذه العبرى سيبويه ، كان صلة بين الوزن الصرفى للكلمة والمعنى الذى يحركه ذلك الوزن فى الذهن ، وإذا صح القول بأن الوزن صيغة مجردة ، أو صورة غيبية للفظ موزون ، فانه يصح كذلك القول بأن الدلالة صورة مجردة ، تختلف بدورها عن الدالة ،

وتختلف أيضا عن الشيء الذي تدل عليه . ولصاحب الخصائص فى المساق عدة محاولات ، لعلها تحدث ، فى النهاية كلا متكاملا .

١ - دلالة الجرس

وجد ابن جنى (١) أن المصادر الرباعية المضعفة تأتي للتكرير ، نحو : الزعزعة والقنقلة والصلصلة والققعقة والجرجرة والقرقرة . ووجد أن الفعل فى المصادر والصفات انما تأتي للسرعة ، نحو : البشكى ، والجمزى ، والولقى . وحين يرى ابن جنى ذلك يضع مقولته الكلية : انهم جعلوا « المثال المكرر (الفعللة) للمعنى المكرر ، والمثال الذى توالى حركاته (الفعل) للافعال التى توالى الحركات فيها » .

وكما استقرأ ابن جنى هذين المصدرين فانه يستقرئ مباني الأفعال ، فللغربية خصائصها فى ربط الصيغة بالمعنى . ولذلك يقول : ان الذى هو أصنع أنهم جعلوا « استفعل » فى أكثر الأمر للطلب ، نحو : استسقى ، استطعم ، استوهب ، استصرخ وهو يحاول أن يفسر الظاهرة تفسيراً فيه جهد عقلى مضمّن ، وأبيح لنفسى محاولة عرضه دون ألفاظه ففيها مشقة : انه يرى أن أصول تلك الأمثلة السابقة وهى : سقى - طعم - وهب - صرخ . . . لم يكن معها دلالة تدل على طلب لها ولا اعمال فيها . ثم دخلت حروف الزيادة فى مقدمتها لتكون كالمؤدية اليها . وهو يرى أن طلب الفعل والتماسه والسعى فيه يسبق الفعل المجرد . أو كأنه يقول : ان أصول الأفعال أو مجرداتها تلحق بمبانيها ، صيغة الطلب . وبحكم السبق الحدى ، تقدمت زيادات الطلب أو الأمر على « الأصل » ، الذى يجىء متأخرها ، وكان ارتباطه بالتقرير العقلى هو سر ذلك .

الزيادة + المجرد = المدخل + الأصل = الطلب المتوقع للاجابة المقررة .

ان الجهد الذى يبذله ابن جنى مضمّن للعقل كما قلت . ولكنه منطبق عالم يفسر ما يراه ، أو هو واقع فى منطق البحث عن العلل . « ان هذا على سمت الصنعة التى تقدمت فى رأى التحليل وسيبويه . الا أن هذا أغمض من

تلك . غير أنها وإن كانت كذلك فإنها منقولة عنها ، ومعقودة عليها . ومن وجد مقالا قال به وإن لم يسبق إليه غيره ، فكيف به إذا تبع العلماء فيه ، وتلاهم على تمثيل معانيه « (١) » .

وصيغة ثانية يخضعها ابن جنى لمنهجها وهي صيغة الفعل المكرر العين نحو : نشر ، قطع ، فتح ، وغلق (مشددة العين) . ولتفسير علاقة المبنى بالمعنى يرى أنه لما كانت الألفاظ دليلا المعانى فقد جعلوا أقوى أجزاء اللفظ مقابلا لتقوية المعنى . ومن ثمة خصوا عين الفعل بالتقوية عن طريق التكرار لأنها « واسطة لهما ، ومكنونة بهما ، فصارا كأنهما سياق لها ، ومبدولان للعوارض دونها » (١) .

تلك هي نظرة ابن جنى حاول فيها استخلاص نوع من الصلة بين « المثل » وصنعتهم عند ارادة معان على غير أصولها . ولقد أغراه الباب ليدخل منه الى رأى يقول فيه : « ذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها ، فيعدلونها بها ويحتذونها عليها » (٢) . والعمل الذى يقوم به هو وليد جهده العقل الذى يربط بين المباني والدلالات . وبوحي هذا الاحساس اللغوى يسوق حشدا من أمثله المؤكدة :

« خضم وقضم »

فالخضم لأكل الرطب (كالبطيخ والقثاء) ، والقضم للصلب اليابس . ولكى لا تضل الفروق يقيد الرجل نموذجه بشواهد : ان العرب يقولون : « قضمت الدابة شعيرها » وجاء فى الخبر « قد يدرك الخضم بالقضم » (٣) . والتعليل الذى هو رابط ما بين اللفظ والدلالة أن العرب اختاروا الحاء

(١) الخصائص : ج ٢ ، ص ١٥٥

(٢) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٥٧

(٣) معنى الحديث : قد يدرك الرخاء بالشدة ، واللين بالشطف . ذلك أن القضم

الشديد يسبق الخضم الذى هو أكثر لنا وراحة .

لرخاوتها للرطب ، والقاف لصلابتها لليابس ، حذوا لتسموع الأصوات على محسوس الاحداث(١) .

وعلى نفس المنوال نسجوا :

نضج ونضج .

فالنضج للماء ونحوه ، والنضج لما هو أغلظ وأثقل ، لأنهم جعلوا الحاء

لرقتها ، للماء الضعيف ، والحاء لغلظها ، لما هو أقوى منه .

ومنه : القد للقطع بالطول ، والقط للقطع بالعرض ، وعلّة ذلك أن

الطاء أحصر للصوت وأسرع قطعاً له من الدال . فجعلوا الطاء المناجزة لقطع العرض ، لقربه وسرعته ، والدال الماطلة لما طال من الأثر ، وهو قطعه طولاً .

ومنه : الوسيلة والوصيلة

وإذا كان معنى اللفظتين يقترب أحدهما من الآخر ، الا أن ابن جنى يرى

أن صاد الوسيلة أقوى صوتاً من سين الوسيلة ، ومن ثمة صار معنى الأولى

أقوى من معنى الثانية لأنها - (الوسيلة) - تفيد اتصال الشيء بالشيء وامساسه له ، وكونه فى أغلب الأحوال بعضاً له ، كاتصال أعضاء الجسم ،

فهى أبعاضه . أما الوسيلة فانها من التوسل الذى ليست له عصمة الوصل

والصلة ، واستحالة كون المتوسل جزءاً من المتوسل اليه . ومن هنا كان

التعليل « جعلوا الصاد لقوتها ، للمعنى الأقوى ، والسين لضعفها للمعنى

الأضعف » .

وبنفس التعليل يقول انهم جعلوا « سعد » لما يشاهد من الأفعال

المعالجة المتجشمة ، بينما جعلوا « سعد » فيما تعرفه النفس وان لم تره

العين ، فقالوا : الصعود فى الجبل ، وقالوا هو سعيد الجد .

(١) الخصائص : ج ٢ ، ص ١٥٨ . ولابد من الإشارة أن فريقاً من العربيين ذهبوا

الى غير ذلك التفسير . فالكسائى يقول : ان القضم للفرس والخضم للانسان . وبذلك يخصص الأفعال ، وان لم يخلق الباب تماماً أمام محاولة ابن جنى .

انظر : الزهر ، للسيوطى . ج ١ . ص ٥١

ومن ذلك أيضا : سد وصد .

فالسد دون الصد . لأن السد للباب يسد . والصد لجانب الجبل والوادي والشعب . وهذا أقوى من السد الذي يكون لثقب الكوز ورأس القارورة . « فجعلوا الصاد لقوتها ، للأقوى ، والسين لضعفها ، للأضعف » (١) .

ذلك نحو ذهب إليه ابن جني ، وديدنه نظرة فيلولوجية ترى « أن الدلالة اللفظية أقوى من الدلالة المعنوية » ، والذي يعنيه بالدلالة اللفظية هو الدلالة التي يرتبط فيها اللفظ بمعنى محسوس وليس بمعنى مجرد . وما أقرب هذا مما يشيع عند نفر من اللغويين يرون أن أصل المعاني محسوسات ، ثم منها توالدت المعاني المجردة أو المعنوية ، بل وربما تكون كيفية الاستعمال هي التي نفثت الروح بين المجردات وأصولها من المحسوسات . وما زلنا نذكر مثل أبي عمرو بن العلاء حين قال أن أصل الخيلاء من الخيل . والصلة بين الخيلاء ومشية الخيل دافعة لذلك الاعتقاد (٢) .

وإذ قدم صاحب الخصائص طائفة من أمثله الواضحة الباهرة ، يعود ليقول : « فهذا ونحوه أمر إذا أنت أتيت من بابه ، وأصلحك فكري لتناوله وتأمله ، أعطاك مقادته ، وأركبك ذروته ، وجلا عليك بهجاته ومحاسنه . وإن أنت تناكرته وقلت : هذا أمر منتشر ومذهب صعب موعر ، حرمت نفسك لذته ، وسددت عليها باب الخطوة به » (٣) . هو منهج وعراذن كما يقرر صاحبه ، ولكنه بحث عن أصل من أصول الفكر اللغوي . بحث عن علاقة صيغ الكلمات ومعانيها ، كيف يوحي جرس الكلمة بالمعنى الذي يتسق معه . أو كيف يوقف المعنى الحاصل الجهاز الصوتي للإنسان على الصيغة التي تلائمها .

(١) الخصائص : ج ٢ . ص ١٦١ . وفي السياق نفسه يجعل القسم أقوى من القسم ، لأن القسم يكون معه الدق ، فبالدق خست الصاد للأقوى والسين للأضعف .

(٢) المزهر : ج ١ . ص ٣٥٣

(٣) الخصائص : ج ٢ ، ص ١٦٢

ومن الغريب أن ابن جنى يبدو كأنه استمد قوة حين أسلمت له تلك النماذج قاعدته ، فيدفع نظريته الى مجال جديد ، وكأنه يريد تأكيد الجانب السخرى فى اللغة . يقول : « انهم قد يضيفون الى اختيار الحروف وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبر عنها بها ترتيبها ، وتقديم ما يضاهى أول الحدث ، وتأخير ما يضاهى آخره ، وتوسيط ما يضاهى أوسطه سقوا للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المطلوب » (١) .

والفكرة التى يقدمها الرجل هنا فيها جسارة عقلية تتخطى كل المحاولات . فلو أخذنا ما قاله عن الفعل (بحث) لرأيناه يبرر تكوين أصوله وفق حركة عقلية يعملها فى الفعل . فعنده أن الباء لغلظها تشبه بصوتها خفقة الكف على الأرض ، وأن الحاء لصحلها (لبحثها) تشبه مخالب الأسد وبرائن الذئب ونحوها اذا غارت فى الأرض . وان الثاء فللنفث والبت للتراب . وتلك محاولته لربط أجراس الحروف بالمعنى ، وكان حدث (البحث) يرتبط بوحى تركيب الكلمة . ونفس التحليل يصنعه مع الفعل (شد) فالشين بما فيها من التفشى تشبه بالصوت أول انجذاب الجبل قبل استحكام العقد ، ثم يليه احكام الشد والجذب فيعبر عنه بالبدال التى هى أقوى من الشين . والادغام فيها أقوى لصنعتها وأدل على المعنى الذى أريد بها .

وهذا مثال آخر : جر الشيء يحجره . فقد قدموا الجيم لأنها حرف شديد ، وهو يناسب أول الجر لمشقته ، ثم عقبوا الجيم بالراء المكررة ، لأن الشيء اذا جر على الأرض تكرر اهتزاز صاعدا ونازلا اليها .

واذا كان ابن جنى قد تفوق بمنهجه المقارن الذى طبقه حين عرض للمصادر أو لصيغ الأفعال المتقاربة ، فإن الامر يبدو عملا ذهنيا أكثر منه جهدا وصفيا حين يعالج الأفعال المستقلة . والا فما مصير فلسفته هذه لو أننا قلبنا كلا من الفعلين : شد وجر ، وصارا دش ورج ، فتصبح الدال التى تمثل القوة فى شد أسبق من الشين ذات التفشى . وكان الادغام هنا يزيد لها قوة !! والأمر نفسه مع الفعل رج . فهل تتناسب الراء التى كانت لشدة التأريب مع حركة الرجرجة التى لابد أن تبدأ متواضعة لتشتد كلما استمرت الحركة ! وليس من العسير رؤية دلالة الفعل (رج) أشد عنفا من الفعل (جر) . ولم يستوعب الحرفان كل ما شاء ابن جنى أن يحملهما كعنصرين

أساسيين فى الكلمة حتى وان اتحدت دلالتاهما « واجتمعتا حول افادة الحركة » (١) .

حد الحرف :

انها صنعة التصريف التى جودها صاحبنا هى التى مكنته من نظره الصوتى ، ومن الوقوف على أهمية الحروف ثم ينتقل الى جرس الحروف وعلاقته بالمعنى . ومن الطريف أنه يخضع بعض الحروف المستقلة لنظريته . « ان ازدحام الدال والتاء والطاء والراء واللام والنون اذا مازجتهم الفاء - مع التقديم والتأخير - فأكثر أحوالها ومجموع معانيها أنها للوهن والضعف ونحوهما » (٢) . انه يرى أن حرف الفاء أينما وقع فى البناء ، يوحى بالضعف والوهن . ولناخذ بعض نماذجه التى تقع الفاء فيها فى آخر الكلمة .

الدالف : للشيخ الضعيف .

التالف : للشئ التالف .

الطليف : هو الشئ المجان ، وليست له عصمة الثمين .
الظليف :

الطنف : وهو لما أشرف خارجا عن البناء ، ولهذا فهو أميل للضعف .

الدف : المريض .

النطف : الضعيف .

الترف : وهى التنعيم ولعين العيش ، فهى الى اللين والضعف .

الطرف : طرف كل شئ أضعف من قلبه ووسطه .

ويأخذ نماذج أخرى تقع فيها الفاء فى بداية الصياغة :

الفرد : وكل فرد منفرد فهو ضعيف ومعرض للهلاك .

الفارط : وهو المتقدم . وكل متقدم منفرد معرض للهلاك .

الفرات : وهو الماء العذب . واذا عذب الشئ ميل عليه ونيل منه .

(١) عبد الله أمين : الاشتقاق ، ص ٣٧٥

(٢) الخصائص : ج ٢ ، ص ١٦٦

الفتور : للضعف .

الفلته : لضعفة الراى .

الفطر : الشق ، وهو الى الوهن .

ونختار من نماذجه للوضع الذى فيه تتوسط الفاء الحرفين الاخرين :

الطفل : تقال للصبى لضعفه .

الطفل : تقال للرخص وهو ضد الشثن .

التفل : تقال للريح المكروهة المنبوذة .

الدفر : تقال للنتن . ومنه قولهم « أم دفر » للدنيا ، سب لها
وتوضيح منها .

هذه هى أهم نماذج الباب الذى كتبه ابن جنى فى « امساس الألفاظ
أشباه المعانى » (١) . والباب وان يكن صاحبنا مسبوقا فيه الا أن له فضل
بعجه وتوسعته . ولقد أثار صنيعة ذهن كثير من العلماء . فالسيوطى بعد أن
ذكر الكثير من الأمثلة التى يأخذها عن صاحبنا أو عن الكسائى وأبى عمرو
ابن العلاء والأصمعى وابن دريد وابن السكيت يقول : « فأنظر الى بديع
مناسبة الألفاظ لمعانيها ، وكيف فاوتت العرب فى هذه الألفاظ المقترنة
المتقاربة فى المعانى ، فجعلت الحرف الأضعف فيها والألين والأخفى والأسهل
والأهمس لما هو أدنى وأقل وأخف عملا أو صوتا وجعلت الحرف الأقوى
والأشد والأظهر والأجهر لما هو أقوى عملا وأعظم حسا . . . ومن ذلك المد
والط فان فعل المط أقوى لانه مد وزيادة جذب تناسب الطاء التى هى أعلى
من الدال . . . » (٢) . وفى هذا النص تأييد للرأى فى مضارعة صوت الحرف
للحدث ، وبعد مئات الأعوام يقول أحد العلماء المحدثين : « كل الموسيقيين
يعرفون أن النغمات المختلفة تناسب التعبير عن الأحاسيس المختلفة ان تليلا

(١) انظر ، ص ١٥٢ وما بعدها من الجزء الثانى فى الخصائص .

(٢) السيوطى : المزهر ، ج ١ ، ص ٤٨ وما بعدها . والنص المنقول فى ص ٥٣

وان كثيرا ، فهذا السلم اليق من غيره ببساطة القول ، وذلك بالعدوبة الرقراقة اللذيذة ، وذاك بجهد الرجولة الصارم ، وفطرة المؤلف تجعله يختار فى كل حالة النغمة اللائقة « (١) » . وهذه الحقيقة التى تحاول ربط فطرة الانسان بالنغم الذى يؤثره ، تثير شرعية اعمال الذهن على مثل ما أعمله ابن جنى . والقضية التى تتحرك هى العلاقة بين اللفظ وعالم الواقع . فان التسليم بمنحى الجرس الصوتى هو توكيد للتلاحق بين القطبين ، بل انه يوشك أن يعرض فلسفة الاستعارة كلها للرفض . ومنذ بدأ الانسان يستخدم الالفاظ فيما نسميه بالاستخدام الاستعارى وهو شاق مجالات وآفاقا جديدة يقترب بعضها من بعض فيما يسميه البلاغيون المعانى الحسية ، ويميل بعضها الى المجرد وان تكن هناك حقيقة تلف الجميع ، تلك أنه ليس فى قدرة الانسان ادراك مجرد ما لم يستخلصه أولا من أحداث أو تجارب حسية . « الحق أن الصور الحسية تغزو العقل الانسانى ، فالعقل قد يؤدى التفكير مستعينا بالصور الذهنية ، وربما يستقل - تماما - عن صور تصاحبه : هناك بعض المدارس الفلسفية التى تسوى بين الصورة والفكرة ذاتها ، ولكننا دون أن نسلم بهذا الرأى ، نستطيع أن ندعى ، فى أمن ، أن العقل لا يستغنى عن الصور تماما ، وأنه حين يحلق فى اللامادى انما يعلن على أجنحة من الصور . بيان ذلك أن كل معرفة تبدأ من التجربة وأن كل أفكارنا تحاك من الادراكات الحسية . ولا يمكن أن تحاك من أية مادة أخرى . تلك طبيعة العقل التى لا فكاك منها ، وينجم عنها ، بعد قليل من التأمل أخطر المشاكل المتعلقة بالهموم الانسانية الكبرى .

« لا شيء فى العقل لم يدخل بأذى الأمر من سبيل الحواس بوجه ما ، وليست حالاتنا الروحية فى متناول التفكير ، بمعزل عن ذاك الحسى الأسر ، لذلك نعبر عن المجرد فى حدود المجسم ، ونصور غير المؤلف بوساطة المؤلف ، ونعبر عن غير الحسى بحدود حسية . ولكن اللغة تعاقبت الأطوار على كلماتها ، حتى عاد من العسير ، أحيانا ، أن يلتقط الوجه الحسى منها ، وأصبح هذا رهينا بالخبرة بل بالاحساس الشاعرى الدفين » (٢) .

(١) فندريس : اللغة ، ص ٢٣٦

(٢) دكتور مصطفى ناصف : الصورة الأدبية ص ١٢٩

وفي مقابل هذا الرأي المستند الى الاستعمال الحقيقي ، والمنتقل به الى الاستعمال الاستعارى ، يرى نفر آخر من العلماء أن كل اللغة كانت استعمالا مجازيا . قاله أبو اسحاق الاسفراينى - أحد رجال الأصول - « لا مجاز فى لغة العرب » (١) وعمدته فى نفي المجاز أن افتراض وجوده يعنى أن الحقيقة سبقت ، وعنده أن العرب وضعت الحقيقة والمجاز وضعا واحدا ، وهو فى ذلك مستند الى رأيه الذى رأى فيه أن الناس هم الذين وضعوا اللغة بالاصطلاح والمواضع . ومن ثمة تكون مواضعهم قد جعلتهم ينطقون بالحقيقة والمجاز على وجه واحد . « فجعل هذا حقيقة وهذا مجاز ضرب من التحكم » . وما يقوله الاسفراينى يقوله أيضا محدثون : « من الباحثين من يقول : ان كل تعبير ، فيما عدا شيئا قليلا معنفا فى البدائية ، يعتبر استعارة » . وفى هذا ما يؤكد التداخل الوثيق بين المجالين الذى ينتهى الى مشكلة تركيب الذهن الانسانى وطبيعة المعرفة وحدودها ، وليس من الممكن التسليم بأن ما تعيش عليه الانسانية من أفكار واعتقادات انما هو وليد عمليات استعارية لا غير ، اذ لو صح ذلك لكان ما فيه ما يكفى لابطالها ، ولكن يرى كثيرون من الباحثين أن أفكارنا واعتقاداتنا لا تنفصل تماما عن العمليات الاستعارية التى تبدو صنعة العقل العرصى فى ارتياد الواقع وتنظيم التجربة وتمثل المجهود ، وما كان علمنا والفنا له ضئيلا » (٢) .

وسواء أدرك الانسان الدلالة عن طريق الحس أو عن طريق استخلاصها من عصارة تجاربه ، فستبقى فكرة قيادة الجرس للدلالة ، حتى تغزو العقل والقلب ، مما يؤرجح الادراك ، الواعى أو المبهم ، ليعلق بها .

(١) سجله عنه ابن برهان فى كتابه فى الأصول .

انظر الزهر ، ج ١ ، ص ٣٦٤ . وفيه نقض لهذا الرأي ، ولكنه مع ذلك يحمل فلسفة لغوية أصيلة .

(٢) د . مصطفى ناصف : الصورة الأدبية ، ص ١٢٩

٢ - تداخل الحروف لتداخل المعاني

وبفعل النظرة التي أخذ بها المتوسطون في عصور الدراسات اللغوية، والتي كانت تحاول دائما عقد أواصر صلة بين الألفاظ متقاربة المعاني من خلال النظر الى المباني ، يحاول ابن جنى فى باب من أبواب خصائصه يسميه « تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني » أن يتحدث عن التقارب الذى يربط بين الألفاظ حين تتقارب دلالات معانيها . ومن الطريف أن صاحبنا يبدو متحمسا دائما لكل منهج يشقه . فالرجل يملك طاقة عقلية تتفوق على جهود السابقين ، ويحاول بذكائه أن ينفذ الى مناطق لم ينفذوا اليها .

الرجل فى عصر ترف لغوى : انتهى عهد الجمع والتصنيف ، وثقت اللغة واطمأن رجالها لأصالة مادتهم ثم آن لهم أن يتفلسفوا ويكدوا الذهن وراء الجديد . وابن جنى واحد من أبدعهم . وحين يتحدث عن التصاقب بين الألفاظ بفعل تصاقب المعاني يقول : « هذا غور من العربية لا ينتصف منه ، ولا يكاد يحاط به » (١) . الغور بعيد لم تصل جهود السابقين الى أن تستوفى حاجتها منه ، وبعده لا ينتمى لشذوذه أو لغرابته ، وإنما هو لوعورة الطريق اليه رغم « أن أكثر كلام العرب عليه . وإن كان غفلا مسبهوا عنه » (١) . ويسوق لنا « المفتش » عن « الخصائص » كثيرا من الأمثلة لتوكيد نظريته تلك :

١ - ففيما بين الفعل « هز » والفعل « أز » يتقارب اللفظان لتقارب المعنيين ، وتقارب البنيتين ينشأ عن أن الهاء أخت الهمزة . ولكن لما كانت الهمزة أبعد مخرجا من الهاء فان العرب - على رأيه - خصوا المعنى القوي باللفظ القوي ، ولذلك يقول تعالى: « ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين

تؤزّره أزا ، • وتفسيرها أن الشياطين تزعجهم وتقنقهم • وهذا المعنى أقوى
فى النفوس من الهز (١) •

٢ - العسف - والأسف : ولما كان المعنيان يتصاقبان - فان اللفظين
تصاقبا • وكأنه يريد بالعسف السير على غير طريق وهدى ، أما الاسف فانه
أغلظ من ذلك لارتباطه بالنفس ، وهو أشق من الارتباط الحسى • ومن ثمة
خصوه بالهمزة ، فهى أقوى من العين •

واذا كانت النماذج السابقة تكشف عن جهد لتفسير سبب تخصيص
حرف دون حرف ، لمعنى دون معنى ، وفقا للقوة أو للين ، فان نماذج أخرى
لا تقدم سوى تقارب المعنيين الذى أثمر تقارب اللفظين • وفى هذه النماذج
تقر عين ابن جنى حين يكتفى بأن الحرف أخ للحرف • هو المعنى المتقارب اذن
الذى يتحكم فى الألفاظ ، وليس من العسير فهم النظرية فى نطاق الفكر
السائد آنذاك من أن المعانى أشرف من الألفاظ • أو أن الألفاظ خدم للمعانى •
وبذلك يوشك التفكير اللغوى أن يجعل منها أصولا ويحمل الألفاظ عليها
فروعا • ولننظر الى نماذج للضرب :

١ - ح م س ، ح ب س

العرب يقولون : حمس الشر اذا اشتد •

ويقولون : حبست الشيء : اذا منعتة •

والنقاء المعنيين ينشأ من توجيه ابن جنى : « ان الشيثين اذا حبس
أحدهما صاحبه » تمانعا وتعازا (٢) ، فكان ذلك كالشر يقع بينهما •

(١) المصدر السابق ، ص ١٤٦

والفعل (أز) لم يتكرر فى القرآن ، بينما هز : يأتى فى قوله : « وهزى اليك بجذع
النخلة » (مريم آية ٢٥) وفى قوله : « فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت » (الحج آية ٥ ،
وفصلت آية ٢٩) . وقوله : « وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ول مدبرا » (النمل
آية ١٠) • ومن سياق الآيات لا يصعب قبول رأى ابن جنى من أن الهز يكون لما لا يبال له ،
كالجذع وساق الشجرة •

(٢) أى صار كل واحد منهما ذا منعة وعزة أى قوة •

٢ - ع ل ب ، ع ل م

ومنه قالوا : العلب : الاثر الذى يرى
والعلم : الشق فى الشفة العليا
وكان المعنيين هما مجعما اللفظين !
والباء أخت الميم .

٣ - ع ل ز ، ع ل ص

ومنه قالوا : العلز : خفة وطيش وقلق يعرض للانسان
العلوص : وجع فى الجوف يلتوى له الانسان ويقلق منه
• والزاي أخت الصاد •

المضارعة : فى الأمثال السابقة تقع بين حرفين فى كل مثالين • وقد يمكن
تفسير تغير المعنى ، كما أحدث صاحبنا فى النماذج الأولى • أو لا يمكن التفسير
الا من خلال « أخوة » الحروف ، كما فى النماذج الثانية ، ولكن النظر لا يقف
عند مقارنة أصليين اثنين ، بل هو يعرض لأصول ثلاثة :

١ - جبل - جبن - جبر

٢ - ج ر ف - ج ل ف - ج ن ف

ففى المجموعة الأولى يقولون :

الجبل : لشدته وقوته •

الجبن : الاستمساك والتوقف والتجمع • (فالجبن هو اللبن اليابس) •

الجبر : ومنه جبرت العظم ونحوه أى قوته •

وواضح أن المعنى الذى يتصاقب هنا هو : « الالتئام والتماسك » ،
وذلك مما يجعل اللام والنون والراء متصاقبة •

وفي المجموعة الثانية يقولون :

جرفت الشيء : أملتته عما كان عليه .

جلفت القلم : اذا أخذت جلفته أى جرفته عما كان عليه .

وأما الجنف : فهو الميل .

والمعنى الذى هو سبب فى مضارعة الحروف هو : « ميل الشيء عما كان

عليه » .

نوع ثان من المضارعة ينشأ عند صاحبنا بين الكلمتين رغم عدم اتحادهما الا فى أصل واحد ، وكأن المباشرة بينهما تكون فى حرفين . ومع ذلك فهو يرى أن المعنى الذى يحاول استخلاصه من مسافات الاستعمال يحدد وجهها للمضارعة بين اللفظين .

ج ل ف - ج ر م

فالجلف هو القشر^(١) .

وأما الجرم فهو القطع^(٢) .

• والمعنيان متقاربان .

ومثال آخر فى : « سهل » و « سحل » والمعنيان يدلان على التصويب .

• وهما متقاربان .

ولذلك تضارعت الصاد مع السين ، والهاء مع الحاء .

(١) لا يقدم ابن جنى أكثر من ذلك . ولكن لسان العرب فى ج ١١ ، ص ٣٧٤ يحدد الجلف لقشر الجلد مع شيء من اللحم . ولعل ذلك المعنى هو الذى استقر مع اللغة العبادية حين تقول : « جلف الطفل جرحه » .

(٢) وفيها يقول لسان العرب : ج ١٤ ، ص ٣٥٧ : جرم النخل والتمر . بجرم حرما وجراما : قطعه . وما زال الاستعمال أيضا شائعا : جرم النخل أى قطع الزائد من الجريد . وجرم اللحم أى قطعها عن العظم . وقد يسكن البحث عن الصلة بين العربية واللاتينية فى كلمة « جرام » gram التى تفيد « وزنا صغيرا » . ثم صارت وحدة من وحدات الموازين !

وفى متابعة لنظريته يقول : « نعم وتجاوزوا ذلك الى أن ضارعوا بالاصول الثلاثة : الفاء والعين واللام » . وهنا يشعر الواقف أمام محاولات ذلك الرجل الفذ أنه يملك ناصية الاشتقاق اللغوى ، وناصية الغوص وراء المعانى . وهى مهارة عقلية أكثر منها التزام بروح اللغة ومنهجها . ففيمابين :

« عصر الشيء » و « أزل الشيء » مضارعة فى الحروف لتضارع المعنيين ، ذلك أن عصر الشيء ضرب من الحبس ، وأزل الشيء بمعنى حبس الشيء .

وعنده أن العين أخت الهمزة ، والصاد أخت الزاى والراء أخت اللام .
والصلة بين المعنيين هى المولدة لصلة الألفاظ !

ومنه أيضا :

سلب الشيء : اذا صرف عن وجهه

صرف الشيء : اذا غير عن وجهه .

والمقابلة بين أصوات الأصل الأول والأصل الثانى حادثة عن تقارب المعنيين .

ونفس المقياس يضعه مع :

غدر وختل (١) ، وزأر وسعل (٢)

عدن وأطر (٣) ، قفز وكبس (٤)

سهل وزأر (٥) ، جعد وشحط (٦)

(١) الغدر قريب المعنى من الختل : لأن العين أخت الغاء ، والداى أخت التاء ، والراء أخت اللام .

(٢) وتقارب المعنى من دلاليتهما على التصويت ومقابلة الحروف مطردة

(٣) والمعنى المتقارب هو « الاقامة والتلبث » .

(٤) والصلة بين المعنيين ن القفز اذا استقر على الارض كبسها .

(٥) اصدار الصوت هو الصلة بين المعنيين .

(٦) الصلة تأتى من ن الشيء ، اذا تجعد وتقبط عن غيره فكانه شحط وبعد عن غيره .

سيف وصوب (١) ، جاع وشاء (٢)

وعنده أن المعنيين فى كل زوج متقاربان ، ومن ثم أصبح اللفظان

متراسلين .

هذه أمثلة توضح النظرية التى نستخلصها من لمحات فيلسوفنا اللغوى ، وروح النظرية يعتمد على القدرة التى أخذها صاحبنا من فلسفة الاشتقاق . فقد رأى فريقا من قدماء اللغويين يذهبون الى أن بعض الكلام مشتق ، وبعضه غير مشتق ، وكأنى به يريد أن يعمم الاشتقاق ، فلا يتوقف به مع أخذ صيغة من أخرى مع اتفاقهما معنى ومادة أصلية ، بل يريده اشتقاقا للمعاني المتقاربة وما تستحدثه الظاهرة من تقارب الألفاظ .

والذى لا شك فيه أن المنهج ، ولو أن به الذكاء والمهارة والمعرفة خطير بالنسبة لبناء اللغة . ذلك أنه يميع الفروق بين المعانى ، فلو أخذنا أى زوج من تلك الأزواج المتقاربة وأذبنا تخصيص الدلالة كما يريد صاحبنا ، لأوشكت المعانى أن تنبهم . فهل يمكن أن تستقيم مساقات حين نزع أن : « قفز » تتضارع مع « كبس » لأن القفز هو كبس للأرض !! وهل يمكن أن تتشابه مشيئة الطعام الصادرة عن الجوع مع آلاف المشيئات التى تعتمل فى النفس انها صنعة أرادها ابن جنى : « وهذا النحو من الصنعة موجود فى أكثر الكلام وفرش اللغة ، وانما بقى من يثيره ويبحث عن مكنونه ، بل من اذا أوضح له وكشفت عنده حقيقته طاع طبعه لها فوعاها وتقبلها . وهيهات

(١) الصلة تأتى من قول العرب : سيف رسوب أى يرسب فى الغريبة لعدته ومضانه

ومن قولهم : صاب يصوب اذا انحدر . وذلك هو التشابه .

(٢) قالوا : جاع يجوع أو شاء يشاء ، والجائع هو الذى يريد الطعام . والارادة مشيئته .

وفى كل الاصول السابقة يقابل ابن جنى بين كل اصلين مع الترتيب الوارد فى

الاصول اصوات فى دولاب واحد .

ذلك مطلبنا . وعز فيهم مذهبنا ! وقد قال أبو بكر (السراج) : من عرف ألف . وعن جهل استوحش ، (١) .

واذا كان من الحق أن الصنعة هنا تعمل في عالم أسدل التاريخ عليه ستائر كثيفة ، فمن يدري . لعل مثل هذه الاقباس المتناثرة تحدث - ذات يوم - شعاعا مستمرا . ثم لعله أخيرا يصل الى تصور لغوى عن العضلة الكبيرة ، عضلة نشأة اللغة .

٣ - المعانى المتلاقية

إذا كانت بعض خصائص اللغة العربية توضح أن تقارب المعانى يصدر بالألفاظ الى نوع من المضاربة سياتى فى ذلك ما يحيط ببعض أجزاء من المبانى اللفظية أو فى المبنى كله ، فان خصائص أخرى تبرز حين نرى ، أن شرف هذه اللغة يصل الى أن تجد للمعنى الواحد أسماء كثيرة ، فتبحث عن أصل كل اسم منها ، فتجده مفضى المعنى الى معنى صاحبه « (١) » . وهذه النظرة التى يركز بها الضوء على المعانى يفرد لها : « باب فى تلاقى المعانى على اختلاف الأصول والمبانى » . وهو لا يستهدف علاج ما تعارف أصحاب الاشتقاق الصغير على حده بالترادفات ، فذاك شئ آخر ، وإن كان خلط واسع يبدو بين السياقين (٢) .

الاطار الذى يعقده ابن جنى لمعانيه الثلاثة يلتزم بوزن صرفى محدد ثم يسعى لجذب المعانى المتواردة من أصول متخالفة . مثال ذلك ما يأتى على وزن فعيلة ، فجميع موادها تصل الى افادة معنى عام ، وهى : « تؤذن بالآب والملاينة والاصحاب والمتابعة » (٣) . وتطبيق ذلك :

١ - الخليفة : هى « فعيلة » من الخلق والخلق .

وقولهم خلق الانسان من خلقت الشئ ، أى ملسته ، وهو ما قدر له ورتب عليه . فكأنه أمر قد استقر وزال عنه الشك ومنه أيضا قولهم : صخرة خلقاء للملساء .

(١) الخصائص : ج ٢ . ص ١١٣ . ومن الصفحات التالية سيكون أخذ هذه النغمة .

(٢) فى كتاب الدكتور ابراهيم أسس عن « دلالة الألفاظ » فصل يعالج فيه صراع علماء

العرب حول دلالة اللفظ . فانظروا .

(٣) الخصائص : ج ٢ . ص ١١٦

٢ - الغريزة : وهى فعيلة من « غرزت » .

ومنه تغريزهم الدرهم بالآلة التى تثبت عليه الصورة .

٣ - الطبيعة : وهى قريبة من الغريزة .

لأنها تشبه طبع الدرهم ورسمه . ليصير الوضع الجديد

كالطبع له .

٤ - السجية : هى فعيلة من سجا يسجو ، اذا سكن .

والسجية خلق الانسان الذى يسكن اليه ويستقر عليه .

٥ - الطريقة : فعيلة من طرقت الشئ أى وطأته .

وكان الطريقة فيها الاستقرار على طبيعة .

٦ - الضريبة : فعيلة من ضرب .

ذلك لان الطبع لا بد معه من الضرب لتثبت له الصورة

المرادة .

٧ - النخيزة : من نحزت الشئ أى دققته .

ويسمون الهاوون المنجاز لانه موضوع للدفع به والاعتقاد

على المدقوق .

٨ - النحيطة : من نحت الشئ ملسته .

والنحيطة كالحليقة ، لأنها من نحت الشئ أى قررته على

ما أردته .

٩ - السجيحة : فعيلة من سجع .

وقولهم سجع خلق الرجل أى قر واطمان وتذلل .

١٠- السليقة : والسليق ما تحت من صغار الشجر .

وقولهم فلان يقرأ بالسليقة أى بالطبيعة .

هذه بعض صيغ اختارها من نموذجها . وهو يدرك أن بعضها بتقارب يفعل الجهد والرياضة والتهذيب والاعتماد أى القصد ، ومن تلك : طرقت الشيء وغرزته ونحته . . ومن الأصول أيضا ما يجمعه الالف والملاينة مثل : الخليقة والسجية والطبيعة . . ومنها ما يجمعه التمرين على الشيء ، وتليين القوى ليصحب وينجذب .

مثال آخر :

صبى وصبية ، وطفل وطفلة ، وغلام وجارية .

الصبى : من صبوت الى الشيء اذا ملت اليه .

الطفل : من طفلت الشمس للغروب أى مالت اليه (١) .

الغلام : من الغلطة وهى اللين وضعفة العصمة .

الجارية : من جرى الماء ، أى لينة ، ضعيفة العصمة .

أصول مختلفة يجمعها المعنى العام وهو (الانجذاب وترك الشدة والاعتياص) . وأحسب أن الاعتمال والتحويل لا يركبان الا مركبة القائم على المعرفة والجهد المحاول ضم الشتيت .

وكما يصنع فى مثل تلك الأصول المختلفة فانه يحاول أن يرد الألفاظ التى تبدو غير منتسبة الى أصول تشتق منها ، يحاول أن يردها الى أصول حسية وكأنه يرى أن كل الأسماء مرتدة الى « أحداث » . ولناخذ من أمثلته :

(١) فى السياق بقول ابن جنى غلام رطل . وجارية رطلة للينة .

رطل شعره أى طاله فاسترخى .

ومنه الرطل الذى يوزن به لأن الفرص فى الأوزان تميل أندا الى أن « تذهب » الأوزان

به . فتعجب .

١ - الفضة : سميت بذلك لانفضاض أجزائها وتفرقها في تراب معدنها .

٢ - اللجين : وهى الفضة وسميت بذلك لانها ما دامت فى تراب معدنها .
فهى ملتزمة فى التراب ، متلجنة به .

٣ - الذهب : سمي بذلك لأنه كالذهب ، وهذا لأن ما فيه من تراب
كالمستهلك له (١) .

أو لأنه قل فى الدنيا فكأنه مفقود ذاهب . وحين يكون
ذاهبا فى ترابه يسمونه « تبرا » وهى (فعل) من التبار .
ولا يسمى تبرا الا اذا كان فى تراب معدنه أو مكسورا .
فاذا صفوه من ترابه قالوا له :

الخلاص : وهى فعال من تخلص .

والابريز : من برز يبرز ، أى ظهر .

والعقيان : من عقى الصبى يعقى ، وهو أول براز يخرج
الصبى عند سقوطه من بطن أمه قبل أن يأكل .

٤ - الدم : من الدمية لفظا ومعنى .

وذلك أن الدمية انما هى للعين والبصر . واذا شوهدت
الدمية فكان ما هى صورته مشاهد بها ، وغير غائب مع
حضورها ، فهى تصف حال ما بعد عنك .

الدم من الدمية : لأن الرمية اذا غابت عن الرامى استدل
عليها بدمها فاتبعه حتى يؤديه اليها . ويؤكد ذلك أنهم
يسمون الدم : البصيرة ، لأن الدم اذا أبصر أدى الى المرمى

(١) يريد بذلك ان قلة هذا الجوهر فى ترابه تجعله كاستراتك الذى يصعب الوصول

الجريح • وكذلك يسمون الدم : الجدية • لان رؤسهم بجدي
على الطالب للرمية •

٥ - الناقة :- من قولهم تنوقت فى الشيء : اذا احكمته وخبرته • رهى
« فعلة » واجود اللغتين نانقت (أى أنها أجود من تنوقت)
وذلك أن الناقة كانت عند العرب مما يتحسنون به
ويتباهون بملكه •

٦ - الجمـل : وهو فعل من الجمال • ومنه قوله تعالى : « ولكم فيها
جمال حين تريحون وحين ترحون » •

٨ - المسك : « فعل » من أمسكت الشيء • كأنه لطيب رائحته يمسك
الحاسة عليه •

٩ - الصوار : من صار يصور : اذا عطفه وثناء • ومنه قوله تعالى :
« فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك » •

وهم يسمون قطعة المسك « صوار » لأنها تجذب حاسة من
يشمها وتمسكها •

ومنه تسميتهم للجلد « مسك » (فعل) لانه لولاه لم
يتماسك ما فى الجسم من اللحم والشحم والدم وبقيـة
الأمشاج •

تيار ينفرد به صاحبنا ، ولعله أقوى من أن يلعبه فى سفينه او تحت
شراعه • وعلماء عصره لا يرون رؤيته : « وأهل اللغة يسمعون هذا فيرونها
ساذجا غفلا • ولا يحسنون لما نحن فيه من حديثه : فرعا ولا أصلا » (١) • ولم
يفت فى عضده تجاهل علماء زمانه ، ولم يوهن من عزيمته ذلك التشكيك

لانه يؤمن بأن « التأتى والتلطف فى جميع هذه الأشياء وضمها وملاءمة ذات بينها هو خاص اللغة وسرها ، وطلاوتها الرائقة وجوهرها . فأما حفظها ساذجة وقمشها محطوبة هرجه ، فنعوذ بالله منه ونرغب بما آتانا الله عنه » (١) . تلك فقرة توضح فلسفة ابن جنى ، وهو دائب السعى لكشف خاص اللغة وسرها . وهو نافر من استخدامها دون تمعن . وعنده أن اللغة مع علمائها غيرها مع مستخدميهها . « هذا ونحوه من خصائص هذه اللغة الشريفة اللطيفة ، وانما يسمع الناس هذه الألفاظ فتكون الفائدة عندهم انما هى علم معنياتها . فأما كيف ؟ ومن أين ؟ فهو ما نحن عليه . واحج به أن يكون عند كثير منهم نيفا (فضلا وزيادة) لا يحتاج اليه ، فضلا غيره أولى منه » (٢) .

البحث عن فقه اللغة يحتاج النظر الى غير الوظيفة المباشرة منها . يحتاج الى الغوص والتفتيش : « وهذا مذهب فى هذه اللغة طريف ، غريب لطيف ، وهو فقهها وجامع معانيها ، وضام نشرها (ما تفرق منها) وقد هممت غير دفعة أن أنشئ فى ذلك كتابا أتقصى فيه أكثرها ، والوقت يضيق دونه ، ولعله لو خرج لما أقنعه ألف ورقة الا على اختصار وإياء . وكان أبو على الفارسى رحمة الله يستحسن هذا الموضوع جدا ، وينبه عليه ، ويسر بما يحضره خاطره منه » (٣) .

هو اذن فقه لغة ود ابن جنى أن يفرد له كتابا ، يجمع فيه ما تفرق من أسرار الارتباط المعنوى . وهو لا يسعى اليه من خلال فكرة الاشتقاق ، فذلك ضرب آخر : « هذا باب انما يجمع بين بعضه وبعض من طريق المعانى مجردة من الألفاظ . وليس كالاشتقاق الذى هو من لفظ واحد ، فكأن بعضه منبهة على بعض . وهذا انما يعتنق فيه الفكر المعانى غير منبهة عليها الألفاظ . فهو

(١) المرجع السابق . ص ١٢٥

(٢) المرجع السابق . ص ١٢١

(٣) المصدر السابق . ج ٢ . ص ١٣٣

أشرف الصغتين وأعلى الماحدين . فتعطر له . وإن لجمعه . فانه يوهك ودهم .
عليك ويبسط ما تجعد من خاطرك « (١) » .

وفى خلاصة ابن جنى تبرز حقيقتان . أما الأولى فهي أن منهجه
لا يتعلق بالاشتقاق . وليس ذلك لعزوفه عن الانخراط في أبحاث الاشتقاق ،
الذى يراه « أخذ لفظ من لفظ » ، ويراه غيره « دراسة المفردات » . وأخذ
الفاظ القاموس كلمة كلمة ، وتزويد كل واحدة منها بما يشبه أن يكون .
بطاقة شخصية ، يذكر فيها من أين جاءت ، ومتى ، وكيف صنعت ،
والتقلبات التي مرت بها .

هو اذن علم تاريخي يحدد صيغة كل كلمة في أقدم عصر تسمح
المعلومات التاريخية بالوصول اليه . ويدرس الطريق الذي مرت به الكلمة
مع التغيرات التي أصابتها من جهة المعنى أو من جهة الاستعمال « (٢) » .
والاشتقاق سواء كما يعبر عنه سنفنا أو كما يعبر عنه المحدث ، هو في
أساسه دراسة تاريخية تتبع علاقات الصيغ وأنماطها وأقيستها .

والحقيقة الثانية التي يريدما صاحب الخصائص هي ترابط المعاني
مجردة من الألفاظ . ثم من خلال المعاني يشرع في البحث عن الألفاظ
المنبئة بعضها على بعض . والفكرة التي يعرضها في السياق تبدو غريبة على
منهج فقه اللغة ، فلا عهد لها بمعان مستقلة عن مباني صيغها . ومن ثمة
يصبح البحث عن تقارب المعاني كشيء أسبق من تقارب الألفاظ ، بمثابة
البحث عن الماء قبل أن نعثر على البئر . ولذلك كثيرا ما نشعر بتعسف حاد
حين يسعى الرجل الى ربط المعاني ثم يسعى لتقييد أصولها .

(١) المصدر السابق

(٢) فندريس اللغة ص ٢٢٦

اللغة أخطر من ذلك والعقل البشرى لا يقنع بالبحث عن شبهات
تراءى بين « غرز » و « طبع » أو بين « الناقة » و « الجمل » وما إليها ، انه
يريد « الحد » فاصلا ، حتى لا تضيق معالم الألفاظ فتنبهم الحياة ذاتها .
ذلك هو منطقنا بعد أن مرت ملايين السنين ، ولكن أيمكن أن يكون
« الانبهاة » صادرا عن مراحل سابقة ، ما عدنا نمتلك عنها وثائق وحدودا .
وخضعت - اللغة - فى ذلك العمر الطويل لعمليات متتالية من التقسيم
والتخصيص !!

٤ - الاشتقاق الأكبر

هو أيضا من الدروب التى سلكها التفكير اللغوى على يد أبى الفتح عثمان بن جنى ، وهو يفرقه عن الاشتقاق الاصغر الذى هو فى أيدي الناس وكبتهم ، وفيه يأخذون أصلا من الأصول ويتقرونها ، ويجمعهم المعنى وان اختلفت الصيغ والمباني (١) . أما الاشتقاق الأكبر - موطن فخرة - فهو « أن تأخذ أصلا من الأصول الثلاثية ، فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحدا ، تجتمع التراكيب الستة ، وما يتصرف من كل واحد منها عليه » (٢) . وشق طريق الاشتقاق الأكبر هو موضع فخار لابن جنى . وإذا كان أستاذة أبو على الفارسى قد ركن الى شىء من الدرب ، فلقد كان ذلك ديدنه حين يعوزه السعى فى نطاق الاشتقاق الاصغر . أما التمييز فيقول : « هذا موضع لم يسمه أحد من أصحابنا . وانما هذا التلقيب - بالاشتقاق الأكبر - لنا نحن . وستراه فتعلم أنه لقب مستحسن » (٣) .

ومع ذلك فلا بد من تصور بدايات المنهج مع ما فعله الحليل بن أحمد حين سعى الى وضع معجمه « العين » . فلقد ارتكز على تقليات المواد اللغوية . ثم مع ما صنعه ابن دريد فى « الجهرة » حين أمسك بالمادة وقلبها ليعطى معنى كل صيغة . ولو أخذنا - على سبيل المثال - مادة « جبر » لوجدناه يعرض الآتى : (٣)

(١) يضرب مثلا على ذلك . تركيب « سلم » فكل تصرفه يعطى معنى السلامة : سلم - يسلم - سالم - سامان - سلمى - السلامة والسليم . وحين تطلق هذه الأخيرة على اللدبغ فهو من باب التفاؤل بالسلامة . (انظر ص ١٣٤ . الجزء الثانى من الخصائص) .

(٢) المصدر السابق . ص ١٢٣ وما فيها . حيث سئل منها ما يبين منهج صاحبها .

(٣) ابن دريد : الجهرة . ج ١ . ص ٢٠٧ . ونحن نعرض هنا لجزء للمعاني والشواهد التى يذكرها .

١ - جبر : منه جبور العظم ، والجبارة هى الحشب الذى يشد على العضو المكسور . وأجبرت الرجل على كذا فهو مجبر . والجبر : الملك . والجبار : للنخل الذى فات اليد .

٢ - برج : البرج من بروج الحصن أو القصر . وهو عربى معروف . أما البرج من بروج السماء ، فلم تعرفه العرب إنما كانت تعرف منازل القمر . والبرج هو نقاء بياض العين وصفاء سوادها . وتبرجت المرأة أظهرت محاسنها .

٣ - جرب : ومنه الجرب . وهو الداء المعروف . والجربة : القراح . والجرباء هى السماء . والجربة للأقوياء من الناس اذا اجتمعوا . والتجارب منها الرجل المجرب . والجرباء هى ريح الشمال . وجراب السيف قرابه .

٤ - رجب : رجب الرجل بمعنى اكرامه وتعظيمه . والشهر سمي « رجب » لتعظيمهم اياه . والنخلة اذا مالت وكرمت على أهلها تسند بالرجبة ، وهى مرجبة . وفصوص الأصابع تسمى رواجب ، ومفردتها راجبة .

٥ - بجر : ومنه البحر أو البجرة (باء مفتوحة) أو البجرة (باء مضمومة) : وهى السرة اذا نتأت . هذا أمر يجرى : عظيم . والجمع البجرى وهو الدواهى العظام .

٦ - ريج : الرجل الرباجى : هو الذى يفخر بأكثر من فعله .

لم يحاول صاحب الجهرة أن يستخلص آية دلالة عامة تحبس هذه الصيغ المختلفة ، لأنه ينتسب الى عصر جمع أكثر من انتسابه لعصر تفلسف وبحث عن أسرار اللغة وفقهها .

وحين جاء عصر ابن جنى سعى صاحبنا لجمع نفس الصيغ تحت اسرار واحد : ان « تقليب (جبر) - أين وقعت - هى للقوة والشدة » .

١ - جبر : جبرت العظم والفقير اذا قويتها وشددت منهما . الجبر : الملك لقوته وتقويته لغيره .

٢ - جرب : رجل مجرب اذا امتحنته الأمور فقويت منته واشهدت
شكيمته . الجراب : لانه يحفظ ما فيه واذا حفظ الشيء اشهد
وقوى .

٣ - بجر : الابجر والبجرة : وهو القوى السرة . وتناويله أن السرة
غلظت وتئات فاشتد مسها وأمرها .

٤ - برج : البرج لنقاء العين وصفاء سوادها ، هو قوة أمرها وهو ليس
بلون مستضعف .

٥ - رجب : رجت الرجل اذا عظمته وقويت أمره . ومنه « رجب »
لتعظيمهم اياه عن القتال فيه .

الرجبة : شيء تسند اليه النخلة لتقوى به .

الراجبة : أحد فصوص الأصابع وهي مقوية لها .

٦ - ريج : الرباجي : الرجل يفخر بأكثر من فعله ، وتناويله انه يعظم
نفسه .

مثال آخر يسوقه ، وجميع تقلباته تفيد « القوة والاجتماع » . انها
نراكيب « قسو » (١) .

٧ - قسو : القسوة شدة القلب واجتماعه .

٢ - قوس : القوس لشدتها واجتماع طرفيها .

٣ - وقس : الوقس لابتداء الجرب ، وذلك لانه يجمع الجلد ويجعله قحلا
يابسا .

- ٤ - وسق : أتوسق للحمل ، وذلك لاجتماعه وشدة . ومنه « والليل .
وما وسق » أى جمع .
- ٥ - سوق : السوق ، وذلك لأنه استحثاث وجمع للمسوق بعضه الى
بعض .
- ٦ - سقر : « أصل مهمل » .
- وينفس المنهج يقرب ابن جنى مادة « سلم » فيراها تقييد « الاصحاب
والملائية » . وأوجز مناحيها فيما يأتى :
- ١ - سمل : الثوب السمل : أى الخلق ، فاذا مرت اليد عليه لم تستوقفها
جدة المنسج ولا خشنة الملمس .
- ٢ - سلم : السليم الذى ليس فيه عيب تقف النفس عليه .
- ٣ - ملس : الأملس والملساء . وذلك لأنه لا اعتراض على الناظر فيه
والتصفح له .
- ٤ - مسل : المسل كالسيل ، وذلك أن الماء لا يجرى الا فى مذهب له .
فلو صادف حاجزا لاعتاقه .
- ٥ - لمس : اللمس لأنه اذا عارض اليد شيء حائل بينها وبين الملموس لم
يصح هناك لمس .
- ٦ - لسم : صيغة مهملة . ولكنه يرى أن العرب يقولون : نسمت الريح :
اذا مرت سهلا ضعيفا . والنون أخت اللام .
- وأما تقلبات « قول » فتتجمع حول « الخفوف والحركة » (١) .

١ - قول : القول لان الفم واللسان يخفان له ويقلقان به .

وهو بضد السكوت الذى هو داعية السكون .

٢ - قلو : القلو حمار الوحش . وسمى بذلك لحفته واسرعه . ومعناه
قلوت السويق ، لان الشئ اذا قلى حف كان أسرع الى
الحركة .

٣ - وقل : الوقل هو الوعل وبه خفة الحركة .

٤ - ولق : ولق يلق اذا أسرع .

٥ - لوق : لوق الطعام أى خدمه وأعملت اليد فى تحريكه وتلييقه حتى
يطمئن وتنضام جهاته .

اللوق : الزبدة ، وذلك لحفتها واسراع حركتها ، وأنها ليست
لها مسكة الجبن .

٦ - لقو : اللقوة : العقاب . وذلك لحفتها وسرعة طيرانها .
اللقوة : الناقة السريعة اللقاح . وذلك أنها أسرع فى ماء
النحل فقبلته .

وأما « كلم » فانها حيث تقلبت فمعناها الدلالة على القوة والشدة (١) .

٦١ - كللم : منه الكلم للجرح . وذلك للشدة فيه .

الكلام : ما غلظ من الأرض (بضم الكاف) .

الكلام : الجراح (بكسر الكاف) .

الكلام : سمي بذلك لأنه سبب لكل شر وشدة فى أكثر
الأمور .

٦٢ - كمل : كمل الشئ اذا تم ، وهو حينئذ أقوى وأشد منه اذا كان
ناقصا غير كامل .

٣ - لك : اللكم اذا وجأت الرجل .

٤ - مكل : يثر مكول اذا قل ماؤها ، وعند كره موردها وجفا جانبها وتلك شدة ظاهرة .

٥ - ملك : ملك العجين ، اذا أنعمت عجنه ، فاشتد وقوى . ملك : الانسان ما اشتملت عليه اليد . وذلك قوة وقدرة من المالك .

٦ - لمك : مهمل ولم يأت في ثبت (١) .

تلك قدرة نادرة يمتلكها ابن جنى سواء في تملكه للاحية التحليل ورد التقلبات الى معانيها أم في تملكه لزمام التركيب الذي يرد فيه هذه المحلات الى أطر عامة . وهو يدرك صعوبة الدرب ويقرر أن « الطرائق التي نحن فيها ، حزنة المذاهب ، والتورود لها وعز المسلك ، ولا يجب مع هذا أن تستنكر ولا تستبعد » (٢) . واذا كان قد ترسم بعض خطى شيخه أبي على الفارسي فانه قد تخطى الحدود التي وقف عندها صاحبه . وأصبح رأس اتجاه يتيه به على معاصريه . لقد استسرف الناس صنيع أبي اسحاق الزجاج حين طرد الاشتقاق الصغير « وفيما تجشسه من قوة حشدة ، وضحه شعاع ما انتشر من المثل المتباينة الى أصله » (٣) . ان كل ذلك لم يكن في سبيل الاشتقاق الكبير ، وهو تقليب الأصل ، ووضع كل واحد في أحنائه (تصاريفه) موضع صاحبه ، فذلك شيء لم يعرض له ولا تضمن عهده . الرجل عارف بصعوبة المذهب وحروته . ولذلك يتصح كل من عمل في اللغة أن يركن الى لطف الصنعة وجهد التأويل حتى يستقيم له الأمر : « على أنك اذا أنعمت النظر ولا طفته وتركت الضجر وتحاميته لم تكذ تعمد قرب بعض من بعض » .

(١) من واقع هذه الأصول حاول ابن جنى التفرقة بين معنى « القول » ومعنى « الكلام » . لأن تقلبات الأولى تفيد الخوف والحركة . فكلمة « القول » تطلق على كل لفظ مذل به اللسان تاما كن أو ناقصا . ولأن تقلبات الثانية تفيد القوة والشدة فاصبحت لفظ « الكلام » تطلق على كل لفظ مستقل بقاته . وهو الذي يسميه النحويون الجمل . انظر متعلق الجدل في ص ١٧ - ٣٣ من الجزء الأول - الخصائص .

(٢) الخصائص : ج ١ . ص ١١ - ١٢ .

وإذا تأملت ذاك وجدته باذن الله « (١) . وليس من العسير القول ان صنيع ابن جنى فى اشتقاقه الكبير يعد ثمرة من أنضج ثمار ذلك العصر . فيه جهد اللغويين وعلماء الصرف والنحاة ، ثم فيه بذور ما تسعى مناهج حديثة للوصول اليه حين تريد أن تجد آثار الصوتيات Phonotics فى تحديد مسار الانفعال النفسى داخل العمل الأدبى عامة والشعرى خاصة ، والتخصيص وليد اعتماد فن النظم على الطاقة الموسيقية أو التلاؤم الصوتى . ولعل ذلك الاحساس بجهد عالمنا الكبير هو ما دفع آدم متز ليقرر : « ان لغوى العرب لم يعرفوا انتاجا أعظم من الاشتقاق الكبير » (٢) .

وإذا كان ذلك الجهد يمثل شعاعا واضحا وسط الجهود اللغوية ، فإن صاحبه كان يدرك أنه لا ينتظم كل اللغة . ولقد كانت قضية الاشتقاق عامة مما شغل القياسيين ، ووضع المتأخرون التغييرات التى تحدث بين الأصل المشتق منه والفرع المشتق عنه (٣) ، كما حددوا الوجوه التى ترجع أصل الاشتقاق اذا ترددت الكلمة بين أصليين (٤) . ولكن الاشتقاق الذى استنه ابن جنى أو لنقل بدقة الذى بعجه بعد أن راوده أبو على الفارسي (٥) كان فى حاجة منه لمعرفة العالم الصرفى ، ومعرفة العالم البيانى : « أعلم أنا لا ندعى أن هذا مستمر فى جميع اللغة ، كما لا ندعى للاشتقاق الأصغر أنه فى جميع اللغة . بل اذا كان ذلك الذى هو فى القسمة سدس هذا أو خمسه متعذرا صعبا ، كان تطبيق هذا واحاطته أصعب مذهبا وأعز ملتصبا . بل لو صح من هذا النحو وهذه الصنعة المادة الواحدة تتقلب على ضروب التقلب كان غريبا معجبا . فكيف به وهو يكاد يساوق الاشتقاق الأصغر ، ويجاريه الى المدى الأبعد » (٦) .

(١) نفسه : ج ١ ، ص ١٣

(٢) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع ، ج ١ ، ص ٣٣

(٣) السيوطى يجعلها خمسة عشر نوعا تتراوح بين زيادات حركات ومواد أو نقصانها .

انظر المزهى ، ج ١ ، ص ٣٤٨

(٤) نفسه ، ويحددها فى تسعة أنواع : انظر ص ٣٤٩ ، ٣٥٠

(٥) انظر مثلا الجزء الأول ص ١١ ، والجزء الثانى ص ١٣٨ من الخصائص حيث يقرر

ابن جنى أخذه بالبدايات عن أستاذه .

(٦) الخصائص : ج ٢ ، ص ١٣٨ و ١٣٩

هذا النوع من الاشتقاق اذن ، لا يتخلف عن صنوه الصغير . وهو محاولة من صاحبه لرد التقلبات المختلفة للمادة الى دلالة مجمعة لها ، وهو أيضا محاولة لكشف ارتباط الصيغة بالبنية . واذا كان ربط التقلبات المختلفة بعضها ببعض مما ينشر الحذر فى العقل والنفس . فان صاحبنا ساق الأمثلة الموضحة للمنهج ، والمذكىة للمعانى التفصيلية التى يستشهد بها . وعامة الأمر فى دراسات فقه اللغة أنها ليست افتراضات توضع أو تثار ، ولكنها استقراء ، يقبل به صاحبه على اللغة فى وجودها ، ويستقرئ من خلالها ظواهرها وجوهرها . وصنيع مؤلف الخصائص محاولة من ذاك .

ولولا ما نشعر به من شدة توتر الحيط الحابس لهذه التقلبات فى حومة الدلالة ، لاستطاع الاشتقاق الأكبر أن يمكن معرفتنا اللغوية من احدى الذرى السامقة ، لكن ما خضع له ابن جنى من اصرار على شق الطريق مهما بدت العراقيل ، ومن اظهار قدرته الفائقة ، قد صد تحيره عن الطريق . وللإمام السيوطى تعليق يجمع فيه اعتراضين أساسيين :

أولهما : يتعلق بفقه اللغة أو بفلسفتها : « سبب إهمال العرب وعدم التفات المتقدمين الى معانيه أن الحروف قليلة . وأنواع المعانى المتفاهمة لا تكاد تنتهى ، فخصوا كل تركيب بنوع منها ، ليفيدوا بالتراكيب والهيئات . أنواعا كثيرة ، ولو اقتصروا على تغاير المواد حتى لا يدلوا على معنى الاكرام والتعظيم الا بما ليس فيه من حروف الايلام والضرب ، لمنافاتهما لها ، لضاق الأمر جدا ، ولاحتاجوا الى ألوف حروف لا يجدونها ، بل فرقوا بين معتق ومعتق (بكسر العين وبفتحها) بحركة واحدة حصل بها تمييز بين ضدين » (١) . هو دفاع عن الاشتقاق الصغير ، فالمنطق اللغوى قد ألفه . والذي ربما يكون قد فات السيوطى ان كل صيغ تنتسب الى التصاريف الاشتقاقية لا ترفض من أية صورة من تقلبات المادة . ولعلنا هنا أمام القانون الصوتى العام الذى تسعى به اللغة الى ربط تطورها بماضيها ، حين

تشتق من كل جديد ، ولولا القهر الفكرى والاجتماعى لتشبنت اللغة بكل ما تركه السلف ولاعتاص الأمر عند السير الى الامام .

ثانيهما : وهو يمس المنهج الذى يأخذ به الاشتقاق الأكبر . ذلك « ان اعتبار المادة دون هيئة التركيب من فساد اللغة ما بينت لك » (١) . الخوف اذن هو أن تضعيع الدلالات المترتبة على هيئات التراكيب المختلفة ، أما أن ترتبط المعانى بالمادة الواحدة فذلك ضياع لفروق المعانى وازهاق التفرق الدلالى .

هذان اعتراضان جوهريان يرتطم بهما ما فعله رائد الاشتقاق الأكبر ، ولعلهما لم يتحركا الا عندما بدت أنواع من التعسفات ، بل وفرض نوع من الارهاب على الدلالات المتباينة كى تستكين الى حظيرة عامة يشوبها الغموض وعدم التحديد . فدلالات مثل « الشدة والقسوة » أو « الاصحاب والملاينة » أو « الخوف والحركة » تكاد تنبهم حدودها ، ولا تقف حدودها عند شواطئ دالات معينة . فما أكثر المواد التى تنخرط تحت « الاصحاب » أو « الشدة » أو « الحركة » . ولعلنا لا نبتعد هنا عما قاله « ميه » عن هذه الأبحاث « انها من بين كافة أبحاث علم اللسان أدقها ، وأقلها يقينا . ومن ثم كثر فيها عبث الهواة » (٢) .

وأيا ما كان من الصعوبة ، فهذا منهج تحليلى عمق ابن جنى دربه ، أنفق الرجل جهده لتقر تأملاته . وهو حين يعلل لأرائه لا يلتزم الجدل المنطقى أو الافتراضات الميتافيزيقية ، انه مرتكن الى الحس اللغوى ، سواء ما تعلق منه بجرس الحروف مستقلا ، أو بمضارعة الحروف بعضها بعضا ، أو لحوم الصيغ المتقاربة حول محور دلالى جاذب . ان ذلك الجهد التحليلى ، أو المنهج التطبيقى مما لا يزال علم الدلالة "Sémantique" يجرى تحت ريعه . ومازال به أمل كبير ليقدم لفقه اللغة فرصة رائعة لفك أسرار اللغة

(١) المصدر السابق

(٢) منهج البحث فى الأدب واللغة . ترجمة الدتور محمد مندور . ص ١٠٨ .

وتراكيبها . وحتى الذين اعترضوا لم يرفضوا « أن يكون بين التراكيب المتحدة المادة معنى مشترك بينها ، هو جنس لأنواع موضوعاتها » (١) . ان المنطلق الذى تحركت منه فلسفة الاشتقاق الأكبر هو خليط من الحس النقدي مع الحس اللغوى ، ويروى صاحبه الخبر التالى (٢) : « قلت مرة للمتنبى : أراك تستعمل فى شعرك ذا ، وتا ، وثا ، وذى كثيرا . ففكر شيئا ثم قال : ان هذا الشعر لم يعمل كله فى وقت واحد . فقلت له : أجل ، لكن المادة واحدة . فأمسك البتة . والشئ يذكر لنظيره » (٣) . ثم يصيف ابن جنى خلاصة أومنها بأنها ترجمان فلسفته وحافزه : « ان المعانى وان اختلفت معانياتها آوية الى مضجع غير مقض ، وأخذ بعضها برقاب بعض » (٣) .

ومع كل التأنى الذى ننظر به الى ذلك الجهد البعيد ، فى زمانه وفى مداه ، فلا شك فى أن الاحساس باللغة كان فوق كل شئ . ولقد راعت الكلمة الكثيرين ، ولكن ما استشعره ابن جنى كان شديد الارهاق ولقد حاول اللغويون فى كل العصور تحديد الكلمة ودورها . حدودها بصيغتها التصريفية أو الصوتية أو الدالية أو النحوية ، ومع ذلك فان صاحبنا حين يقرنها بتقلبات المادة التى قد تفيد « القوة والشدة - مثلا - » يقترب كثيرا من تصوير وقعها ، ومن تصوير تاريخها الاسطورى ، ذلك الذى لعبته فى مجالات الحياة الاجتماعية والدينية والنفسية . ولذلك يتردد الكثيرون من المحدثين فى تحديد مفهوم الكلمة . يقول عنها دى سوسير انها غاية فى التعقيد مع انها تمثل حجر الزاوية فى اللغة ، ومن العسير كشف

(١) المزهر ، ج ١ ، ص ٢٤٧ . ويعترف السيوطى أن أبا الفتح « جعله بيانا لقوة ساعده وورده المختلفات الى قدر مشترك » .

(٢) كان ابن جنى معاصرا للشاعر أبى الطيب وصحبه فترات من الحياة . وهو أول من فسر ديوانه فى « الفسر الكبير » ، وعنه أخذ أغلب اللاحقين .

(٣) الخصائص : ج ٢ ، ص ١٣٩

حدودها (١) . وإذا كانت الكلمة « أقرب تقريب من الوحدات النغوية » .
فان اسرارها وتأثيراتها تنأى عن كل القيود .

عندئذ ، يبدو كلام الاشتقاق عن « القوة والشدة » مسنكا نرى فيه
آثارها بصرف النظر عن حدودها . والصعوبة التي نلمسها كلما اقتربنا من
« الكلمة » كانت مما دفع فريقا من لغويينا لاثارة الاعتراض على ما صنعه
صاحب الاشتقاق الأكبر .

الثنائية والدلالة :

إذا كنا نستطيع أن نطلق على ما فعله ابن جنى ومن تقييلهم ، أنهم
أصحاب المنهج التحليلي للدالات والدلالات ، فان نوعا آخر يستحق أن نضعه
في منزله ، أعنى به جهد الباحثين عن أصل اللغة فى « الثنائية » . وإذا كانت
النظرة التى عاجلت القضية لم تفرش أديمها لتغطى به سطحا واسعا ، فان
ارتباط نفر من اللغويين به حين وضعوا قواميسهم أو مقاييسهم الدلالية
تؤكد أن فكرة الأصل الثنائى لم تكن متارجحة الحظ بين أياديهم . وإذا
قدموا لنا عددا من النماذج التى تشير الى أصول ثنائية تنمو دلالتها بنمو
مبانيها فكاننا مع ما يشبه فكر النشوء والارتقاء - وكان فكرة الأصل القادر
على تحمل جذوع مختلفة لم تكن مرفوضة من الأوائل . ولو أخذنا مثالا
مما يقول به أحمد بن فارس فى كتابه « مقاييس اللغة » لرأينا محاولة
تطبيقية لربط الجذر الثنائى « بمعنى كلى » ثم يتعضى ذلك الأصل كلما لحقته
لاصقة صوتية جديدة :

« ان باب القاف والطاء وما يثلثهما يفيد معنى القطع

F. de Saussure, Cours de linguistique, p. 147, 148.

(١)

وقد حاول سيمون بوتز جمع عدة تعاريف للكلمة ، ولكنه يشعر أنه تعجز عن الإحاطة

بكل ما عندها . انظر :

Simeon Potter, Language in The Modern World p. 62.

قطع : تدل على صرم وابانة شيء .

قطف : تدل على أخذ ثمرة من شجرة .

قطل : تدل على قطع .

قطم : تدل أيضا على قطع ، (١) .

دلالة عامة تكتسبها البنية من مقطعها الأول . ثم تكتسب تخصيصا مع اللاحقة الصوتية الداخلة ، وكل منها ذات اضافة خاصة .

ولو أخذنا مثالا آخر ، يعود الى نفس القرن الثالث الذي كان فيه ابن فارس ، ورأينا الثعالبي يقول في فقه اللغة بفصله عن تفصيل النقوش وترتيبها :

النقش : فى الحائط

الرقش : فى القرطاس

الوشم : فى اليد وفى الجلد

الرشم : فى الحنطة والشعير

الوشى : فى الثوب (٢)

ففى مثل هذا المثال تأتى رائحة من الألفاظ الخمسة الأولى لتضاف الى معنى عام ، وهو « ترك الأثر » ، وان لم يحدده صاحبنا . ثم ان زاوجنا بين الوشم والوشى ، أو بين النقش والرقش ، أصبح اللاصق هو ما يتحمل فرق المعنى .

ومن هذا أيضا ما قال به الأصمعى :

(١) أحمد بن فارس : مقاييس اللغة . ج ٥ ، ص ١٠٣

(٢) الثعالبي : فقه اللغة ، ص ٧٨

• ما كان من الرياح من نفح فهو برد •

• وما كان من الرياح من لفح فهو حر •

هى اذن ملموحات من لغويينا يرون فيها أصولا يمكن أن تندرج تحت أنماط دلالية متقاربة • ولعل ذلك ما دفع بعض معاصرينا الى علاج قضية ثنائية اللغة كأساس تفهم به الأصول الأولى لموادها : « ان الكلم وضعت فى أول أمرها على هجاء واحد ، متحرك فساكن ، محاكاة لأصوات الطبيعة ، ثم فثمت ، أى زيد فيها حرف أو أكثر فى الصدر أو القلب أو الطرف ، فتصرف المتكلمون بها تصرفا يختلف باختلاف البلاد والقبائل والبيئات والأهوية •

فكأن لكل زيادة أو حذف أو قلب أو ابدال أو صنيعه ما ، معناه أو غاية أو فكرة دون أختها • ثم جاء الاستعمال فأقرها مع الزمن على ما أوحته اليه الطبيعة أو ساقهم اليه الاستقرار والتتبع الدقيق ، وفى كل ذلك من الاسرار والغوامض الأخذة بالآلأباب ما تجلت بعد ذلك تجليا بديعا ، استقرت على سنن وأصول وأحكام لن تتزعزع » (١) •

ولنأخذ مثلا مما يعرضه الأب أنستاس الكرمل فى كتابه ، فالمادة اللغوية : « نب » صار نموها الدلالى فى اتجاهين : الأول يتجه نحو تحديد أن « نب » تفيد ارتفاع الصوت ، والثانى يتجه نحو أنها تفيد « الرفع » والسمو • فى الاول قولهم : نبج ، نبس ، نبص ، نبأ ، أنبأ ، نبى ، نبئى - ومعناه صاحب الكلمة التى تتكلم بوساطة • نبص ومنه قولهم نبض الرجل قوسه اذا صوتها • وفى الاتجاه الثانى يقولون : نبيل بمعنى ارتفع ، ومثله تبر ونبك ، ارتفع من الأرض ، ومثله نبت النبات ، ونبع الماء ، ونبغ يفيد الرفع والتفوق •

(١) الأب أنستاس الكرمل : نشوء اللغة العربية واكتهاؤها . ص ٥ •

وواضح أن المجموعتين تنضويان تحت الدلالة الكلية التي تعدد لمنون والباء معنى الارتفاع (١) .

ليست محاولة رفع الثنائية الى حد القانون نحوا مما قال به فريق من قدماء اللغويين ؟ أبها بعيد مفارقة عن مثل : جبل ، جبل ، جبن ، جبر ، وعن مثل : جرف ، وجلف وجنف ؟

ولكن الشيء الذي لا بد أن نعيه بعقولنا أن الأمر ليس عبثا لغويا ، أو مهارة في القياس والتخريج . انه يمثل حسا خفيا يساوق بين النظر الى اللغة والنظر السحري الذي يربط الألفاظ بدلالاتها عن طريق ما وراء الدلالة المعجمية - وكان من الممكن أن تنمو تلك المحاولات لتصبح وعاء كاملا يستوعب الكثير من أبحاث فقه اللغة ، ولكن عاقبتها نزعة البحث في اللغة كمجموعات من الألفاظ متعاقبة ومعدثة لصور متكاملة . لقد برزغت أبحاث لا تأخذ الألفاظ « كدوال لذاتها » بل كدوال بما ترتبط به من جيرانها . ولا شك أن مثل هذا التحول يمثل مرحلة حاسمة في علاقات « فقه اللغة » بمادته . لقد استقرت الخطى على طريق جديد . طريق يأخذ بالنظر العقلي أو لنقل بالنظر العلمي ، حين أوشك الجانب السحري أن يزول . وهكذا كتب على محاولات الخليل وأبي عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب وغيرهم أن تخطي المجال لأصحاب المباحث في علوم المعاني ونظريات النظم والتراكيب . فهذه الأخيرة وليد موفق بعد أن أثمرت الأبحاث الفلسفية والعلوم الكلامية ، وبعد أن توارت سطوة السحر ، وإن يك ذلك التوارى مشوبا دائما بالقلق الذي يمزق ستره من آن لآخر ، فيرتد لنا في أكثر من مجال . قد نراه سافرا ، وقد يتسلل في مؤثرات بيانية أو اعتقادية .

(١) راجع كتاب « نشوء اللغة العربية واكتهاها » ، ص ١

والمؤلف عارف بالجهد الذي أنفقه السابقون له : « فمن قال بها ولم يجد عنها قيد شعرة الراغب الأصمهاني صاحب كتاب « غريب القرآن » ، فانه بنى معجمه على اعتبار المضاعف هجا واحدا . ولم يبال تكرار حرفه الأخير ، فهو عنده من وضع الخيال لا من وضوح العلم والتحقيق . أي أنه اذا أراد ذكر مد - يد - مدا مثلا في سفره ذكرها كأنها مركبة من مادة مد أي ميم ودال ساكنة . ولا يلتفت أبدا الى أنها من ثلاثة أحرف أي مدد كما يفعل سبائر اللغويين . ولهذا السبب يذكر مد قبل مدح مثلا » . ولا يقدم هذه على تلك على ما تشاهده في معظم معاجم اللغة كالتة موسى ولسان العرب وأساس البلاغة وتاج العروس .

ما وراء اللغة

أصبح أن كل الجهد الذى بذله اللغويون لتفسير صيغ الاشتقاق كان عبثا لغويا ؟ أكان طريقا للمهارة العقلية ؟ وتلك المنزلة الكبيرة التى احتلها : أكانت لفهم صلة خفية بين العقل والأداة الصوتية التى اصطنعها الإنسان ! لا اظن أن الاعجاب يكفى للتفسير .

الم تكن هناك فلسفة تتراءى له من وراء فعله ؟ وحتى اذا لم يقم هو بوضعها فى الاطار ، أليس لنا أن نتساءل عن علاقة ذلك السعى من العالم اللغوى بسعى آخر كان يدور حول « وحدة الوجود » ؟ أليست المعانى العامة التى برزت بعد التقلبات للمادة اللغوية ، أو بعد تضارع الحروف ، أليست هى نمط من أنماط « وجود عام » كان العقل اللغوى هو الطريق لتحقيقه ؟ كل وجود لتلك « المعانى العامة » له وجود ب « القوة » من خلال الوجود ب « الفعل » . والفعل هو تلك الصيغ التى يديرها الحس اللغوى ويحاول ، من ملاحظتها ، الوصول الى ما وراءها . وكأن « الصور » التى تأخذها المواد الصوتية هى الطريق الى ادراك ما أسماه أرسطو ب « الهوى » . لو صح منا ذلك التفكير فان منهج الاشتقاق والمصارعة بين الحروف يصبح توكيدا للأصل البعيد للغة ، ذلك الذى ذهب الى ميتافيزيقية ، أو الى ابراز ، جانبها الأسطورى .

الأصول المختصة :

مبحث أصل اللغة : ألهام هى أم اصطلاح اثبرت حركته مع أقدم من وصلت إلينا آراؤهم اللغوية . وما زال البحث معروضا حتى زماننا . وإذا علت صيحات تنادى بالكف عنه ، فما ذلك الا لافلاس الفكر وعجزه أن يتخطى

وسائل المعرفة التي يمتلكها^(١) ولكن ما زال ما قرره بعضهم من أن أصل اللغات كلها من الأصوات المسموعات « وجها صالحا ومذهبا متقبلا »^(٢) . فإذا كان دى سوسير F. De Saussure قد أحدث ثورة في مجال الدراسات اللغوية بأوروبا بعد أن أثار قضايا الظواهر الاجتماعية والتطورية للغة ، وبعد أن تحدث باقناع كاف عن الرموز الصوتية واختيارها اختيارا جزافيا . فقد عرض في كتابه (Cours de Linguistique générale) لاعتراضين أساسيين يراهما يمتنعان عن مطاوعة فكرة جزافية اختيار العلامة الصوتية المرتبطة بالدلالة^(٣) .

الاعتراض الأول : أن الكلمات المحاكية للأصوات Onomatopées تدل على أن الدالة "Signifiant" ليست دائما جزافية "arbitraire" أي أن مبانيها الصوتية توحى بارتباط معين بين اللفظ والمعنى . ويهرب دى سوسير من الموقف حتى تستطرد نظريته في إسوطها بأن يحدد للكلمات المحاكية للأصوات مواضعاته التالية :

(أ) أن عددها قليل ، فهي لا تمثل جزءا هاما في المعجم اللغوي .
(ب) أنها لا تمثل عناصر عضوية éléments organique في داخل النظام الصوتي (Système linguistique) .

(ج) الكثير منها يمكن أن يكون قد حدث بعد تطورات صوتية evolution phonétique تضعف من تصور هذه الكلمات مجرد محاكاة لأصوات طبيعية^(٤) .

(١) قال فندريس في كتابه اللغة : « إن مسألة أصل الكلام ليست من مسائل علم اللغة » ، ص ٢٩ . ومنذ قال ذلك يحاول كثير من المحدثين العزوف عن علاجها ، لأنها تضرب في طرق مسدودة كما يشعرون .

(٢) الخصائص : ج ١ ، ص ٤٧ .

(٣) أعرض الاعتراضين ملخصا ، حتى لا تعمق الأمثلة والاصطلاحات السياق الذي نحن فيه . انظر :

Saussure: Cours de linguistique gén., pp. 101-102.

(٤) لعل فكرة دى سوسير عن وظيفة الأنوماتوبيا المحدودة هي التي تجعل بول زيف يقول : « إن الأنوماتوبيا ليست بذات أهمية كبيرة » ثم يشرح في تكرار بشبه أقوال دى سوسير

Paul Ziff: Semantic Analysis, p. 25, New York 1967.

الاعتراض الثاني : وهو خاص بالصيحات الانفعالية Exclamations
وهي قريبة الشبه جدا بالأونو ماتوبيا ، ولكنها تثير اعتراضات أشد صلابة
على نظرية جزافية اختيار العلامات الصوتية . فهي تعبيرات حقيقية تملئها
الطبيعة - ومع أننا لا ننكر وجود ارتباط ضروري بين الدلالة والدالة
"Le signifié et le signifiant" فان المقارنة بين هذه الصيحات في لغتين
تدل على التفاوت التي تعبر به كل منهما على المواقف نفسها .

هذان موقفان يوضحهما واحد من الذين تركوا أعماق الآثار في كل
المباحث اللغوية الحديثة . وهما ينبعان من فكرة وجود صلة الدوال اللغوية
بالدالات ، أو من فكرة أن « اللغات محاكاة لأصوات المسموعات » ومن فكرة
تعبير جزء من المعجم اللغوي عن الجوانب الانفعالية للإنسان . ان الصيحات
قد تطورت بلا شك وانتقلت من مجال الى مجال . ومع هذه الاعتراضات فاننا
نجد - على سبيل المثال - Beals & Hoijer يقولان في كتابهما الكبير عن
الانثروبولوجيا : « أغلب الظن أن اللغة نشأت عن نظام « مجموعات
الصيحات » التي تحاكي ما عند الحيوانات الراقية ، فهناك صيحة للطعام ،
وصيحة للخطر .. » (١) وكان الفلاسفة اللغوية التي نحاول ربط نشأتها الى
عجلة الجوانب الانفعالية عند الانسان ما زالت راجحة . ومهما اشتدت
الجوانب الموضوعية في الأبحاث اللغوية ، فان الجانب الذاتي ، أو الانفعالي
سينبقى واضحا . « ان الانسان لا يتكلم ليصوغ أفكارا فحسب ، بل يتكلم
أيضا ليؤثر في أفعاله وليعبر عن حساسيته .. الانسان لا يستخدم اللغة
ليعبر عن شيء فحسب ، بل للتعبير عن نفسه أيضا .. يجب أن نميز في
كل لغة بين ما يمدنا به تحليل التصورات وبين ما يضيفه المتكلم من عنده :
بين العنصر المنطقي والعنصر الانفعالي » (٢) . يستحيل إذن أن نتوقع غياب
الجانب الذاتي - الانفعالي في اللغة ، ومن ثمة يصبح طرح سؤال عن ارتباط

(١) R. Beals & H. Hoijer, An Introduction to Anthropology p. 615, (éd. 1969).

وفي نفس المجال يمكن الرجوع الى « علم اللغة » الدكتور السمران من ص ٦٠ الى ص ٦٦

(٢) هذه جمل منتبهة من كلام فندريس في « اللغة » : ص ١٨٢ - ١٨٣

اللغة فى أصلها البعيد بمثل ذلك الحيط المستمر معها طوال عصورها سواء لا بجانب المنطق العلمى . واذا كانت أبحاث المحدثين لا تكف عن تقليب علاقات الإنسان بلغته ، بغية كشف الدلالات ، الخفية قبل الظاهرة ، فإن قدماءنا قد لمسوا بقوة ماذا تعنى الألفاظ حين لا تفهم فى سياق المقام الذى وضعت فيه ، ومن ثمة كان جهاد أهل الأصول واضحا عندما جاهدوا أنفسهم لاستخلاص محمول العبارات فى جوهر « الوجود اللغوى » . « ألا ترى الى قوة تنازع أهل الشريعة فى اللغة ، وكثرة الخلاف فى مبادئها ، ولا تقطع فيها بيقين ، ولا من الواضع لها ، ولا كيف وجه الحكمة فى كثير مما أريناه أنفا من حالها » (١) . لا سبيل لقبول هذه الخلافات وذلك التردد الا عند غياب فكر فلسفى ينسبها الى ما « وراء اللغة » *Meta Linguistique* أو الى ميتافيزيقيتها .

لو أن الفكر اللغوى استبان العلاقة بين الرمز والمعنى لكان كثير من التردد . وستبقى فكرة محاكاة بعض كلماتنا لأصوات الطبيعة أو لصيحاتنا الانفعالية دربا ربما يقودنا لتطابق - أو لشبه تطابق - فيما بين الرموز والمقولة العامة المتعلقة بالوجود . لقد أصبح علم اللغة المعاصر يأخذ بأن العلاقة بين الأسماء ومسمياتها علاقة اصطلاحية أو اختيارية . ولا شك فى أن ذلك تفسير عقلى تحاول به المناهج الحديثة إسقاط منجزاتها على ما فات من نظرنا . ولو أن فكرة « الطبيعة » رجحت كفتها لكان فيها ثراء !؟ ومن الغريب أن مرجحاتنا الحديثة لقاعدة الاصطلاح والاختيار تستند الى « جهلنا » بالأصول البعيدة أو لغياب تلك الأصول . ومن الغريب أنه منذ أكثر من ألف عام طرح سيبويه الاحتمال نفسه : « قد يمكن أن تكون أسباب التسمية تخفى علينا لبعدها فى الزمان عنا ، ثم ألا ترى الى قوله « أو لعل الأول وصل اليه علم لم يصل الى الآخر » يعنى أن يكون الأول الحاضر شاعدا الحال ، فعرف السبب الذى له ومن أجله ما وقعت عليه التسمية ، والآخر -

لبعده عن الحال - لم يعرف السبب للتسمية « (١) » . هلا يمكن أن تكون
إشارة سييويه وتفسيرها رجوعا إلى أصل أسطوري بعيد تختلط فيه
التسمية بالاسم ؟ أو لم تكن محاولات القائلين بتوقيفية اللغة حلا ميتافيزيقيا
لميتافيزيقية اللغة ! وحين يرفض أهل السنة مع ميلهم للأخذ بتوقيفية اللغة -
رأى فريق من أهل الاعتزال عن أن بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة
للتواضع على أن يضع ، ألا يرتد موقف أهل السنة أساسا إلى اشتقاقهم من
تطبيقات مقولات الفلاسفة فيما يخص وحدة الوجود !

ثم ، أين نضع اعتقادهم فيما يخص وحدة الوجود ؟

يقول الرازي : « العرب تقيم سبب الشيء مقام الشيء ، وتسميه
باسمه ، والقرآن نزل بمذاهب العرب . فلما كان أمر الله عز وجل سبب كل
شيء ، وبأمر الله كانت الأشياء كلها سماها أمرا » (٢) . والسياق اللغوي
لكل أوامر الله - سبحانه - هو الكلمة وليست بعيدة عن تلك التي كانت في
بداية الانجيل : « في البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله هذا كان في
البدء عند الله . كل شيء به كان ، وبغيره لم يكن شيء مما كان » (٣) . وتلك
مقولة المسيح كما نسبت إليه ، والموقف اللغوي هنا واضح الدلالة إلى أن
كلمة الله : « كن » هي ما تقابل كلمة « الأمر » الذي يستتبع رد فعل من
الكون . وإلى هذا المنحى قال بعض فقهاء اللغة . فإن أبا حاتم الرازي أراد
تفسير الأمر بأنه « الكلمة » فعنده أنها من الآية الكريمة : « إنما أمره إذا أراد
شيئا أن يقول له كن فيكون » . وعقد الصلة بين صدر الآية : « الأمر » وبين
عجزها « كن » واضح غير خفي . وعنده كذلك أن صلة الأمر بالكلمة مستمدة
من قوله : « ألا له الخلق والأمر » فالأمر كون (مشددة العين) به الله الأشياء
كلها . وعنده أن العرب سموها المطر سماء ، لأنه من السماء ، ولأن السماء
منسوبة للمطر . وبذا نصل إلى ما يشبه « الدور » ، أي أن سبب الشيء يقوم
مقام الشيء . وهذا منهج نهجه العرب في كثير من عباراتهم .

(١) المصدر السابق : ص ٦٦

(٢) الزينة ، ج ١ ص ١٣٢

(٣) انجيل يوحنا : ١ : ٣

فحين يقول القرآن : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » (النساء آية ٨٠) أو حين يقول : « ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله » (الفتح آية ١٠) فكان الله قد أقام الرسول مقام نفسه ، لأن الرسول سبب لله ، ومن تعلق به فقد تعلق بالله . هو حبله . وحين نجمع أطراف العبارات : ما بين الأمر والكلمة والاحداث فان « وحدة الوجود » تتحقق ، ويضيق ذلك الفهم القاصر لوظيفة « الكلمة » فى العبارات السابقة . انها معنا - هنا - تعنى الالتحام الكامل بين الارادة والخلق ، بين ارادة الفعل والفعل ذاته .

ثم ، ليس ذلك موقف التجميع بين الجانب الواقعى والجانب الميتافيزيقى ؟ أليست الكلمة هنا قائمة مقام ما وراء اللغة ، أو ميتافيزيقيتها ؟

الكلمة : هى الأمر ، هى الارادة . وكما اختلطت بالمنطق الأسطورى ! وحتى لا يضيع منا الحيط آخذ ما قاله العتبي فيما نقله عنه أبو حاتم السجستاني وسجله ابن دريد فى كتابه الكبير الاشتقاق : « أخبرنا أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني ، قال : قيل للعتبي : ما بال العرب سمت أبناءها بالأسماء المستبشعة وسمت عبيدها بالأسماء المستحسنة ، فقال لانها سمت أبناءها لأعدائها ، وسمت عبيدها لأنفسها » (١) أليست هى العادة النفسية القديمة التى تفترض صلة ثابتة بين الاسم والمسمى ، أو على الأقل صارت تفترض « وهما » أسطوريا يربط بينهما . العرب يرون أن تكون الأسماء مثل : صخر - حجر - نمر - ذئب : . . مما يمنحونه لأبنائهم ، حتى تحدث الأسماء تأثيرها :

الأول فى الأبناء حين يشبون وقد علقت صفات أسمائهم بأذهانهم
فاكتسبوا بعضها . . صلابة أو شراسة أو اصرارا . .

الثانى فى الاعداء حين ينزل بهم الخوف توجسا من صفات الخصوم
المنتمية لأسمائهم .

وكما تقع الاسماء المستبشعة على الابناء وعلى الأعداء ، فان أسماء العبيد مثل : يسر ويمن وسعد تتحدث بدورها عن رجح التفاؤل الذى يعتمل فى نفوس السادة حين يستبشرون بعبدهم يمنا أو يسرا ، بل ربما يحرك الاسم العبد نفسه فيحقق لآله بعض ما علق بقلوبهم من البشارة .

واذا كانت فرصة تحويل بعض هذه « الأوهام » الى واقع تبقى مرتبطة بالقدرة الفعلية التى تكون للأبناء ، كان يكون بطلا مغوارا ، أو تكون للعبيد كأن يكون مصدر خير ، فان فلسفة اختيار الأسماء تتفق مع الواقع الوجدانى الذى يرى الاسم - أو الصفة - مرشحة للرؤية العقلية . وتاريخ اللغات كلها يعج بما نفسره بالتفاؤل أو بالتشاؤم ، ولا مدرج لهما الا فى نطاق الحس الذى يراودنا من الواقع النفسى أو من لحظة الحضور النفسى . انما لحظة استغراق تمتزج فيها الروح مع البناء اللغوى امتزاجا كاملا ، ويصبح اللفظ حاملا للطاقة الانفعالية أو للموجة المتحركة بالأعماق عند بدء الاهتزاز . وحتى خير البشر ادراكا لتعلق مصائر الناس بأعمالهم كانت له المواقف المماثلة لما نحن به . من ذلك ما يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم « أن قوما من العرب أتوه فقال لهم : من أنتم ؟ فقالوا : نحن بنو غيان ، فقال بل أنتم بنو رشدان » (١) .

ولقد ثار جدل طويل بين المفسرين حول الآية الكريمة : (ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنباهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السماوات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » . (البقرة آية ٣١ : ٣٣) . وأبا ما كان خلاف المفسرين حول توقيفية اللغة أو اصطلاحيتها ، فالآية تنم فى وقعها الأول على

(١) الخصائص : ج ١ . ص ٢٥٠

وان لم يتفوه الرسول بذلك . وأغلب الظن أن اشارة الرسول هي ضرب من الدعاء المقوم وان لم يتفوه الرسول بذلك . وأغلب الظن أن اشارة الرسول هي ضرب من الدعاء المقوم بالرشاد بدلا من الغى . وليست من منهج ما قاله ابن جنى .

فضيلة آدم ، تلك اكتسبها بعلمه للأسماء . ومن ثم كانت كلمة الله لهم من بعد . ان اسجدوا لآدم . الفضل اذن مستمد من معرفة أسماء الأشياء . لأن كل شيء يعرف باسمه ويستدل عليه بصفته « والصفة تقوم مقام الاسم ، ونكون خلفا منه . والله عز وجل يعرف بأسمائه وينعت بصفاته » (٢) .

ان التداخل الذى يحدثه أصحاب النظر اللغوى فيما بين الاسم والصفة ، هو صورة منطقية من التداخل الذى أحدثه الأسلاف بين الاسم والمسمى فى صورة فطرية . ولهذا لا نعدم أن نجد فرقاء من اللغويين يجهدون أنفسهم لايقناع التباين بينهما ، فأحيانا ينجحون وأحيانا يخسرون . ولن يصعب أن نحرك « الاستعارة » لتوضع على نفس المحك . وإذا قلنا ان الاستخدامات الاستعارية انتقال بالاصول الحقيقية الى أفق « ميتافيزيقى » أو الى أفق سحرى حادث مع الاثارة الوجدانية المبدعة مع كل عبارة تخيلية ، فان ذلك الانتقال لن يظهر الا حين نلغى اللحظة الزمنية التى آثرنا فيها الاستخدام الاستعارى وعدنا بالانفاظ الى مهد تاريخى معين ، وعنده نرى الأصل الحقيقى أو الحسى .

أليس من الحق أن نقول ان كل الجوانب الروحية بالانسان لن نمنحها حقها من الادراك الا حين نحسن فهم الوظيفة اللغوية ؟ ألا نرد اليها موقفه من السحر ومن الأساطير ومن التفاؤل والتشاؤم بل ومن الدين ! ومع الاشفاق من استعجال الرمى بجمرات « الاستاتيكية » عند ايثار حركة السيولة الديناميكية فلن نأنف من تطبيق المنهج على الكلمات ثم على الجمل والعبارات . فاللغة قدر الانسان . ولن نقدر على درسها الا حين نتأنى فى تحليلاتها : « من الممكن أن تقارن اللغة بصحيفة من الورق ، الفكر يحتل وجهها ، والصوت

يمثل الوجه الآخر ، ولن نستطيع أن نعزل الفكر عن الصوت ولا الصوت عن الفكر . فلن نصل الى ذلك الا بنوع من التجريد ينتهى بنا الى دراسة سيكولوجية والى دراسة فنولوجية « (١) .

الصواب أن ندرسها متكاملة لأنها ، بوجهيها ، تأخذ من صفحة القلب وصفحة العقل . لقد كان ذاك هو الذى وقف المشركون عاجزين عجزهم التام امام بياض القرآن الكريم ، ومعجزته اللغوية الخالصة .

التوهم والحروف أو النظر السحرى والنظر العقلى

حاول أحباب اللغة ، فى نقائها كما تصوره ، جعل المعانى والالفاظ فى قماط واحد . ولكن أنى لهم ، وعلماء الاصول والفلاسفة يفتشون ! وفى حديثه عن المفرد يسجل أبو الحسن بن على صاحب كتاب « الاحكام فى أصول الأحكام » أن المفرد هو « م . دل بالوضع على معنى لا جزء له ، يدل على شئ أصلا ، كلفظ الانسان فان « ان » من قولنا « انسان » ، وحيث كانت جزءا من لفظ الانسان ، لم تكن شرطية ، لأن دلالات الالفاظ ليست لذواتها بل هى تابعة لقصد المتكلم وارايدته . ونعلم أن المتكلم حيث جعل « ان » شرطية لم يقصد جعلها غير شرطية » (١) .

هذا كلام ينقض بدعة الثنائية ، والنقض قائم بفعل النظر العقلى . ومع ذلك فهو يفيد أن اللفظة تعنى المعنى الذى استقلت به منذ وضعها الانسان . ومن العبث أن نبحت عن دلالة مستقلة لأى من أجزائها ، حتى وان لاح للسامع أو للقارئ وكأن بعضا منها يحمل دلالة مستقلة . ورفض المعنى صادر من موقف المتكلم وقصده بحكم استهدافه للمعنى الكلى . وهو بدوره فى طريق ينتوى على التصور « السحرى » الذى كنا بصده منذ قليل .

نظريات « النظم » و « البيان » تنضج مع مرحلة « الرؤية بالقلب » و « النظر بالعقل » ، ومن تماسهما لا تصعب رؤية الامتزاج بين الجانبين :

ما نسبه بالغيبية وما نسبه بالعقلانية . ومن عند أحد اللغويين (١) ، آخذ فصلا يدافع فيه بحرارة شابة عن لغة العرب (٢) ، ويفضلها على اللغات الثلاث التي نزلت بها كتب دينية وهي : العبرانية والسريانية والفارسية (هكذا) . ومن مجرد المقارنة تبدو نظراته اللغوية حين ينسب فضلا الى تلك اللغات لأن بها كان كلام « الدين » . وكان الفكرة غير بعيدة عن روح الأسطورة ، وكان الدين مما يلهمه التفكير بمثل تلك الروح . وحين يعالج المؤلف الحروف التي عليها بنيت الصيغ يقسمها الى قسمين :

- ١ - حروف محدثة ، وهي التي يتكلم بها بغير كلام الله .
- ٢ - الحروف التي يتكلم الله بها ، وهي غير منعوته بالاحداث (٣) .

ومثل هذا التقسيم محاولة لرد المعرفة الالهية للذات . فهي متفردة بنمط متميز من الحروف ، نمط يبقى وكأنه في لوح محفوظ « كان أول ما توهم الله عز وجل - شيئا متوهما ، وأراد مرادا ، وشاء مشيئا ، فكان توهمه ومشيئته وإرادته للحروف ، التي جعلها - عز وجل - أصلا لكل شيء ودليلا على كل مدرك وفاصلا لكل مشكل . فمن تلك الحروف يعرف كل شيء ، من اسم حق ، أو اسم باطل ، أو فعل ، أو فاعل ، أو مفعول ، أو معنى أو غير معنى . وعليها اجتمعت الأمور كلها . ولم يجعل للحروف عند توهمه لها شيئا غير أنفسها بتناه ولا وجود . لأنها متوهمة بالتوهم . والتوهم في هذا الموضع أول فعل الله - عز وجل - الذي هو نور السماوات والأرض . والحروف هي مفعولة لذلك الفعل ، وهي الحروف التي عليها بنى الكلام كله » (٤) .

(١) هو أبو حاتم الرازي مؤلف الزينة ، وقد مات أو قتل عام ٣٢٢ هـ .
انظر المقدمة التي كتبها المرحوم حسين بن فيض الله الهمداني للكتاب . وخاصة ص ١٧ وما بها من مراجع عن مؤلف الكتاب .

(٢) انظر الفصل المذكور في ص ٦٦ من الزينة .

(٣) الزينة . ج ١ . ص ٦٧

(٤) المصدر نفسه . ص ٦٦

أبو حاتم فى نصه السابق يدفع تصوره للحروف الى حومة المثالية الايجابية وكأنه يريد تفسير أحداثها بما يفارق طبيعتها . والنطاق اللغوى هنا مضروب حول منهجه بسبب أن حروف اللغة هى مصدر المعرفة لكل شىء ، بها يعرف الخير والشر والصحيح والباطل . وبها أيضا تعرف كل المقولات . وما دامت الحروف محدثة ، فلا بد أن تمر بمراحل خلق . ولذلك حدد المراحل بثلاث : الخلق الأول هو التوهم ، ولا وزن له ولا لون ولا حركة ، والمتوهم لا يسمع ولا يحس . وكأنه ضرب من المثالية يتخيله صاحبنا .

الخلق الثانى وهو الحروف ، وهى مسموعة بالأذان موصوفة بالألسن ، ولكنها غير منظور اليها ، لأنه لا وزن لها ولا لون .

وأما الخلق الثالث فهو ما يقابل الواقع المادى أو المحسوس ، أو هو « كل ما كان بالحروف موصوفا فى الأنواع كلها ، وهو ملموس محسوس ذو وزن منظور اليه » .

الوجود اذن سابق للدراك البشرى ، لأن الله يحدث الحروف لاحتياز المدركات . وحتى لا نحمل الراى اشارات معينة يمكن أن تستقى من حديثه عن التوهم ننقل عنه ما يقوله : « الله - عز وجل - سابق للتوهم ، لأنه ليس قبله شىء ولا كان معه شىء » . ثم يضيف : « والتوهم سابق للحروف ، والحروف محدثة » (١) .

وما كان يمكن أن يذيع ذلك الا ان تبنى فلسفة فصل الاسم عن المسمى ، وفصل الصفة عن الموصوف ، وفصل الحد عن المحدود . ونحن لا نستبعد أن تكون الدعوى غير بعيدة عن آراء « أصحاب الرأى » الذين آثروا فصل الصفات ، عن الذات العلية حين اتجه التفسير والجدال الكلامى الى الأخذ بـ « المعقول » بدلا من « المنقول » . لقد كانت الآراء حول صفات الله عازلة بين الفريقين . ذلك حين تصور بعضهم ربط الصفة بالموصوف ، وتصور بعض آخر وضع الصفات فى مجال المجازات . وذلك نفس الشىء الذى يرمى

به أبو حاتم الرازي ، فالحروف التي يتكلم الله بها غير ممنوعة بالأحداث . وإنما الحروف التي يتكلم بها بغير كلام الله فهي المحدثه . وسر ذلك أن الأولى منه ، والله لا يحدث فيه شيء ، وإنما يحدث ما سواه . ومن ثمّة فالمخلوقات : السماء والأرض ، والبر والبحر ، والجن والانس حادثة بفعل الحروف . « ما جمعته الحروف أو مزقته فهو مفعول بالحروف » . ان الحروف هي التي تمكننا من حيازة المدرّكات ، ولا مدرك الا ما يدرك بالحروف ! وحتى حينما تحتاز بعض الاسماء أو بعض الصفات ، فانها تبقى كحروف مقطعة محدودة الاتفاق الى أن تجتمع على غير أنفسها . ولا شك في أنه حين يصل التفكير بنا الى هذا المربط ، فاننا أمام مرحلة أخرى من نمو الاحساس اللغوي . لم تعد الحروف المحدثه وحدها هي فرس الميدان ، ولكن هناك « محدثات » التأليف : « الاسماء والصفات انما هي حروف مقطعة قائمة برؤوسها ، لا تدل على غير أنفسها ما دامت متفرقة ، فاذا جمعت دلت باجتماعها على غير أنفسها » . ان « النفي الذي تؤكده العبارة هو سعي وراء استخلاص الدلالة ، لأن الله سبحانه لا يجمع الحروف فيؤلفها الا لمعنى . وعلى ذلك فتوهم الخالق غسير توهم المخلوقين ، لأن توهم الخالق للمشيء يعني « أنه أبدعه قبل أن أظهر صورته » ، والمصطلح يساوي : أراد الشيء وشاء ودبره . وأما توهم المخلوقين فانه يكون بالفكر والروية والقلب .

الحروف هي الطريق الى المعرفة ، تلك خلاصة الرأي ، ثم هنالك حروف التوهم المبدع الذي أوجد حروف الكلام ، وهنالك حروف توهم المخلوقين الذين يستحدثون عن فكر وروية . وحين يجتمع الطرفان فلن نكون بعيدين عن الجانب السحري والجانب العلمي الذي مر بنا .

الايقاع والدوال :

إذا كانت الأبحاث حول الحروف لم تنشأ - تاريخيا - إلا بعد آلاف السنين بقى الانسان فيها حبيس النطق والسمع ، فان اشارة قضيتها هي بدورها موجة من موجات العقل الذى لم تكف تقليباته عن كشف الجانب الانفعالى فى اللغة . وحين ينشط جيل من رجالها لتحليل « أجسادها » فالحق أنهم يسعون الى معرفة « روحها » ، وهى نفس النظرة التى كانت حين تصور من قبلهم أن النطق جسد الكلام وأن المعنى هو الروح . والصورة مستمدة منذ كانت الطقوس فى حياة الانسان ، ومنذ بدأ الشعر ، بصلصلته ، يوقظ الخيال ، بل ويضع العقل أمام مرحلة جديدة من مراحل استخداماته اللغوية ، فيها الانفعال وفيها آثار التفاعلات والنزعات . « فى كل الشعر تقريبا نجد أن جرس الألفاظ وبنيتها - أى ما نسميه عادة بشكل القصيدة ، مفرقين بينه وبين محتواها - هما اللذان يبدوان فى التأثير . وعملية التأثير هذه تعمل بدورها بطريق غير مباشر فى المعانى التى تفهم من الألفاظ . بل ان المدلول المباشر لمعظم الألفاظ وخاصة فى الشعر مدلول مفعم بالالتباس ، فنحن نستطيع أن نفهم منها متى شئنا مدلولات شتى . والمدلول الذى نشاء أن نختاره هو المدلول الذى يوافق الدوافع التى ولدها « شكل » الشعر فينا » (١) . اختيار الشاعر لألفاظه لا تبرر له الا من خلال تصورنا لوقع الألفاظ مع ايقاع عواطفه . ومهما كانت التحاليل ، ومهما قدمت علوم النفس من كشوف للحوافز ، فان كل شئ سيظل يلهث وراء السر ، وراء جانب غيبى أو سحرى لم يستطع العلم أن يفسره ، وأحسب أن أجيالا كثيرة ستشهد التخطيط فى متاهات النفس ، فهى وان روعها الجانب العلمى ، أو التقدم التكنولوجى ، ستبقى محتاجة أبدا الى ذلك الطيف الخيالى الذى تستروح معه من المعاناة . وسيبقى الايقاع الشعرى محدثا أثره بفضل صلات تبدو - واضحة - وان اختفت أحيانا أمام النظر العاجل - بين الألفاظ ومعانيها . وكيان الشعر فى وزنه ، والوزن نوع من المحاكاة ، أو نوع من الاحساس

الفطرى لا سرد له إلا نحر دائرة الانغام الساحرة : « واجب على صانع الشعر أن يصنعه صنعة متقنة لطيفة مقبولة حسنة ، مجتلبة لمحبة السامع له والناظر بعقله اليه ، مستدعية لعشق المتأمل فى محاسنه ، والمتفرس فى بدائعه ، فيحسه جسما ويحققه روحا ، أى يتقنه لفظا ويبدعه معنى ، ويجتنب اخراجه على ضد هذه الصفة فيكسوه قبحا ويبرزه مسخا ، بل يسوى أعضائه وزنا ويعدل أجزائه تاليفا ويحسن صورته اصابة ، ويكثر رونقه اختصارا ويكرم عنصره صدقا ويعلم أنه ثمرة لبه وصورة علمه والحاكم عليه أو له » (١) وحين نتخطى الملاحظات البلاغية ، عن الجمال والايجاز وما إليها ، فانه يبقى أمامنا التنبيه على النظر العقل الذى لن يكون الا بتحقيق الشعر روحا والاحساس به جسما . أى تحقيق الدلالة المستندة الى الصياغة أو الى الإيقاع .

أليس ذلك تحويرا لصلة الألفاظ بدلالاتها أو لوحى من الصياغات نحو معانيها ؟ ولن يتم فهمنا لذلك الا بعد أن يستقر الذهن على فلسفة لغوية لا تفصل الاستخدام عن الطبع ، فهما يتساندان مساندة كاملة ويتكاملان . ولعل ذلك هو ما يفسر الاحساس بضياغ المجهود الذى يبذله كثيرون من أساتذة اللغات حين لا تثمر أعوام طويلة من التدريس فتخلق رهافة الحس اللغوى عند الطلبة والطالبات وسر ذلك اختلاف الطبائع ، وبحكم أن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ، ودماثة الكلام بقدر دماثة الحلقة .

الرمز اللغوى :

حين يطرح السؤال ما الرمز ؟ نأخذ اجابة لتحده « الرمز علامة تنهض بدلا من أى شئ آخر . هو دائما بدل أو « مقابل » من علامة أخرى يضع معها « مترادفات » . وكل العلامات التى ليست رموزا هى اشارات ، وكل العلامات التى ليست اشارات رموز . ان الجهد الأساسى للتفكير هو : تحويل تجربة الى رمز . فلا شئ يعصى على أن نحوله للتدليل على شئ

آخر، (١) . كان الاتجاه المحدث فى تناول اللغة هو ما نراه من تحويل الفاظها الى مثابة رموز .

والفكرة الرئيسية التى وراء ذلك نابعة من ابتعاد الفكرة الأسطورية التى كانت تربط اللفظ ربطا مباشرا بدلالته .

وحين تداعت تلك النظرة ، وحين استطاع التعامل الموضوعى مع الالفاظ أن يحرك الالفاظ مع مداراتها ، صار اللفظ الى « الرمزية » ، قادرا على أن يحرك دلالات أخرى غير تلك التى هو دالتها . ويمكن القول عامة أن « المتكون الصوتى » ، هو المحرك للدلالة « المستدعاة » من مكنها فى الذهن مع المتحدث والسامع ومع الكاتب والقارى .

وتنصرف الأبحاث التى تدور حول « الرموز اللغوية » ، الى اعتبارها اشارات عقلية engrams يمكن نطقها ، وتعمل كما يعمل أى رمز آخر أو علامة فعلية (٢) .

ولم يفت هذا الاتجاه أن الرموز يمكن أن تنطوى على غير اللغة المنطوقة والمسموعة . ولذلك نستكمل وظيفة الرموز . يقول أولمان : « كثيرا ما حللت العملية الرمزية ، وخاصة عند السلوكيين » .
وليس بضرورى أن نتبع تفصيلاتهم . وتجربة بافلوف الشهيرة عن رد الفعل الشرطى عند الكلاب تؤكد أن الفعل ورد الفعل والتجربة تقدم صورة عامة عن آلية العمل .

« ان الرموز اللغوية أجزاء من تجارب أوسع ، وهى تحوى ذات الأشياء المشار إليها . فكلية « مائدة » على سبيل المثال - هى جزء من موقف يكون فيه للشئ الموما إليه حضور مماثل » (٣) .

واذا كانت الرموز هى الحوافز التى تحرك الصور الذهنية ، ومن ثمة تنشط الأفعال لتحقيقها ، فليس من الضرورى أن يحضر الرمز فى المساق السمعى ، وليس من الصعب أن تقوم الاشارات البصرية أو العلامات الحسية

Simeon Potter, Language in the Mod. World. 48.

(١)

Ullmann, The principles of Semantics, p. 28.

(٢)

(٣) المصدر السابق .

بالوظيفة نفسها ، ولكن الفرق الأساسى بين الرموز عامة ، والرمز اللغوى ، هو اعتماد الآخر على الطابع الصوتى والسمعى . ولعل ذلك هو الذى جعل « أوجدن وريتشاردز » فى كتابهما (معنى المعنى) يحولان الفكرة فى عبارات أكثر مرونة . « حينما نعالج الانواع المختلفة لأوضاع العلامات التى يستخدمها الناس فى اتصالاتهم وكوسائل للتفكير ، فاننا نتحقق من أن تلك العلامات تحتل منزلة خاصة . ومن المفيد أن نجعلها تحت اسم مميز ونختار لها الرموز . وهى التى تؤثر على حياة الناس وأفكارهم فى مجالات لا حصر لها » (١) .

وهذا اللاحاح على أثر الرمز فى حياتنا هو صورة أخرى من صور الإدراك لنهيج من مناهج تحصيل المعرفة . ذلك أن الحديث وهو التحقيق الفعلى للغة ، تحريك لجهد عضلى فى أقرب صوره المادية ، ثم هو تحريك لمضمون غيبى أو حضورى عقلى فى أبعد صوره . وأنا أشعر بأثر من آثار قدمائنا واضحا مشرقا حين أقرأ لأخوان الصفا قولهم : « ان المنطق مشتق من نطق ، ينطق نطقا ، والنطق فعل من أفعال النفس الانسانية . وهذا الفعل نوعان: فكرى ولفظى ، فالنطق اللفظى هو أمر جسمانى محسوس ، والنطق الفكرى أمر روحانى معقول ، وذلك أن النطق اللفظى انما هو أصوات مسموعة لها هجاء ، وهى تظهر من اللسان الذى هو عضو من الجسد ، وتمر الى السامع من الآذان التى هى أعضاء من أجساد أخرى وأن النظر فى هذا النطق والبحث عنه والكلام عن كيفية تصاريفه وما يدل عليه من المعانى يسمى : علم المنطق اللغوى » (٢) .

وحتى نقطة اقتباسنا كان اهتمام الاخوان هو بالفعل المحقق بالتركيب الصوتى سواء تم أدائه باللسان واستقباله بالأذن ، أو شرع الذهن يستحضره ثم ضمن به ولم ينطقه . والى أن يتم لجهاز النطق ولجهاز السمع تبادل المادة المنطوقة ، فنحن بعيدون عن علم المنطق اللغوى — كما حدده اخوان الصفا — والطابع الحسى واضح عندهم ، وتلك هى فكرة اليونان منذ قالوا : « الألفاظ

أبدان للأرواح التى هى المعانى . ولا خير فى أن تتزيا الفكرة بأزياء مختلفة: من بين الأرواح الى المخدم الشريف الى الكيان الالهى وكما يكون الحد اللفظى تحديدا للمنطق اللغوى ، فهناك مقابلة للمنطق الفكرى . « أما المنطق الفكرى الذى هو أمر روحانى معقول فهو تصور النفس معانى الأشياء فى ذاتها ، ورؤيتها لرسوم المحسوسات فى جوهرها وتمييزها لها فى فكرتها فبهذا النطق يحد الانسان فيقال : انه حى ناطق مائت . فنطق الانسان وحياته من قبل النفس وموته من قبل الجسد ، لأن اسم الانسان انما هو واقع على النفس والجسد جميعا » (١) .

ذلك هو المستوى الثانى من مستويات اللغة عندهم ، وفيه ضوء مع المنطق الفكرى ، المنطق المعقول . ولن نستشعر الانسان الا اذا استشعرنا وجوده الروحانى والجسمانى ، وكذلك اللغة ، كن نستشعرها الا اذا استشعرنا منطقها الحسى - ألفاظها - منطقها الروحانى - معانى الأشياء فى ذاتها .

ثم نأتى الى المستوى الثالث من تفكيرهم اللغوى ، ونعنى به الربط بين النطق اللفظى المحسوس وتصور النفس معانى الأشياء . « واعلم أن النظر فى هذا المنطق الفكرى والبحث عنه ومعرفة كيفية النفس معانى الموجودات فى ذاتها بطريق الحواس ، وكيفية ادراك انقذاح المعانى فى فكرها من جهة الفعل الذى يسمى « الوحي والالهام » وعبارتها عنها بألفاظ بأية لغة كانت ، يسمى علم المنطق الفلسفى » (٢) .

هذه ثلاثة مستويات اذن يأخذ بها اخوان الصفا عند موقف الانسان من اللغة . أولها : التحقيق المحسوس عن طريق الأصوات ، وذاك حد المنطق اللغوى . وثانيها : التحقيق الادراكى للموجودات عن طريق الفكر ، وذاك المنطق الفكرى . وثالثها : ادراك عملية انقذاح المعانى فى الفكر بعد سماع الأصوات ، وذاك المنطق الفلسفى (٢) .

(١) المصدر السابق . ص ٢٦٢

(٢) الموضع السابق .

وأهم ما نحرص على إبرازه هنا هو : الإيحاء الواضح بفكرة الرمزية
القادرة من خلال المرحلة الأولى للنفاذ الى المرحلتين التاليتين .

وإذا كان مثل هذا التقسيم قد يبدو أمامنا منافيا لطبيعة اللغة التي
تأتينا دائما متحدة المستويات ، فان منهج التحليل هو القادر على أن يضيء
المسار حتى نرى كيف تتم للانسان تلك العملية الرائعة التي هي عند كل
خير فى حياته . فاللغة طريق واضح للمعرفة . وبها تدرك النفس معانى
الموجودات .

جنوح نحو المثالية

إذا كان المنهج التحليلي ، الذى وقف مع الألفاظ يحاول أن ينفذ الى سر بنائها سواء فى ذاتها أو فى اتصالها بالمحيط لم يستأثر وحده بالاهتمام ، فلان دربا آخر كان يجاوره ويجد فيه مرتاده الأرض أين موطننا من مثل ما صنعه مذهب الاشتقاق الأكبر أو التصاقب اللفظي أو الاحساس المعنوي . ولعل أوضح مراحل النهج الثانى الذى نقف معه كان استمرارا لما ذهب اليه أفلاطون من أن الرسم والموسيقى محاكاة للطبيعة ، وأن الحروف التى منها الكلمات هى وشائج تصطنعها اللغة لمحاكاة ما تريد أن تدركه . ثم سجل أرستو رأيه فى الامر واضحا ، وفصل بين مرحلتين من مراحل اللغة ، المنطوقة والمكتوبة . فعنده أن الكلمات التى ننطقها رموز لحالات تعيشها النفس ، ثم عنده أيضا ، أن الكلمات المكتوبة رموز للكلمات المنطوقة (١) . ولا شك فى أن المآخذ الذى يأخذ به أرستو دلالات اللغة يعتبر محورا أساسيا تدور حوله فلسفات لغوية معاصرة ، حتى وإن اختلفت فى تحليل تفاصيله . فكل ألفاظنا هى رموز نحاول بها إثارة مدركات خارجية أو داخلية ، وادرتها منبعثة أبدا من الحالات النفسية التى نعيشها : وكان كل تعبير عن النفس هو جهد لتحميل الدلائل اللغوية بعض ما فى النفس ، ان لم يكن كله . ولن يبتعد بنا ذلك كثيرا عن فلسفة الفن عامة التى قال بها المعلم الأول ، حين ألح على الدور التطهيرى الذى يقوم به الأداء الفنى . وحين أراد أرستو الحديث عن الكتابة ، كانت عنده مجرد تسجيل ، أو رمز جديد لرمز أول . وفى كلا الحالتين يصبح الكلام - أو الخط - تعبيرا يستهدف الوقوع مع الحالات التى تحرك اللفظ وربما العكس صحيح . ولقد يقلت اللفظ مما نألفه له من دلالة حسية وينحاز الى دلالة تجريدية يكتسبها حين يبتعد عن مرتبته الأولى ، ان وجدت ! ولا شئء يفرض مجالا ليتحرك فيه اللفظ إلا ما تضعه الألفاظ الأخرى . فالسياق ، أو وحدات الجمل ، هو الذى يمنح اللفظ دلالاته . فيوشك أن يخرج عن ارادة مستخدمة . وكم من مرة وقع الشعراء والكتاب على مساقات ردوا بها شباب ألفاظ بدت فى فترة من الفترات مترهلة

مبتذلة ، وكان الشيخوخة أكلت أوصالها . فإذا بما يشبه الدم الجديد ينساب فيها من أخواتها أو جاراتها . ولم يفلت الجدل الذى وضعه فلاسفة أثينا من فكر فلاسفتنا وأقلامهم ، لقد كانت لهم أيضا معالجتهم لصلة الالفاظ بالمعاني ، فى صورتها المنطوقة وفى صورتها المكتوبة .

تقول رسائل أخوان الصفا : « الحروف ثلاثة أنواع : فكرية ولفظية ، وخيالية ، فالفكرية هى صورة روحانية من افكار النفوس مصورة فى جواهرها قبل اخراجها معانيها بالالفاظ .

والحروف اللفظية هى أصوات محمولة فى الهواء ، مدركة بطريق الاذنين بالقوة السامعة ، والخطية : هى نفوس خطت بالأقلام فى وجوه الألواح وبطون الطوامير ، مدركة بالقوة الباصرة بطريق العينين « (١) . الزيادة الواضحة التى يبرزها النص هى تلك المرحلة الاولى التى تسبق عملية النطق أو التلفظ . وهى ما يعبرون عنه بأنها صورة روحانية من أفكار النفوس . وليس من المستحيل أن نتصورها صورة صوتية غير منطوقة ، أو هى صورة خطية مطبوعة على صفحة النفس . انها بلا شك بداية كل حدث كلامي ، وحين تتحقق ، تنتقل الى الصورة الحسية المسموعة . ثم حين ترسم ، تستقر فى وضع ثابت قابل فى الوقت نفسه لتقمص الحالة الصوتية ، فالحالة الروحية ، وكان الفريق مرتد على أعقابهم . ومن الطريف أن الفلاسفة السابقين قالوا : « اعلم أن الحروف الخطية انما وضعت سمات ليستدل بها على الحروف اللفظية ، والحروف اللفظية وضعت سمات ليستدل بها على الحروف الفكرية . والحروف الفكرية هى الأصل » (٢) .

تقرير أن الحروف الفكرية هى الأصل تقرير واع مدرك لمعايشة النفس للالفاظ قبل نطقها فى صورتها الصوتية ، أو قبل أن ترسمها فى صورتها الخطية . وهو اشارة واضحة الى الصور المخزنة التى تنشدها الحروف الفكرية .

(١) رسائل اخوان الصفا . ج ١ ص ٣٩٢

(٢) المصدر نفسه ص ٣٩٣

ومن جهة أخرى يعلق فيلسوفنا « الفارابي » على كلام أفلاطون حول صلة الألفاظ بدلالاتها فيقول : « انه - أى أفلاطون - قد فحص هل تلك الصناعة هي صناعة علم اللسان ، وهل اذا أحاط الانسان بالأسماء الدالة على المعاني حسب دلالتها عند جمهور تلك الأمة التي لها ذلك اللسان . يكون قد أحاط علما بجواهر الأشياء وحصل له بها ذلك العلم المطلوب . اذا كان أهل هذه الصناعة يظنون بأنفسهم ذلك ، تبين أنه لا تعطى هذه الصناعة ذلك العلم أصلا » (١) . صلة اللفظ بالموجودات هي شغل الفارابي في تعليقه . الشيخ القديم لم يكن يسلم بأن احتياز اللفظ احتياز للموجود ذاته . والقضية تثار من زاوية النظر الباحثة عن المعرفة : هل الدالات من وسائلها ! إلى أى حد تعيننا معرفة الدالة على معرفة ما نستهدفه بها ؟ ولقد انقسمت آراء فلاسفتنا الى ثلاثة متميزة ، يطبع كل واحد منها الموقف الفلسفى أو الاتجاه الذى يأخذ به صاحبه (٢) كان هناك رأى يستدل على خصائص العالم من خصائص اللغة . والتشابه بين التركيبين هو الذى يضيء الضوء أمام أصحاب الرأى ذاك ، لأن التعابير تقوم على الوحدات الجملية . فالجملة هي أقل ما يحمل دلالة الى السامع ، وفى كل جملة لابد من توافر جانبين هما : المسند اليه من جهة والمسند من الجهة الأخرى . وأشياء العالم تسير على هذا النحو من التأليف . فيها الجوهر من جهة ثم الخصائص التى تطرأ على ذلك الجوهر من جهة أخرى . هذا فيما يخص التعابير ، ثم حين ننظر الى المفردات ، نراها كلها مختلفة النوع ، مسمياتها مختلفة ، منها ما هو جزئى ومنها ما هو كلي . وفى العالم الخارجى ما يقابل ذلك : بجزئيته وبكليته . وكان ذلك مما دعا أفلاطون الى القول بوجود عالم بأسره فيه الكائنات الكلية ، هو عالم الأفكار أو عالم المثل ، ويقابل عالمنا المادى بكل ما فيه من أفراد جزئية . . . وهكذا فكل مفرد لغوى ، ولكل تركيب مقابل فى عالم الأشياء .

وأكد الفيلسوف العربى « جابر بن حيان » ذلك الرأى حين قال : « ان

(١) النص مأخوذ من كتاب « جابر بن حيان » لـ الدكتور بكرى نجيب محمود ص ١١٤ وهو هناك منقول عن كتاب « جابر بن حيان » للمستشرق « بول كراوس » ج ٢ ص ٣٢٨

(٢) المصدر السابق من ص ١٠٩ - ١١١

تركيب الكلام ينزم أن يكون مساويا لكل ما فى العالم من نبات وحيوان وحجر .

أما رأى الثانى : فقد كان من فريق فلاسفة يرون انه محال أن يتجاوز الانسان بعلمه حدود الكلمات اللغوية الى حيث العالم الخارجى . فنحن حين نقول « الورقة بيضاء » مثلا ، فاننا نشرح فى الواقع كل كلمة بأخرى . . . وكان كلا من المتحدث والسامع سيدور فى فلك الألفاظ التى يتفقها كل منهما من صاحبه . ومن ثمة تصبح كل معرفة - حتى ما نطلق عليها المعرفة العلمية - انما هى معرفة لغوية . الألفاظ فيها حاملة للمعنى ، والعقل - يتخطى عالمها .

وكان رأى الثالث للفلاسفة الذين يرون أنه فى وسع الانسان أن يدرك حقائق ما بغير الكلمات ، وذلك مصدره نقص اللغة وعجزها ، فهى عاجزة عن التعبير الكامل عن الحقيقة . ولهذا العجز لجأ الانسان الى طريق الإيحاء . ليستكمل به معرفته . وفى جانب هذا رأى يقف المتصوفة والفلاسفة الذين يأخذون بالادراك الحدسى .

تلك آراء تسعى لتفسير علاقة الفكر بالكون من جهة ثم علاقتها بالموجودات من جهة أخرى .

ادراك الانسان للكون يتمثل بادراكه للتركيب اللغوى القائم على الحدين اللغويين الأصليين ، حد المسند وحد المسند اليه . وكذا الكون ، هو تطابق فى المنهج وتماثل فى الروح الذى يجمع بينها . ثم حين يستقر الامر بين السؤال عن قدرة اللغة فى تجاوز الموجودات أو عن عجزها أمامها .

ولا شك أن ذاك السؤال هو الذى تنشط وراءه أبحاث الاستعارات والمجازات ، وأبحاث المنطق والنحو .

الجانب الشعرى فى اللغة هو الذى حرك السؤال ، فى حين يعجز المنطق « النثرى » عن التقاط ذلك الجانب ، يرقد العقل يفتش فى خفاياه عن مبررات للعجز . وكان هذا العجز نفسه هو الذى جعل علماء التفسير يقفون أمام ما سمي بالتفسير وما سمي بالتأويل .

وحين يضع علماءنا ذلك فالحس اللغوى مختلط تماما بالشعور الدينى . . . وتلك بلا شك سمة شعرية أخرى . ولعل أقدم ما حمل إلينا من توجيهات الألفاظ ما ينسب للخليل : « فأخذ التفسير من الفسر ، وهو البيان . قال : والتفسرة اسم للبول الذى تنظر فيه الأطباء وتستدل به على مرض البدن . وكل شئ يعرف به تفسير الشئ . فهو تفسرته » .

وقال غير الخليل : « التفسير مقلوب من السفر ، وهو كشط الشئ عن انشئ . كما تسفر الريح الغيم عن وجه السماء فتسفر ، والسفر أيضا كنس البيت وغيره . تقول : « سفرت المرأة اذا كشفت النقاب عن وجهها » (١) .

والمعنيان هنا يأخذان بأصلين ، فرأى الخليل أن « فسر » أصل قائم برأسه والرأى الآخر ينفى ذلك ويرده الى « سفر » وكأننا غير بعيدين عن تقلبات ابن جنى . ولكن من الواضح فى المساق أن الرأى الثانى الذى يجعل « سفر » أصلا يقدم من نماذجه وأصول معانيه دائرة أوسع . وكان المفسر هو الذى يفسر اللبس عن حكم النص أو الآية ببيانه . وحين تصبح مهمة المفسر مثل ذلك ، فمن العلماء من يقصر تعاطى التفسير على الأنبياء ، بحكم الحق الذى يكون لهم فى كشف غامض الآيات وتوضيح دلالاتها أمام المؤمنين . وكل تفسير هو ابانة لحكم اللفظ ، أو هو - كما عم مع المفسرين - عرض « ظاهر معنى الآية » .

وأما عن لفظة « التأويل » فقد قال فريق من قدمائنا : انها تفصيل من « أول » ومعناه : صرف اللفظ الى أوله وذلك أن أول كل شئ هو قصده القاصد لما يبتغيه . والمؤول اذن : يبين للسامع القصد الذى لأجله أورد اللفظ . واذا كان المؤولون قد استقروا على أنه « تحمیل اللفظ ما هو يحتمله من المعنى » أو أن التأويل هو علم احتمال اللغات ، فلكل واحد من أهل اللغة أن يتأوله بلغته . .

ففى كل المواقف يبدو أن التأويل الى أول الشئ كان احساسا من

(١) مقدمتان فى علوم القرآن من ١٧٣ وما بعدها .

وما لم ننص على مصدر آخر ستكون نقول من ذات الكتاب فى ذات المضمار .

الاشتقاقين بأن الأصل فى تفسير الألفاظ هو ردها الى مساقاتها فى لغات القوم ، وهكذا كان القول عندهم .

وفيما بين التفسير والتأويل . كان موقف العلماء من قوله تعالى « منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات » (سورة آل عمران آية ٦) فأخذوا المتشابهات هنا على أنها ضرب من النظم ، معجز بدور المحكمات ، ولكنه كان على المجاز والكنيات والاشارات والتلويحات ، وذلك لأن هذا الضرب هو المستحلى عند العرب الغريب من ألفاظهم ، البديع فى كلامهم . ومن ثمة كان التحدى يقع به ، ليكون من جنس المستحسن عندهم .

التفسير والتأويل كما نقول هو ضرب من تحديد الموقف ازاء الألفاظ والمعانى ، ازاء الظاهر والباطن ، أو ازاء القريب والبعيد حتى ان كان البعيد مفسرا برده الى أوله .

الحكم اذن فى هذا المجال هو للمعانى ! وذلك أمر لم يقو نفر من اللغويين على التحليق فوقه . وكان صورة المعانى المبتوثة لم تفارق تفكيرهم . ومن الممكن أن نأخذ ما قاله الجاحظ على أنه تكثيف للفكرة التى اعتورت الكثير من آرائهم . « ان المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والقروى والبدوى وانما الشأن فى اقامة الوزن وتخير الألفاظ وسهولة المخرج وصحة الطبع وكثرة الماء وجودة السبك » (١) .

حديث الجاحظ هذا التقط بأعين عجلي ، وعلق بالأذهان منه ذلك الشق السابق . ولكن لا تكتمل صورته الا بقوله « ان الشعر ضرب من التصوير » .

وكان صاحبنا يخص صناعة الشعر بجهد البحث عن الألفاظ التى تحقق ما سرد من أوصاف . وفلسفة تخصيص الشكل الشعرى بنوع من العناية فى اختيار الألفاظ كانت دائما موضع البحث .

ولا أحسب أن الرعاية الشكلية للشعر قاصرة على تحديد المعانى أو التصوير الذى يريده الشاعر ، ان « مبحث الألفاظ الشعرية يجب ان لا ينفصل مطلقا عن مبحث الألفاظ السحرية ، وكلاهما وعاء واحد للطاقة العاطفية والوجدانية » . ولذلك كثيرا ما وقع قدماؤنا فى عبث وطريق خادع حين تكلموا عن المعانى ، مستقلة ، أو عن الألفاظ منتمية الى فصاحة وبلاغة وما اليها . وكتاب أبى هلال العسكري « الصنائع » ثم كتاب « ابن الأثير » المثل السائر » وكذا كتاب ابن سنان الخفاجى « سر الفصاحة » تعج بالكثير فى مقاطعها بالنقاش الشكلى أو الضارب فى المتاهات .

ما بين اللفظ والماهية :

حرك التفكير اللغوى علاقة المعانى بعضها ببعض شوطا طويلا حتى أخذوا بنظرية النظم أو التأليف Syntax ولكنهم مع ذلك أثاروا سؤالا نستكمل لهم اجابته طبيعة العلاقة بين اللغة والعقل ، وكان سؤالهم : هل الألفاظ موضوعة بازاء الصور الذهنية أم بازاء الماهيات الخارجية ، ولابد أن نضع السؤال فى نطاقه المنطقى الذى حركه فأحسب أنه كان استكمالا للشروح التى قدمها الأصوليون والفلاسفة لكتاب « الأرجانون » الذى خلفه أرسطو وأثار به قرائح المتأخرين لتفسيره ، وإذا كنا نعرف أن « الأرجانون » كان يستهدف وضع قضايا القياس وجها الى وجه ازاء قضايا التصورات فيهما أن نستل من بين القضايا « قضية الحد » الذى شغل كل الناس : فقهاء وفلاسفة وأهل أصول ومناطقة ...

والحد هو علاقة يعقدها العقل بين لفظ يوضع ومعنى معين ، وهو قائم على تصور ثابت لتلك الصلة التى تقرنهما ، ومن ثمة فهو من باب التصورات ، وفى ضوء تلك المحاولة التى تسبق كل حد ، كان السؤال عن الصلة بين الأسماء والماهيات . وعند الإجابة اختلف المجيبون : فريق ذاهب الى أن الألفاظ تدور مع الصورة الذهنية ، وفريق معتقد بارتباط الألفاظ بالماهيات الخارجية .

أما أصحاب رأى الأول الذين يرون اللفظ دائرا مع الصور الذهنية فانهم يترسمون خطوات الامام فخر الدين الرازى ، ويضربون مثلهم على ذلك .

بقولهم « ان من رأى شجرا من بعيد وطنه حجرا أطلق عليه لفظ الحجر ، فاذا دنا منه وطنه شجرا أطلق عليه لفظ الشجر ، فاذا دنا منه وطنه فرسا أطلق اسم الفرس فاذا تحقق أنه انسان أطلق عليه لفظ الانسان » (١) .

المثال واضح الدلالة على أن اطلاق اللفظ أو وضعه يدور مع الصورة الذهنية دون الماهيات الخارجية ، وهذا مدخل كان أصحابه يرون فيه مدخلا الى المعرفة حين ترد الى الادراك الحدسى .

وفى مقابل ذلك رأى ينهض الشيخ أبو اسحاق الشيرازى مؤكدا أن الوجود الخارجى هو حافز وضع اللفظ . وعند أصحاب رأى أن اللفظ دائر مع المعانى الذهنية ، لاعتقاد أنها فى الخارج كذلك ، لا لمجرد اختلافها فى الذهن .

وكان رأى ثالث يجمع بين المذهبين وينسبه السيوطى الى الامام الأسنوى فى شرح منهاج الامام البيضاوى « ان اللفظ موضوع بازاء المعنى من حيث هو ، مع قطع النظر عن كونه ذهنيا أو خارجيا » (١) . وسر هذا الموقف أنه يرى استقلالاً للمعنى ، وحصوله فى الخارج أو فى الذهن ، يعتبر من الأوصاف الزائدة على المعنى . والأصل فى اللفظ المشدود الى معنى ألا نقيده بوصف زائد . وكانت « المجردات » مما دعم رأى ، فالمعنى الذى يدل لفظ « العلم » عليه - مثلا - لا ننتظر حين نطلقه أن يستقر العقل على وجوده وجودا ذهنيا ، أو وجودا خارجيا .

ومن هذه اللمحات التصورية ينبثق تصور آخر عن تفسير وضع اللفظ ، فهو اما أن يوضع لاعتبار عام أو يوضع لشخص معين . والاعتبار العام هو أن اللفظ يوضع حين يعقل أمر مشترك بين مشخصات ويصبح اللفظ موضوعا لكل فرد أو لكل واحد من هذه المشخصات بخصومه « بحيث لا يفاد ولا يفهم به إلا واحد بخصومه دون القدر المشترك ، فتعقل ذلك المشترك آلة للوضع ، لا انه الموضوع له » (٢) .

(١) المزهر ج ١ ص ٤٢

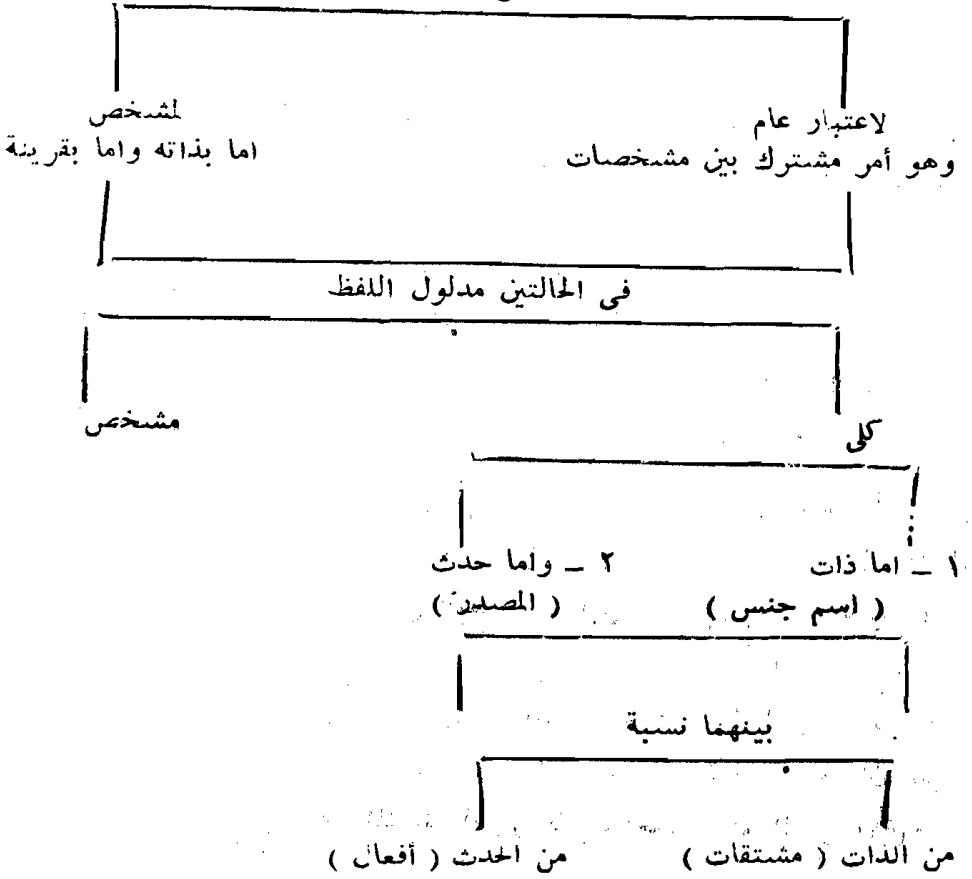
(٢) المصدر نفسه ص ٤٦

والذى يراد ههنا هو أن يكون الوضع كلياً ، أى يقصد به جمع من الشخصات ، أما الموضوع له فهو جزئى أو مشخص . والمثال الذى يضرب على ذلك هو وضع اسم الإشارة ، فهو موضوع لكلى ولكن مسماه أو المشار اليه يكون دائماً مشخصاً ، لا يقبل الشركة ، فكلمة مثل « هذا » ينطبق عليها وضعها « الكلى » ، ثم عند الاستخدام فهى دائماً مشخصة ، وهى لا تفيد التشخيص الا بقرينة تفيد تعيين المشار اليه . وضرورة هذا التميز أو الاضافة القرينية تنشأ عن استواء نسبة الوضع الى المسميات .

ويتولد عن هذا التصور للوضع الكلى وللوضع المشخص تصور آخر عن مدلول اللفظ ، يثريه الأصولى عضد الدين الأيجى : فعنده أن مدلول اللفظ اما كلى واما مشخص . على نفس النسق السابق ، وحين يكون المدلول عليه كلياً فاما أن يدل على الذات ، وهو ما يسميه النحاة « اسم الجنس » ، واما أن يدل على حدث ، وهو ما يسموله « المصدر » . وحين لا يستوعب هذا التقسيم مدلولات الألفاظ يشققون نسبة بينهما ، وذلك « اما أن يكون يعتبر من طرف الذات وهو المشتق أو من طرف الحدث وهو الفعل » (٧) .

هذا جهد من جهود أهل المنطق لتفتيت العلاقات بين الاسم والمسمى ثم بين الدالة والمدلول . وأحسب أن اللفظ المنطقى أو المقولات تتحكم فى القسمة التى تفرض على الدالات . والأصل الرمزى فيها ينفر من الحدود التى تأتيتها من الخارج .

وأنا واضع - كتاب - تخطيطاً بيانياً لمثل أقسامهم حتى تتضح صورة ذلك الفكر المنطقى المتعامل مع اللفظ ودلالته :



ومن التخطيط يتضح أنه حتى وإن لم نضع أسهما توضح اتجاه المسار فلن يصعب علينا أن نصعد بها من أسفل الى أعلى . وذلك نهج لم يرفضه علم اللغة ، بل ونادى به قداماؤنا حتى حين قرروا أن مرجحات تربط المسميات بأسمائها .

إن القضية كما سبق أن قلت تتعدى حدود الفاظ اللغة ، فهي في جوهرها بحث عن طريق تحصيل المعرفة ، والالفاظ أدواتها أو هي صورة من صور « تصور الفلاسفة لوجود قيام جوهر مادي خارج عن عقولنا بصياغته » وهي أيضا صورة من « رفض وجود هذه الصور ، إلا في العقل ، لأنها في نهاية الأمر ليست إلا أفكارنا عن الأشياء المادية ، أو هي صور ذاتية عنه . فهذا الجوهر المادي اذن ليس إلا مجرد وهم باطل » (١) وإذا كان الجدل الفلسفي قد وصل الى أن ظاهرة الأشياء ليست إلا ما يبدو لنا منها ، فكان الجدل حول علاقة الصور الدائرة في الذهن واللفظ المحرك لها هو نوع من الرغبة في الاشراف على سبيل من سبل المعرفة .

« بين التاريخية والوصفية »

تطور الدالات والدلالات :

مرت الدراسات اللغوية بأوروبا في مراحل عدة منذ أن قامت النهضة الحديثة . ولعل الكشف الذى سجله سيروليم جونز عام ١٧٨٦ ، حين استقرأ صلة اللغة « السنسكريتية » باللغات الأوروبية كان المدخل الذى نشطت بسببه الدراسات المقارنة ، سيات فى ذلك ما اتصل بالصوتيات أو بالتركيب .

ثم من تلك المقارنات ثرائت فكرة « التطور » للعلماء أملا فى الوصول الى صور بسيطة لنشوء اللغة قبل ارتقائها . وحين ضاع الأمل كان الجهد لكشف الآثار التى يحدثها المجتمع فى بناء اللغة ، بنظامها الصوتى أو بنظامها المعنوى . وفى هذه المرحلة يبدو تأثير فردينان دى سوسير واضحا قويا .

ولم تستطع المناهج التاريخية ولا المناهج الوصفية أن تقنع العقل اللغوى بأنه قد وصل الى شاطئ يطمئن اليه ، حين يبحث عن علاقة اللغة بالكائن الانسانى ، أو عن مدى التحولات التى تتعرض لها دلالات الألفاظ بحكم أنها هدف أولى فى كل استخداماتنا اللغوية .

وكان من الممكن أن تكفى تلك المناهج المختلفة التى قلب بها اللغويون والنحاة والفلاسفة والمفكرون اللغة ، ولكن الصعوبة تنشأ دائما من أن اللغة « وعاء » للنفس والوجدان مع حملها الطاقة الموضوعية . أعنى : أن كون اللغة تجمع الجانبين العقلى والوجدانى يجعل الاستقرار على تصور كامل لها شيئا يشبه المستحيل .

ولعل ذلك ما جعل أحد تلاميذ دى سوسير وهو « انطوان مده » يقول : « ان اللغة تمثل نظاما بالغ الحساسية وبالغ التعقيد ، وكل ما فيه

• يتماسك بصورة شديدة ، ولا يسمح بتغييرات جزافية أو نزوية « (١) .

ان جهدا كبيرا أصبح مجرد تسجيل تاريخي لمحاولات العلماء (٢) ويفصح عن كل ما بذل من نظرات واجتهادات ما زالت أصدائها واضحة حتى وان تلاشت تأثيراتها .

وفيما يخص بحوث الدلالة ، فمما لا شك فيه أن كتابي: أرسين درمستتر "Arsène Dermesteter" ، وميشيل بريال "Michel Bréal" قد لعبا دورا واضحا في توجيه الأنظار نحو قضية الدلالات .

والكتاب الأول هو : دراسة حياة الألفاظ من خلال معانيها :

"La Vie des mots étudiée dans leurs significations"

والعنوان ينم عن اتجاهه لعلاج الألفاظ ككائن حي ، له حياته وله نهايته ، وبسبب هذه الروح كان الاعتراض عليه ، لأن حياة الألفاظ مقترنة بالإنسان الذي يستخدمها ، ويصبح تصور حياتها : حية أو ميتة عدوى منتقلة من فلسفة عصره ، عصر نظرية « داروين » (١٨٠٩ - ١٨٨٢) إذا علمنا أن الكتاب قد نشر عام ١٨٨٧ .

وأما الكتاب الثاني فهو : « مقال في علم الدلالة ، علم المعاني » ،

"Essai de Sémantique, Science des significations"

(١) كتب مييه Meillet نصه ضمن مقالته عن كتاب « بريال » Bréal الذي خصصه للبحث عن الدلالات . والنص في « فرنسيته » موجود في كتاب :

Simeon Potter; Language in the Modern World, P. 154.

(٢) لاستعراض أهم المراحل التي مرت بها دراسة اللغة يمكن أن نجد عرضا كافيا عند :

(أ) 130-162 ; 12 (9-) Simeon Potter, Language in Mod. World, P.

(ب) كتاب مناهج البحث في اللغة للدكتور ثمام حسان ، ص ١٤ : ٣٠

(ج) كتاب علم اللغة للدكتور مخمود السمران من ص ٣٥٨ : ٣٨٠

والماخذ الذى كان عليه أنه اهتم بالاشتقاق من وجهه النظر التاريخيه ولذلك كان حرصه على الناحية التسجيلية أوضح من حرصه على القيمة الحشورية "actuelle" للألفاظ أو للصيغ اللغوية .

ومن بعد ذلك الاتجاه نشطت المباحث حول صلة المباني بالمعاني . وأخذ لغويو أوروبا بفكرة الرمز "Symbole" ومن ثمة سارت بحوثهم فى شعبتين : واحدة تبحث عن علاقات بين المفردات وما يستحدثه ذلك من صور نفسانية واجتماعية ، وصلة تلك الصور بالمخترن اللغوى الذى يعيه المخ . وهذه الدراسات هى التى تلتقى بها حين ندرس اللغة كنظام صوتى واسع أو "Système de rapports".

أما الشعبة الثانية فقد نشطت للفرقة بين الوحدات الصوتية التى تتشكل منها الكلمات بغية معرفة أثر تلك الوحدات أو « الفوينمات » "Phonology" التى اشتقها الفرنسيون من اليونانية القديمة بمعنى الصوت أو الحديث ، وحتى تصل أبحاثهم الى نتائج كانت الدراسة التحليلية "Etude analitique" هى التى أغرتهم . وفى ضوء هذا نقف مع جهد بذله أحد فلاسفة اللغة الهولنديين H.G. Pos حين سعى الى رآب الصدع الذى ظهر بين دراسة علم الأصوات "Phonology" وعلم الدلالة "Semantics" ، ولقد قال يوز : ان علم الأصوات قد عقد الصلة بين الصوتيات "Phonetics" والدلالات "Semantics" ، ومن ثمة لا نسمى الأول منهما قسما ثانويا "Sub-division" ، ولكنه مدخل للدلالات "Antechamber of semantics".

ان الانتقال من الفونيم الذى يدل على ذاته بذاته الى الكلمة التى تدل على شيء آخر ليس بالانتقال الكبير مادامنا نحمل فى عقولنا أن الكلمات تتكون دائما من فوينمات . وأن المعانى التى تنشأ حين ننظم الكلمات فى جمل تامة هى بدورها مختلفة بصورة واضحة عن معانى المفردات مستقلة « (١) » .

نظره . نور ، محاولة جريئة لربط جرس الحروف بالدلالة . وهو بذلك يربط بين الفونيم والكلمة ، كما يربط في مقابله بين الكلمة والتركيب . ولكن النظرية لم تكن لتقنع النحويين الذين يردون الرأي الذاهب الى أن لونا من الصلة يربط أجراس الحروف بدلالات الالفاظ . ومن الممكن أن نلخص ما أثاره المعترضون على نظرية « بوز » في ثلاثة مجالات يجمعها « استيفان أولان » ، الأول فيها يمس آراء « بوز » ، مسا مباشرا .

١ - القول بأن الفونيم ذو دلالة ذاتية يحمل التناقض . فلا شيء يحمل دلالة ما دمنا لا نملك « دالة » و « مدلولاً عنه » . فافتراض أن الفونيم شعار الدالة ، ثم هو في الوقت نفسه شعار المدلول عليه افتراض مستحيل .

٢ - ان تصورنا للكلمات متكونة من فونيمات تصور يتناول الكلمة من الوجهة الشكلية فقط . ولناخذ مثلاً لفظة "table" انها تتكون من تتابع عناصر صوتية ، ولكن دلالة - أو معنى - اللفظ اللاتيني "Mensa" « المائدة » لا شأن لها مطلقاً بهذه العناصر الصوتية المكونة للفظه table وذلك أمر لا مشاحة فيه بحكم القاعدة القائلة بأن الفونيمات ليست رموزاً كاملة ، ولكنها مجرد عناصر متدخلة لتكوين الرمز .

٣ - افتراض أن صلة تجمع معنى « الفونيمات » مع معنى « الكلمات » ثم تشبيه ذلك بصلة معنى الكلمة بمعنى الجملة مجرد هراء . فمن الواضح أن كلا من كلمة table وجملة The table is round لا ترتبطان الا في شكل قاصر . وفونيمات ... t-a-b... لا تعنى أى جزء في المعنى الذى تركبت منه الكلمة ، وكان مهمة الفونيمات قاصرة على الاشتراك في بناء وحدات أكبر منها . وتنتهى تلك المهمة بمجرد أن يتم ذلك البناء ، ويسمح تعدد الفونيمات وتنوعها باحداث التباين بين المعانى .

الثانى : وهو غير بعيد عن الانتماء المباشر ، فإذا كانت الكلمات التى يشتمل فيها النظام الصوتى بنوع من المحاكاة لأصوات الطبيعة (الأونوماتوبيا) (Onomatopoeia) أو لصيحات الانفعال (Exclamatian)

نقدم سنداً لنظريه بوز (Pos) ، فلا بد من ادراك أن هذه المحاكاة تخضع لنوع من الاتفاق النسبي أو لنقل المحاكاة الجزئية . ومن ثمة فبى تغيير من لغة الى أخرى . ومن جيل لجيل ، وهذه النسبية تحول دون قيام افتراض عنى ثابت (١) .

والى جانب هذا الاعتراض المباشر على نظرية بوز (Pos) ، فإن دى سوسير محرك الدراسات اللغوية الحديثة فى أوروبا يقرر أن الكلام (Parole) ليس مجرد سلسلة من (الفونيمات والمورفيمات morphemes - الدالات الصرفية) تتتابع كما تتتابع حبات المسبحة ، فاللغة عنده تراكيب ذات مستويات مختلفة ، وأى تغيير فى جزء من أجزائها يحتم تغييراً فى المستويات الأخرى ، فالتغيير اللغوى يشبه حركة من حركات قطع الشطرنج : تحدث الأثر ولا يدرك مداه الا مع النهاية (٢) .

الثالث : ويجمع بين بعض سمات اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة ، ذلك أن هذا الاعتراض يقف مع بعض الظواهر الصوتية التى تميل الى حذف أجزاء من بنية الألفاظ ، ومن ثمة فهو اعتراض على فكرة احياء الفونيمات بأجزاء من الدالات . ويتحرك الاعتراض قدما ليحول دون محاولات تعريف اللفظ بأنه تتابع لمجموعة من الأصوات . ففي الانجليزية مثلاً حشد كبير من الكلمات تفقد أجزاءها أو بعضها منها ، فكلمة مثل : don't تأتى بدلا من do not ، وكلمة مثل she'll تأتى بدلا من She will ومع ذلك فإن الدلالة تبقى كاملة . وفى اللغة الفرنسية اذا كانت الكتابة تحتفظ بالكثير من الفونيمات ، فإن النطق يكسبها حضوراً أو غياباً ، ورغم ذلك فلا شىء يستحدث فيما يخص الدلالة ، ويمكن أن نسوق مثالين يستكملان النطق ، ومثالين ينتقص النطق منهما بعض الحروف :

Les femmes , Les tables ثم Les étoiles , Les hommes

(١) المرجع السابق : ص ٢٧ : ٣٦

(٢) شرح دى سوسير ما يعنيه بمستويات اللغة من داخل تشبيهه لها بالشطرنج ، ويمكن مراجعة صفحات ٤٣ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٥٣ من كتابه .

مظهر حرف (S) الدال على الجمع في أداة التعريف بالمتالين الأولين لم يفرض لهما دلالة رائدة عن صويهما اللذين فقدا ال (S) عند النطق بها كما في المتالين المتأخرين .

هذه أهم الاعتراضات التي تقف أزاء محاولة تحييل اللفاظ الى مكوناتها الصوتية رافضة أن تطوع أجراس الفونيمات لترتبط بمعان محددة ارتباطا ذاتيا .

وحين نضع الاعتراضين الأولين على محك الآراء التي رأينا صدرا منها مع نفر من لغويينا ، فلن تصعب رؤية الاحتجاج عليهما من طبيعة اللغة العربية الآخذة بالاشتقاق كمبدأ من مبادئ نموها وتطورها . وأما الاعتراض الثالث وهو الدائر حول الحذف والزيادة في الكلمات ، فانه مطروح في مساقات العربية منذ أوائل عهود التقعيد والتنسيق ، قبله النحاة وقبله البلاغيون وقبله الشعراء والنقاد .

قرر سيبويه الأمر في كتابه . وأخذ من بعده كل من تصدى للدس . يقول صاحب الكتاب : « اعلم أنهم مما يحذفون الكلم وإن كان أصله في الكلام غير ذلك ، ويحذفون ويعوضون ، ويستغنون بالشئ عن الشئ الذي أصله في كلامهم أن يستعمل حتى يصير ساقطا . فمما حذف وأصله في الكلام غير ذلك : لم يك ولا أدر وأشبه ذلك . وأما استغنائهم بالشئ عن الشئ فانهم يقولون بدع ولا يقولون ودع . استغنوا عنها بترك وأشبه ذلك كثير . . » (١) وفي ضوء هذه الملاحظة يمكن أن نسلك بقية أقوال اللغويين ونقاد الشعراء .

ولابن قتيبة كلام يقول فيه : « ان العرب يحذفون من الكلمة الحرف والشرط والأكثر ، وينقصون البعض والشرط والأكثر ، يوزون به ويومثون ، يقولون : لم يك فيحذفون النون مع حذفهم الواو لاجتماع

(١) سيبويه الكتاب ج ١ ص ٢٤ - ٢٥ . وكلمة « عا » في أول النص يرجحها

السرازمي على أنها تعني زعم .

الساكين ، ويقولون يا صاح ، يريدون يا صاحبي . وقال الفراء في قولهم (سترى) انما أرادوا (سوف ترى) فحذفوا الواو والفاء « (١) » . وما يذهب اليه ابن قتيبة قواعده واضحة ، ثم لعله من الأبواب التي اهتم بها نقاد اللغة طوال العصور ، وكثير مما جاءت به ضرورات الشعر هي أضرب على الحدو . ويعبر أبو عبد الله القزاز القيرواني في كتابه « ضرائر الشعر » عن القضية بقوله : « ومما يجوز للشاعر : الاجتزاء بحرف من الكلمة يدل على سائرهما كما قال الشاعر :

بالخير خير آت وان شرافا ولا أريد الشر الا أن تا

يريد ان شرا فشر ، ولا أريد الشر الا أن تريده والا أن تشاء » (٢) .

ومثل هذا الحذف ليس قاصرا على أبيات يبدو العبث غير بعيد عند استقبالها ، فالشاعر ليبد يقول :

درس المنا بمتالع فابان بالحسين البيد والسوبان

فكلمة المنا يريد بها هنا المنازل (٣) .

وقول الآخر :

ثم تنادوا بعد ذاك الضوضا منهم بهات وهلا ويابا

نادى مناد منهم ألا تا قالوا جميعا كلهم ألا تا

يريد بذلك : ألا تركبون (٤) .

(١) القرطبي : ج ١ ، ص ٩

(٢) القزاز القيرواني : ضرائر الشعر ، ص ٢٢٢

(٣) الجرجاني : الوساطة ، ص ٤٥٠ - وأنظر لسان العرب مادة منو

(٤) المصدر السابق ، ورواية أخرى في ضرائر القزاز ص ٢٢٣

تنادوهم أن ألبوا الأتيا قالوا جميعا كلهم بلى فسا

يريدون ألا تركبون قالوا : بلى فاركبوا

وكما بجريء الشعراء بعض أجزاء من بنية الكلمة . فابهم برسر
فيها مثلما يقول شبيب بن ثعلبة :

ولسبة الحرقوص بالقفن ودمل فى الاست مستقرن
أحب منك موضع الوشجن فذاك من ذاك الى السنن
قطنة من أجود القطن

ويعلق على بن عبد العزيز الجرجاني بقوله : « زاد الشاعر هذه
التونان » (١) .

ولكن مع كل ما قرره النحاة والنقاد واللغويون . هناك شيء آخر
لا بد من ادراكه ، ذاك هو الموقف النفسى لسامع النص ، فالعقل يقوم دائما
بعملية استكمال لما نسميه لغويا (الحذف) . وأثناء ذلك يستمرى التفكير
اللغوى الوضع . بل انه ينتصر حين يستطيع عبور الفجوة الصوتية التى
تفصله عن الدلالة الكاملة . كما لا يتردد التفكير اللغوى عن حذف كل
الحروف أو الكلمات التى يستشعر فيها زيادة عن القوالب التى عركتها
خبرته اللغوية . واذا استطاع النظام الصوتى للشاعر وللسامع أن يرتد
الى الفه فسيكون الاجتزاء توكيدا للدور الذى يقوم به العقل فى بناء اللغة .
والموقف الذى يبرر هذه الحالات اللغوية هو أن الالفاظ لم تخرج عن فلكها
الذى رسمه لها تتابع صوتى ، أو سلسلة صوتية رغم كل العوامل الطارئة
على بنائها ، فذهن المتحدث وذهن السامع يحتفظان بلامح الكلمة الكامنة -
أو فى صورتها المثلى - طالما وعى كل منهما الأصول لمادته اللغوية ، أما حين
تقصر المعرفة عن تقبل هذه الصيغ المتغيرة فتصبح فى عجز عن استيعاب
الدلالة . ومصدر فقدان ليس غياب دالات أو « فونيمات » ذات دلالة
ذاتية ، وإنما مصدره غياب الالف والمعاني الصوتية .

(١) مرجعه السابق . لسبة = عضة . الحرقوص = دويبة كالبرغوث لها حمة كالبربور .

وإذا كان مثل ذلك الحوار بين اتجاهين ، أحدهما يتوقع الكلمات كاملة والآخر يتربص بكل غياب أو زيادة ليسمه بالضرورة فيجوزها أو لا يجوزها ، فإن محاولات ربط المعاني بالأصوات الكلاسيكية تتأرجح بين التسليم للنظرية وبين الرفض لها . ومع ذلك فإن وجهة النظر التي يمكن أن تتراءى لنا بغير حرص على التوفيق أو على التلفيق يمكن أن نلقاها حين نسلم بأن مجموعات من الألفاظ يمكن أن تخضع لمثل المواضعة التي تربط الدالات بالدلالات بحكم كم أسطوري أو سحري أحاط بتلك المجموعة . وليس من المرفوض أن تكون مجموعات أخرى قد نأت عن مثل ذاك الأفق أو أن تكون أصولها البعيدة قد ضاعت في طيات التاريخ الطويل والمبهم .

ومثل هذا سيفضى بنا الى نفى الصلة الدلالية بين مكونات اللفظ وصورته النهائية ، أو الى نفى كون الأصوات رموزا تحمل معان بفعل ذات الرموز .

ولا شك في أن للنظر هذا مساره ، فمهما كانت الصفات الخاصة بالمرئيات الصوتية « فونيمات » فمن العسير أن نتصورها مبتلعة الخصائص المستقلة والكاملة للألفاظ ، لأن لاستخدام اللغة نطاق ضخم يجب أن يشكل نظرنا إليها . أعني إذا غاب الحديث عن أصولها البعيدة نستبقى لنا المعاصرة ، وتلك غاية تستحق ألعناء . ويكاد كل السنا يحيط بـ « الرمز » .

التفاعل بين الدلالة والاعراب :

لم تكن قضية اللفظ والمعنى فى نظر اللغويين - وهى مختلفة - تماما عما أخذ به النقاد والبلاغيون^(١) - قائمة فقط حول أصل المادة اللغوية وطريقة وضعها أو الاصطلاح عليها . وانما كان الاعراب مما أثار حسهم فهو عندهم من العلوم الجليلة التى خصت بها العرب ، وهو الفارق بين المعانى المتكافئة فى اللفظ . وبه يعرف الخبر الذى هو أصل الكلام . ولولاه ما ميز فاعل من مفعول ولا مضاف من منعوت . ولا تعجب من استفهام ولا صدر من مصدر ، ولا نعت من توكيد^(٢) . وحين نترك وراء الأذن كل المقولات النحوية فى العبارة ونأخذ المضمون اللغوى أو الدلالى ، فاننا نلمس القضية فى صورة واضحة : الاعراب فارق بين المعانى . وحين يستقر الرأى على ذلك تصبح مقولات النحاة من فاعلية ومفعولية و . . . و . . . ضروبا من الأوصاف المنطقية التى هى مدخولة على اللغة . وحين طرح السؤال عما دعا الى الاعراب واحتج اليه من أجله ؟ كان الجواب « ان الاسماء لما كانت تعتبرها المعانى ، فتكون فاعلة ومفعولة ومضافة ومضافا اليها ، ولم تكن فى صورها وأبنيتها أدلة على هذه المعانى بل كانت مشتركة ، جعلت حركات الاعراب فيها تنبئ عن هذه المعانى »^(٣) والقضية كما يعرضها صاحب علل النحو تبدو غريبة . فالأسماء فى أصلها متعاورة بين المعانى . وذاك شأن كل اللغات ، وشأن ما بنى فى عربيتنا وما أعرب . ومورد الموقف هنا أن أصحاب العلل يقفون مع الالفاظ مستقلة ويميلونها الى أشياء منفصلة عن التفكير أو عن الارتباط ذهنى حين تنخرط فى العلاقات التى تسفر عن الفاعلية أو غيرها .

(١) علينا أن ندرك أن موقف هؤلاء : كان سعيهم وراء الوضوح والغموض . أو المبررات أو الإبلاغ المعنوى . أما اللغويون فكان يحثهم فى الأصل عن صلة الدالة - اللفظ - بالمعنى وهو المدلول عليه .

(٢) الصحاح فى فقه اللغة ص ٤٢

(٣) الايضاح للإحسانى ص ٦٩

والكلام غير المعرب قريب من المعرب كثرة ، منه الأفعال الماضية وفعل الأمر للمواجه وحروف المعاني وكثير من الأسماء ، وإزاء ذلك يقررون « ان الاعراب عرض داخل في الكلام لمعنى يوجد ويدل عليه » ومن ثمة فان الكلام سابقه في المرتبة ، والاعراب تابع من توابعه . ورغم هذه المحاولة من فلاسفة النحو عن ترتيب الأشياء تقديما وتأخيرا ، وهو بدوره منطق بجانب منطق اللغة ، فان القضية لا تحل بتقديم ولا بتأخير . ومثل هذا التهشيم لبنية اللغة وطبيعتها هو الذي جعل الجاحظ يحمل على النحو حين رآه يزهد في البيان ويفرض على صاحبه وقفة دائمة مع الشكل أو مع مقاييس عقلية يبتعد بها النص عن الجانب الوجداني أو البياني . « وأما النحو فلا تشغل قلبك منه الا بقدر ما يؤديه الى السلامة من فاحش اللحن ، ومن مقدار جهل العوام في كتابان كتبه ، وشعر ان أنشده ، وشيء ان وصفه ، وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به ، ومذهل عما هو أرد اليه منه : من رواية المثل والشاهد والخبر الصادق والتعبير البارع ، وانما يرغب في بلوغ غايته ومجاوزة الاقتصاد فيه من لا يحتاج الى تعرف جسيمات الأمور والاستنباط لغوامض التدبر ، لمصالح العباد والبلاد ، والعلم بالأركان ، والقطب الذي تدور عليه الرحي . ومن ليس له حظ غيره ولا مكان سواء ، وعويص النحو لا يجري في المعاملات ولا يضطر اليه شيء » (١) .

الجاحظ قلق من الاسراف في طلب النحو ، لأن ذلك عنده أخذ بالشكل ، وخضوع لمقولات تفرض على اللغة . ولا يعنى ذلك أن صاحبنا كان ثائرا على القاعدة أو راغبا في عزلها ، كل ما في الأمر أنه يأخذ اللغة بشموليتها ، « بنظمها » . وهو من أوائل القائلين بالنظم ، وأحس أن الغوص وراء مقولات النحو تجعله غاية أو تفصله عن النظام الصوتي الذي تعرفه العربية .

الجاحظ يحدد موقفه ذاك ، لأنه رجل بيان ونقد . وهكذا فهم آنذاك ، فصل أو شبه فصل بين الالفاظ والمعاني . واذا كانت القضية قد تسربت الى

الادباء بعد طول الوقوف مع النحاة ومقولاتهم ، فلقد كان حسهم اللغوي سليما .

وكما انتصر الادباء للحس اللغوي ، كذلك كان موقف الكثيرين من المفسرين ، كان الانتصار للمعاني . لقد قرروا قضيتهم في حكمهم : ان الاعراب فرع المعنى . وهاك السيوطي بعد أن يعرض في اتقانه شروط المفسر . ويناقش مسألة الاعراب ، يصل الى قوله : « قد يتجاذب المعنى والاعراب الشيء الواحد ، بأن يوجد في الكلام أن المعنى يدعو الى أمر ، والاعراب يمنع منه ، والتمسك به : صحة المعنى ، ويؤول لصحة المعنى الاعراب » (١) المعنى هنا هو الأصل ، فان حاد الفرع عن مجاراته ، فلتكن التضحية به ، وليكن التمسك بالجوهر ، فمثل ذلك التشبث أو الترجيح هو الذي جوز لبعض علمائهم طرح قضية : « ان تكون العرب نطقت أولا بالكلام غير معرب ، ثم رأت اشتباه المعاني فاعربت ، ثم نقل معربا فنتكلم به » (٢) . ولم يكن من الممكن أن يلقي السؤال الا ان أحدث العقل اللغوي مفارقة بين الدلالة والاعراب . ومع ذلك فالفرض لا يحل الموقف ، لأنه - كذلك - اقحام للمنطق الشكلي في مجال كلية اللغة . ولو أن الاعراب كان بقصد توضيح المعاني ، لوجب أن يكون لكل معنى اعراب يدل عليه ، لا يزول الا بزواله ، وذاك فرض ميتافيزيقي دخيل . واذا كان بعض رجاء النحو قد آثروا تفسير دخول حركات الاعراب بردها الى أسباب صوتية يعتدل بفضلها الكلام حين ينتقل النطق « بين متحرك وساكن ومتحركين وساكن » (٣) فان ذلك تفسير لواقع أو اجتهاد لتعليل .

وقد يخرج نمر من النحاة بفنهم عن مجرد وضع معاني الألفاظ في النسق وعلاقاتها وفق المقولات فيرون أن النحو يتخطى الخطأ والصواب . فهذا أبو سعيد السيرافي ، صاحب نحو البصرة يقول « ان معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته ، وبين وضع الحروف في مواضعها

(١) السيوطي : الاتقان في علوم القرآن ج ١ ، ص ٣١١

(٢) الزجاجي : الايضاح في علل النحو ، ص ٦٩

(٣) ذلك هو رأى محمد بن المستنير قطرب ، تلميذ سيبويه ، انظر رأيه في ايضاح

المقتضية لها ، وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير ، وتوخى الصواب في ذلك ، وتجنب الخطأ من ذلك .

وان زاغ شيء عن هذا النعت فانه لا يخلو من أن يكون سائغا

بالاستعمال النادر ، والتأويل البعيد ، أو مردودا لخروجه عن عادة القوم الجارية على فطرتهم « (١) » .

مهمة النحو عند صاحبنا هي تفسير سلامة اللفظ في سكناته وحركاته ، وسلامته داخل الاطار العام الذى نسلكه فيه حين تركيبه مع غيره . وهو اذن يفصله على جانب علم المعانى الذى يتوقف مع التقديم والتأخير وكان النحو معين على البلوغ .

ولعل الذى هو أصنع هو ما قالوه حين طرح السؤال : « فاخبروني عن الكلام المنطوق به الذى نعرفه الآن بيننا ، أتقولون ان العرب كانت نطقت به زمانا غير معرب ثم أدخلت عليه الاعراب أم هكذا نطقت به فى أول تبليل ألسنتها ؟ » .

وجواب هذا السؤال هو الذى أوثره فى القضية لأنه يحسم الأمر ويطفىء شرارة جدل نحوى أو منطقى لا يقدم شيئا وربما يرهق اللغة ذاتها .

قالوا « هكذا نطقت به فى أول وهلة ، ولم تنطق به زمانا غير معرب ثم أعربته » (٢) .

هو اذن من ظواهر العربية ومكمل للعلامة اللغوية أو الدالة . ونحن حين نتحدث عن دالة فلا بد أن يكون حديثنا وسط حشد من الدالات ، المكونة للدلالة العامة المتراكبة . فبدون ذلك لسنا الا أمام وحدات صدئة من معجم ليس فيه غناء . ان رصيذا هائلا يحيط بكل لفظة : رصيدها الصوتى ورصيدها الاعرابى ثم رصيدها المعجمى الذى لن يعرف الثبات الا

(١) التوحيدى ، الامتاع والمؤانسة ، ص ١٢١

(٢) الايضاح ، ص ٦٧ ، ٦٨

عندما تتحول الوحدة من أفق الى أفق مع تحول حضارى مرموق ، مثل ذلك الذى مرت به ألفاظ الجاهلية بعد أن نشر الاسلام عقيدته وحضارته .

وإذا كانت محاورات النحاة بين بعضهم البعض ، سواء الآخذون بالعلل الفلسفية أو الآخذون بالعلل النحوية لم تكن كافية فان منطقيا ونحويا يعقدان محاورة من أروع المحاورات التى سجلها علم اللغة القديم ، وسجلها الأديب الفيلسوف أبو حيان التوحيدي (١) . وهو يحدثنا عن زمانها بأنه فى سنة ستة وعشرين وثلاثمائة ، وأن قطيبها كانا أبا سعيد السيرافى رأس نحاة البصرة ومتى بن يونس رأس المترجمين فى زمانه .

سأل أبو سعيد محاوره (متى) عن المنطق ، ما يعنى به ؟ فقال له متى : أعنى به أنه آلة من آلات الكلام يعرف بها صحيح الكلام من سقيمه وفاسده . المعنى من صالحه ، كالميزان ، فأنى أعرف به الرجحان من النقضان والشاغل من الجانح .

ولم يكن أبو سعيد ليقنع بهذا الرد ، لأن صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالنظم المألوف ، والاعراب المعروف اذا كنا نتكلم بالعربية ، كما أن فاسد المعنى وصالحه يعرف بالعقل اذا كنا نبحث عنه بالعقل . ثم يقول له : هبك عرفت الراجح من الناقص عن طريق الوزن ، فمن لك بمعرفة الموزون ، أيما هو حديد أو ذهب أو شبه أو رصاص . . فكان معرفة الوزن لا تغنى عن معرفة جوهر الموزون ، وعن معرفته قيمته وسائر صفاته . . وليس كل ما فى الدنيا يوزن ، بل فيها ما يوزن وفيها ما يذلع وفيها ما يمسح . . وكذلك الأمر فى المعقولات المقررة .

ان الاحساسات ظلال العقول تحكيها بالتقريب والتبعيد ، مع الشبهة المحفوظ والمائلة الظاهرة .

(١) المحاورة تمثل ما دار فى إحدى المسامرات التى سجلها التوحيدي فى كتابه الشيق

« الامتاع والمؤانسة » وما تعرضه منها خاضع لتعرفنا هروبا من التحويل .

ونصها الكامل فى الجزء الأول من الكتاب طبعة المرحوم أحمد أمين ، ص ١٠٨ وما بعدها .

وهى واردة كذلك فى معجم الأدباء لياقوت ، ج ٨

وحتى هنا والحوار من جانب السيرافى يستدرج خصمه الى الوقوف امام الشكل ، شكل القياس الذى قاس عليه متى . ولذلك ينبرى هذا ليدفع بأن المنطق لازم لأنه بحث عن الأغراض المعقولة ، والمعانى المدركة ، كما أنه تصفح للخواطر السانحة والسوانح الهاجسة . وان الناس فى المعقولات سواء ، ألا نرى أنه أربعة وأربعة ثمانية سواء عند جميع الأمم . ويرفض السيرافى ذلك المنطق ، فهو يرد المطلوبات بالعقل والمذكورات باللفظ الى تلك المرتبة البينة .

ويستطرد محاورا : اذا كانت الاغراض المعقولة أو المعانى المدركة لا يوصل اليها الا باللغة الجامعة للأسماء والأفعال والحروف فتلك حاجة ملزمة لمعرفة اللغة . .

وواضح أن جدل السيرافى هنا يدور حول اللغة كوسيلة للمدركات . واستمر القطبان حتى سأل أبو سعيد مجادله المنطقى متى قائلا : أسألك عن حرف « الواو » وهو دائر فى كلام العرب ، ومعانيه متميزة عند أهل العقل ، فما أحكامه ؟ وكيف مواقعه ؟ وهل هو على وجه أو وجوه ؟ فبهت متى وقال : هذا نحو . والنحو لم أنظر فيه لأنه لا حاجة بالمنطقى اليه ، وبالنحو حاجة شديدة الى المنطق ، لأن المنطق يبحث عن المعنى والنحو يبحث عن اللفظ ، فان مر المنطقى باللفظ فبالعرض ، وان عثر النحوى بالمعنى فبالعرض والمعنى أشرف من اللفظ واللفظ أوضح من المعنى .

ورأى متى أن الاسم والفعل والحرف تكفى ليبلغ بها كل متحدث أغراضه ، دون كل ذلك الهم الذى ينشغل به النحاة . ولكن أبا سعيد يعرض حسه اللغوى الذى يرفض ان لغة من اللغات تطابق لغة أخرى : من جميع جهاتها ، بحدود صفاتها فى اسمائها وأفعالها ، وحروفها ، وتأليفها ، وتحقيقها واستعاراتها ، وتشديداتها وتخفيفها . وسعتها وضيقها ، ونظمها ونثرها ، وسجعها ووزنها وميلها ، وغير ذلك مما يطول ذكره . وصاحبنا يؤكد ذلك « خاصية اللغة » واستحالة تشابه لغتين : ولعل ذلك بذور بعيدة لما يذهب اليه علم اللغة الحديث من استحالة تشابه جملة واحدة تنطق مرتين . ويؤكد السيرافى نظرتة بقوله : « واذا سلمنا أن الترجمة صدقت وما كذبت ،

وقسومت وما حرفت ، ووزنت وما جزفت ، وأنهما ما التائت ولا حانئت ،
ولا نقصت ولا زادت ، ولا قدمت ولا أخرت ، ولا أخلت بمعنى الخاص والعام ،
ولا بأخص الخاص ، ولا بأعم العام ، فان حدث ذلك لن تقى الترجمة بحق
اللغة لأن « هذا لا يكون ، وليس فى طبائع اللغات ولا مقادير المعانى » .
ومن ثمة لا بد للمنطقى من اللفظ الذى يشتمل على مراده ويوافق قصده ،
ما دام المنطقى لا يريد أن يرتب ما عنده بالوهم السانح والمخاطر العارض
والحدس الطارىء .

هذه محاورة تدور معبرة عن نفس القضية التى اشتجر حولها جدل
النحاة واللغويين ، بين المعنى واللفظ . وهى هنا بين « منطقى » و « نحوى »
وكلاهما مؤمن بأن أدواته هى الأقدر على دفع المعنى الى النفس . فإذا كان
المنطق أداة يعرف بها صحيح الكلام من سقيمه ، وفاسد المعنى من صالحه ،
فان اللفظ بحكم طبيعته بائد على الزمان الذى يقفو أثر الطبيعة بأثر آخر ،
ولذا كانت مادته الطينية متهافته . وعلى نقيض ذلك : المعنى ، فهو مستمل
للعقل ومن ثم اكتسب البقاء .

ومهما كانت لذة الجدل مثيرة لشهوة الانتصار العقلى فان وضع المحاورة
بين الفكر واللفظ يخرج بها - فى بعض مراحلها - عن المنطق النغوى
الصحيح .

ولسنا نرى وضعاً فيه فكر دون اللفظ الملائم الصحيح ، ولسنا نرى
كذلك كلمة صحيحة دون منطق أو فكر قويم ، وان شكونا من طغيان المنطق
على النحو ، فان شكوانا لن تستبعد قبول المنطق العام .

وكان ما فات رجال القرن الرابع سواء ما سجله الزجاجى فى الايضاح
أو التوحيدى فى امتاعه - كان ما فاتهم هو الذى نال الجرجانى حظ تسجيته
حين أكد دور « النظم » .

ولقد رفض صاحبنا اعتبار الألفاظ موضوعة لتعرف معانيها فى ذاتها ،
فان ذلك مما يستحيل أن يقبله عاقل . لان المدركات عنده قائمة بذواتها ،
أيا ما كانت الألفاظ التى تفرض لها .

فى فلسفة الجرجانى لا تخرج الالفاظ عن صورها الصوتية ، الا ان ربطها اذهن بما حولها من الدلالات ، والنظم الذى يؤثره الناطق أو الكاتب هو الذى يمنح الدالات سلطانها ، ولذلك يقول صاحب « دلائل الاعجاز » : « ان النظم ليس شيئا غير توخى معانى النحو واحكامه فيما بين معانى الكلم » (١) .

وعمق هذا الكلام مستمد من الفلسفة اللغوية التى تأخذ النحو ، ليس بمقولاته ، ولكن تأخذه كسر صناعة العربية ، فهو رابط الصيغ الذهنية وهو الذى يعين اللغة لتقفز - به - فوق عقبات الخلطة الكاذبة . واذا كان الجرجانى يقف بذلكاء مع معانى النحو ودورها مع معانى الكلام ، فانه لا يتوقف مع تلك المحاولات التى سعت لتحليل علاقة الألفاظ المستقلة بالمعنى أو حتى الحروف المجزئة بالبنيات . انه يستهدف « النظم » أو الكل الحادث من الوحدات والعلاقات ، بما ورثته من تقليد . واذا كانت نظرية عبدالقاهر عن « النظم » دائرة فى فلك البلاغة فان المرمى كان لغويا فى أساسه . واستطاع أن يعقد نظما محكما بين الالفاظ ودلالاتها . ولم يكن كل النحاة بضائعين وراء المقولات المنطقية الخالصة . بل منهم من كان يلمح علم اللغة فى فلسفة كاملة . أبو سعيد السيرافى يسأل : ما معنى كن نحويا لغويا فصيحيا ؟ ولا يتردد الرجل فى الاجابة « افهم نفسك ما تقول ، ثم رم أن يفهم عنك غيرك ، وقدر اللفظ على المعنى ، فلا يفضل عنه . وقدر المعنى على اللفظ فلا ينقص منه . أما اذا حاولت فرش المعنى وبسط المراد فاجل اللفظ بالروادف الموضحة والأشياء المقربة والاستعارات الممتعة . وبين المعانى بالبلاغة ، اعنى لوح منها بشئ حتى لا تصاب الا بالبحث والشوق اليها . لأن المطلوب اذا ظفر به على هذا الوجه عز وجلا وكرم وعلا ، وشرح منها شيئا حتى لا يمكن أن يمتري فيه أو يتعب فى فهمه أو يعرج عنه لاغتماضه ، فهذا المذهب يكون جامعا لحقائق الأشياء ولأشباه الحقائق » (٢) .

(١) دلائل الاعجاز ص ٤٠٤

(٢) الامتاع والمؤانسة ص ١٢٤ - ١٢٥

ذلك بلا شك قول حكيم . وما زالت فكرة السيرافى علما يأتى به اللغويون والنقاد كلما أرهقهم ابتذال التعابير التى ما تزال تخضعض المعانى وتنشرها فما تبقى منها الا ما يشبه الهشيم . عنده أن اللغة لتفهم نفسك ما تقول ثم لتفهم غيرك . وكل ذلك على حرف ، أما ان شئت بسطا فى المعانى فليكن منك أن تترك متعة الشوق والتفوق لسامعك حين تلوح له . دعه يشق الحجب ، حتى يظفر بما تنشد وعندئذ ستعز الدلالة ودالتها . وان خشى صاحبها الاغتماض فليشرح بعض ما يمكن أن يمترى فيه .

وهذا فهم واع وتقرير لوظيفة اللغة حين تصير عربة لأفكارنا .

ومن الطريف أن ما قاله قداماؤنا منذ مئات السنين ما زال حوله أخذ ورد بين المحدثين وكأن السابقين قد اكتشفوا الأنافى التى دونها لن تنهض هندسة لقول أو بناء لفن . وواحد من العلماء المحدثين هو الدكتور جونسون يعرف اللغة بأنها رداء للفكر ، ويعانده « كارليل » فيقول : « انهم يعرفون اللغة بأنها رداء للفكر ، ولكن من الأفضل أن نقول انها الجسد الذى يتقمصه الفكر ، انها جسم الفكر » (١) .

ومن البين أن توماس كارليل حريص على أن يدفع فى حومة الحد اللغوى ليوحده مع حد الفكر . وتلك بلا شك غاية فى كل المواقف .

ونفس الخس الشعرى يقول به فلوبير حين يسجل « ان هؤلاء الحمقى يتمسكون بالتشبيه العتيق الذى يتناول اللفظ وكأنه الثوب ، كلا ان الشكل هو جسد الفكر ، كما ان الفكر روح الحياة » (٢) .

شاعرنا لا يريد أن يميز الصورة عن المضمون ، فهما وحدة متماسكة ، وكأن روح السيرافى قد تسرب إلينا .

(١) هذه الأقوال مبنوثة فى كتاب أولمان :

The principles of Sem. P. 94.

(٢) انصدر السابق .

عن الاصوليين :

لم يكن البحث حول « الدلالة » محصورا تحت باب الأصوات الموحية ،
سيان في ذلك أصوات الحروف أو أصوات « الفوتيمات » ، وانما كانت الآراء
تتناوله من واقع الاهتمام الثقافي . وإذا كانت الصلة بين الأبحاث اللغوية
والأبحاث الأصولية تؤكد وجهات حمل أصول الأول على أصول الثاني ،
فان وجهات نظر هؤلاء التي تنتسب اليهم ، أو ينتسبون اليها ، هي من فرط
ارتباطهم باللغة وكثرة احتضانهم لدلالاتها . وليس هناك من أصولي الا
ويفتح أعماله بتوضيح مفهومه للغة ووظيفتها بين يديه . وأنا آخذ من المرجع
الكبير « الاحكام في أصول الأحكام » لسيف الدين الأمدى قوله : « لما كان
كل واحد لا يستقل بتحصيل معارفه بنفسه وحده ، دون معين ومساعد له من
نوعه ، دعت الحاجة الى نصب دلائل يتوصل بها كل الى معرفة ما في ضمير
الآخر من المعلومات المعينة له في تحقيق غرضه ، ولذلك استخدم الانسان
ما يتركب من المقاطع الصوتية التي خص بها نوع الانسان دون سائر أنواع
الحيوان ، عناية من الله تعالى به . ومن اختلاف تركيبات المقاطع الصوتية ،
حدثت الدلائل الكلامية والعبارات اللغوية » (١) .

ان هذه الفقرة من كلام الأمدى تفصح عن عدد من الأفكار الهامة التي
سيشتجر حولها خلاف من اللغويين والمفكرين . بل ان القضايا التي يطرحها
لم تخل سبيل أسنة الأقلام حتى يومنا .

أما الفكرة الأولى التي يعرضها « الاحكام ... » فهي النظر الى اللغة
باعتبارها دلائل يتوصل بها كل واحد الى معرفة ما في ضمير الآخر . وتلك
أحدى المهام الخطيرة التي تناط الى اللغة . وفريق من الباحثين يذهبون الى أن
دور اللغة متركز فيما تقدم من عون على التفاهم والسلوك . يعبر (م. لويس)
عن الفكرة تعبيرا صريحا بقوله : « ان اللغة في جوهرها شكل من أشكال
السلوك الاجتماعي » (٢) . وفي مثل ذلك السلك ينخرط كل القائلين بالوظيفة
السلوكية للغة .

(١) الاحكام في أصول الأحكام ، ج ١ ، ص ١٦

(٢) اللغة في المجتمع ، ترجمة الدكتور ابراهيم أنيس والدكتور تمام حسنة ، ص ٢٨٩

والفكرة الثانية يحددها صاحبها العربي - الآمدى - بقوله : ان اللغة مما يعين الانسان على تحقيق غرضه ، والدور الاجتماعى مما يشغل باله . وصارت الوظيفة الاجتماعية مبحثا من مباحث المحدثين كذلك . وجهود جاردنر ومالينوفسكى ويسبرسن توكيد لهذا المنزع (١) .

والقضية الثالثة التى يقرها الامدى هى امتياز الانسان بنوع معين من اللغة ، لا يسايره فيه كائن حى آخر . وهو يؤكد ان للانسان أن يصنع من مقاطعه ما لا يستطيع الحيوان أن يصنع . ومن هذه القدرة تنبع لغة الانسان وتتعدى مرحلة العلامة الصوتية الغريزية الى العلامة الصوتية الارادية ، والتى لن تفعل الا حين تصبح رمزا . وتلك هى الفكرة الرابعة التى يعرضها الآمدى ، باختلاف التتابع الصوتى وتنوعه هو المحدث للكلمات ذات الدلالات المختلفة . وهى تخضع لما يمنحه الانسان للأصوات من ارتباطات سواء فى داخل اللفظ أو فى داخل العبارة .

ولعلنا حين ننظر فى الفقرة التالية نلمس مدى الدقة التى قال بها الآمدى آراءه : « اللغة وسيلة للاتصال ، وهى تتكون من مجموعات عشوائية أو أنماط من أصوات الكلام . وبوساطتها ينقل الانسان غرضه للآخرين ويشركهم فى أفكاره وعواطفه ورغباته . وطالما أن اللغة انسانية ، وليست غريزية ، فهى ترتفع عن الأصوات التى تصدرها الحيوانات والطيور والحشرات ومن قبيل تلك الصيحات الغريزية ما يطلقه الحصان من « الصهيل » والكلب من « النباح » والضفدع من « النقيق » (٢) فما أقرب ما يقولونه مما قالوه بالأمس !

فقيه آخر من رجال أصول الفقه هو أبو الحسن على بن محمد الملقب بعماد الدين والمعروف بالكيا الهراسى ، وكان من فقهاء المذهب الشافعى ،

(١) على سبيل المثال يمكن الرجوع الى الفصل الأول من كتاب يسبرسن ، وفيه تقرير عن ان مهمة اللغات هى اشباع الرغبة الاجتماعية عند الانسان .

Jespersen, Mankind, Nation & Individual from a Linguistic point of view. London, 1956.

Simeon potter, Language in the modern world, P. 10.

يجمع في تعليقه على أصول الفقه فلسفة اللغة كما يراها الأصوليون فيقول : « أن الانسان لما لم يكن مكتفيا بنفسه في معاشه ، ومقيمات معاشه لم يكن له بد من أن يستترفد المعاونة من غيره ، ولهذا اتخذ الناس المدن ليجتمعوا ويتعاونوا » (١) . وحتى هنا فهو منصرف الى المنهج الاجتماعي الذي يشرف منه على تفسير الظاهرة الاجتماعية التي تجمع الناس في المدن ، بغية التعاون واستترفاد المشاركة . وطبيعي أن يحتاج بنو المدن الى اللغة ، فهي وسيلتهم ووعاؤهم : « أن الانسان هو المتمدن بالطبع ، والتوحش دأب السباع ، ولهذا المعنى توزعت الصنائع ، وانقسمت الحرف على الحلق ، فكل واحد قصر وقته على حرفة يشتغل بها ، لأن كل واحد من الحلق لا يمكنه أن يقوم بجملة مقاصده ، فحينئذ لا يخلو من أن يكون محل حاجته حاضرة عنده أو غائبة بعيدة عنه ، فان كانت حاضرة بين يديه أمكنه الإشارة اليها ، وان كانت غائبة فلا بد من أن يدل على محل حاجاته وعلى مقصوده وغرضه ، فوضعوا الكلام دلالة ، ووجدوا اللسان أسرع الأعضاء حركة وقبولا للترداد » (١) ولو تخطينا موقفه المسرف في « تعقيل » الأشياء كمثله حديثه عن سر استخدام اللسان ورد ذلك الى قبوله للترداد ، فان احساسه بوظيفة اللغة اللازمة لتوزيع الصنائع ، وكان اللغة عنده معبرة عن الموجودات . وكأنه يأخذ من مثل ما قالته جماعة اخوان الصفا ، وهم رجال عصره ، « من فضيلة النطق أيضا أنه كاد أن يكون مطابقا للموجودات كلها كمطابقة العدد للمعدودات ، والدليل على ذلك كثرة اللغات ، واختلاف الأقاويل ، وفنون تصارييف الكلام ، مما لا يبلغ أحد كنه معرفتها الا الله عز وجل » (٢) .

(١) المزهر ، ج ١ ، ص ٣٦

وفي نفس المساق يقول الامام فخر الدين الرازي : « السبب في وضع الالفاظ أن الانسان الواحد وحده لا يستقل بجميع حاجاته بل لابد من التعاون ، ولا تعاون الا بالتعارف ، ولا تعارف الا بأسباب ، كحركات أو اشارات ، أو نقوش ، أو الفاظ توضع بازاء المقاصد ، وأيسرها وأفيدها وأعمها الالفاظ . . . فلما كانت الالفاظ أيسر وأفيد وأعم صارت موضوعا بازاء المعاني » . المصدر نفسه ، ص ٣٨

(٢) رسائل اخوان الصفا . ج ١ ، ص ٣٩١

ويفسر الكيا الهراسى التراكيب اللغوية ، فيذكر أن الكلام إنما هو حرف وصوت ، ثم قطعته أعضاء الانسان المشتركة فيما نسميه بجهازالنطق ، والذي حده هو نفسه بأنه يبدأ من أقصى الرئة الى منتهى الفم . والتقطيع يحدث ليكون لكل صوت لون(١) ، ثم من مقطعات الأصوات يركب الانسان العبارات ليبدل بكل مركب على دلالة معينة . ولما استحال على الانسان وضع لفظ لكل معنى(٢) لجأ الى وضع الأسماء المشتركة فجعلوا اللفظة الواحدة تدل على عدة مسميات . وكانت تلك الملاحظة هي التي دار حولها كثيرون من القدماء من تفسير الظواهر اللغوية المندرجة تحت أبواب الترادف والتضاد والمشارك اللفظي . وفي السياق يقول فقيهننا : « هذا الكلام إنما هو حرف وصوت ، فإن تركه سدى غفلا امتد وطال ، وإن قطعه تقطع ، فقطعوه ، وجزموه على حركات أعضاء الانسان التي يخرج منها الصوت ، وهي من أقصى الرئة الى منتهى الفم ، فوجدوه تسعة وعشرين حرفا ، لا تزيد على ذلك . ثم قسموها على الحلق والصدر والشفة واللثة ، ثم رأوا أن الكفاية لا تقع بهذه الحروف ، ولا يحصل له المقصود بافرادها (أى بافراد الحروف) فركبوا منها الكلام ثنائيا وثلاثيا ورباعيا وخماسيا . هذا هو الأصل فى التركيب ، وما زاد على ذلك يستثقل . . . وكان الأصل أن يكون بازاء كل معنى عبارة تدل ، غير أنه لا يمكن ذلك ، لأن هذه الكلمات متناهية ، وكيف لا تكون متناهية ومواردها ومصادرهما متناهية ؟ فدعت الحاجة الى وضع الأسماء المشتركة ، فجعلوا عبارة واحدة لمسميات عدة ، كالعين والجون واللون ، ثم وضعوا بازاء هذا على نقيضه الكلمات لمعنى واحد ، لأن الحاجة تدعو الى تأكيد المعنى والتحريض والتقرير ، فلو كرر اللفظ الواحد تسمج ومج ، ويقال : الشيء اذا تكرر تكرر (أى فسد) . والطباع مجبولة على معادات العادات ، فخالفوا بين الألفاظ والمعنى الواحد » (٢) .

(١) من أقدم علمائنا الذين عرضوا هذه الفكرة يمكن أن نأخذ عن ابن جنى قوله : « اعلم أن الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلا متصلا حتى يعرض له فى الحلق والفم والشفقتين مقاطع تنثنية عن امتداده واستطالته ، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفا » . سر صناعة الاعراب ، ص ٦

حشد من الأمور يجمعها صاحب الكلام فى أقواله : للغة دورها الاجتماعى ، باعتبارها الوسيلة الممكنة لصاحبها من التعبير عن كافة أفكاره أو عن احتياجاته . وذلك ما يقرره أصحاب اجتماعية اللغة ، سواء كظاهرة أو كوظيفة ، ثم هو أخذ بفقہ اللغة فيما يمس الأصول التى تتركب عليها العربية . ولكنه حين يعرض للتطابق بين المفردات والمعانى تأخذ منهج أهل الكلام الذين يبررون بالعقل أكثر مما يكتبون بالاستقراء الذى يمكن أن يصل بهم الى الحقائق . ولا شك فى أن مراحل نمو لغتنا وتجمعها من اللهجات ، ونماذجها التى جمعها اللغويون والدارسون من مطويات الأشعار ، هى التى أوقعت قدماءنا فى مثل التفسير المتوارد عنهم فيما يخص المشترك اللفظى . أن تجمع اللغة كل هذا الحشد من التضاد أو الترادف ، مما لفقہ المؤلفون السابقون ، يمثل ظاهرة مضادة لطبيعة اللغة . انه الاستعمال الذى لون كل المفردات ، ثم حين أخذ العلماء يجمعون الألفاظ مستقلة نزعوها من مساقاتها ونزعوا معها المعانى التى اكتسبتها من مواقف ديناميكية ، فى الاستعمال ، وجعلوها سناتيكية فى القواميس .

وحول قضية المترادفات يقول اوجدن وريتشاردز : « انها تقودنا بطبيعتها الى دراسة « الاستعمال الصحيح » ، ولقد تحدثنا عن معنى الصواب فيما يخص الرمزية . ان الرمز يكون صحيحا حينما يثير محركا مشابها الى ما يرمز اليه فى أى سياق مناسب .

ان الرموز صحيحة حين تثير « صورة ذهنية » مشابهة لما يرمز اليه عند التفسير المناسب . وفى مثل هذه المواقف سيثار قدر معين من الثبات لشيء . يمكن أن نطلق عليه المعنى الصحيح ، أو الاستعمال الجيد . وذلك الشيء الثابت يوصف بأنه معنى الكلمات الواردة فى السياق . وإلحق أن الثابت هو الصورة الذهنية التى يستحضرها أى فرد من أفراد الجماعة عندما يفسر الرمز فى أية مناسبة من مناسبات الحديث المتصل بهذه الصورة الذهنية . ولا ريب فى أنه من المهم أن لا تتنوع تلك المعانى الا فى أضيق الحدود . ويحق لنا أن نحرص على الاحتفاظ بمعايير متجانسة للمقارنة دون أن نشعر بأنه من الضروري افتراض أن تلك المعايير قد نبئت بصورة خارقة Supernatural أو أن تكون هى فى ذاتها مما يورث من جيل لجيل .

والاعتقاد السائد بأن الكلمات - بالضرورة - تعنى ما تعنى ناتج من غموض كلمة - بالضرورة - التى يمكن أن تنهض اما للتعبير عن الحقيقة الواقعة القائلة بأن هذا مطلب من مطالب الاتصال ، واما أن تنهض لما يزعم عن امتلاء الكلمات بمعان ذاتية .

وهكذا نأرجو الجدل رفضاً لأن يكون لكلمة « حسن » good ، مرادف ، فهى - من ثمة - بلا مرادفات . والناس الذين يحسنون استخدام هذه الكلمة يتأكدون من استحالة التعبير عن الفكرة التى لديهم بغير ذلك «الرمز» . ومن هذا المنطلق يقال انه ما دامت الكلمة تستعمل استعمالاً يقينياً ، فلا بد من وجود فكرة فريدة ، لها سمة أخلاقية بسيطة ، أو كما يقال - فى بعض الأحيان - لابد من وجود خاصية متميزة أو « مسند اليه » سواء أسندنا شيئاً أو لم نسند ، وعلى وجه من الدقة فمثل هذا الدرب يقول علماء الرياضة انه اذا لم يوجد شيء على الإطلاق فسيبقى هناك خاصية للعدد ١٠٧ -يمتاز بها ذلك العدد ، على سبيل المثال « (١) .

الاستعمال اذن هو الجوهر المحدد للمعاني . وشرط أن نحسن الاستخدام . ولكن رغم وضوح ما يقوله النص فان حدود الصحة والخطأ تفوت كل المحاولات . عنصر الزمان يعبت بالكثير . وكم من استعمالات بدت خاطئة ثم أكسبها الزمن شروط الصحة والثبات . ومع ذلك فلا شك فى أن جزءاً هاماً مما تداخل فى عريبتنا من الألفاظ والمعاني كان تفسيره فى الاستخدام لو أنهم وقفوا مع العبارات متمهلين أكثر مما وقفوا مع المفردات . وأحسب كذلك أن تأثير سيبيويه وكتابه كان واضحاً فى أذهان المتأخرين ، لقد دفعهم ذلك المعلم منذ قال : « اعلم أن من كلامهم اختلاف اللفظين ، لاختلاف المعنيين ، واختلاف اللفظين والمعنى واحد ، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين » (٢) . والفكرة الأولى التى يقررها سيبيويه لا اهتزاز فيها ، فذلك هو أصل اللغة ، أما الثانى فهو ما يأتى تحت باب المترادفات ، ويضرب له سبيبه ، مثلاً بقولهم : ذهب وانطلق . وأما اتفاق اللفظين والمعنى مختلف فهو كقولك :

Ogden & Richards; The Meaning of Meaning, pp. 206-207. (١)

(٢) سيبيويه : الكتاب ، ج ١ ، ص ٢٤ .

« وجدت عليه من الموجدة ، ووجدت اذا اردت وجدان الضالة » . ثم يعلق
سيبويه : « وأشباه ذلك كثير » (١) .

هذه الملاحظة من سيبويه تعاورها المؤلفون من بعده ، فمنهم من راح
يبررها : « انما أوقعت العرب اللفظتين على المعنى الواحد ، ليدلوا على اتساعهم
فى كلامهم ، كما زاحفوا فى أجزاء الشعر ، ليدلوا على أن الكلام واسع
عندهم » (٢) .

ويرى غيرهم خلاف ذلك « لأن كل حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد
فى كل واحد منهما معنى ليس فى صاحبه ، ربما عرفناه فأخبرناه به ، وربما
غمض علينا فلم نلزم العرب جهله » (٣) . واذا كان من الواضح أن الحروف
المقصودة هنا تنتسب الى لغة واحدة ، ومن خلالها جاز أن يكون اللفظان قد
وقعا من لغتين الى مستخدم واحد وحسبهما دالتين متساويتين . ولقد كان
حرصهم على تفسير التضاد برده الى مثل التبرير السابق ، فلانه كان ملفتا
لنظرهم أكثر مما نسميه بالترادف ، ومن ثمة انكره جماعة انكارا تاما (٤) .
وليس سياقنا اليه ولكننا مع ذلك نأخذ قولهم : « اذا وقع الحرف على معنيين
متضادين ، فمحال أن يكون العربى أوقعه عليهما بمساواة منه بينهما ، ولكن
لأن أحد المعنيين لحى من العرب والمعنى الآخر لحى غيره ، ثم سمع بعضهم لغة
بعض فأخذ هؤلاء عن هؤلاء ، وهؤلاء عن هؤلاء » (٥) . كل الآراء أشارت الى
الاستخدام أو الى الانتقال من لغة الى لغة . ولا شك فى أن الصواب لن
يجانب هذين العاملين عند تتبع الظواهر التى أشار اليها سيبويه فيما سبق .
وكان من الممكن لو أنهم أخذوا بالمنهج التاريخى ، أن يكتشفوا ما غمض عليهم
ومع ذلك فجهدهم كبير ورائع .

(١) المرجع السابق : ص ٢٧ - ٣٦

(٢) هذا - على سبيل المثال - رأى قطرب كما نقله ابن الأنبارى فى الأضداد ، والسيوطى

فى المزهى ، ج ١ ، ص ٤٠١

(٣) ذلك رأى ابن الاعرابى ، وهو يشاكل الصواب كما يقرر فقه اللغة . انظر الراى فى

المصدر السابق .

(٤) عرض السيوطى أهم الآراء التى لا تخرج آراء المحدثين عنها . انظر المزهى ، ج ١ ،

ص ٣٩٨ وما بعدها ، وانظر د . حسن ظاظا : كلام العرب ، ص ١٠٢ - ١١٦

(٥) المزهى ، والراى غير منسوب .

متشابهات متأخرة

إن ما مر من آراء الأصوليين وآراء الفلاسفة في تراثنا العربى يؤكد ذلك الاحساس الذى عبرنا عنه من أن جهود علماء العربية فى اللغة تبقى فذة متميزة لأنهم طرّقوا جل الموضوعات ونقشوا فى تاريخ الدرس اللغوى علامات ثابتة واضحة . ولقد مرت مئات السنين حتى استطاع الدرس اللغوى فى أوربا المعاصرة أن يتوقف وقفة واضحة مع ما صنعه فردينان دى سوسير Ferdinand de Saussure وأصبح اللغويون من بعده يدورون نى فلكه ، سواء اتفاقا معه أو اختلافا عنه .

من تاريخ الدرس اللغوى :

ولعله من الإضاءة أن نوجز فى بدء هذه الصفحات أهم المراحل التى كانت للدرس اللغوى التى سجلها دى سوسير فى الفصل الأول من كتابه ، وفيها حديثه عن تاريخ الدراسة اللغوية ، وأنا إذ أعرض هذه الخلاصة ، ففى النفس رغبة فى تحديد المواقع التاريخية بالنسبة للدرس العربى ثم بالنسبة للدرس الأوروبى ، ولن نعرف موقع قدمائنا الطيب الا اذا رأينا مواقع الآخرين .

يوجز دى سوسير تاريخ الدراسة اللغوية فى أوربا بثلاث مراحل: (١)

المرحلة الأولى : وقد بدأت بما سمي « الأجرومية » وهى التى بدأها اليونانيون ثم تمها الفرنسيون ، أبان عصر النهضة ، وهذه الدراسة تركز على المنطق ، ومن ثمة فهى عارية من كل تخصيص علمى خالص للغة فى ذاتها . وهى تستهدف إعطاء قواعد لتمييز القوالب الصحيحة من القوالب غير الصحيحة .

هذه المرحلة تمثل جهدا لوضع القواعد ، ولكنها بعيدة عن الأخذ بالملاحظات الخاصة للنغة . ثم بعد تلك المرحلة ظهرت مرحلة « الفيلولوجية » ، وإذا كانت الاسكندرية قد عرفت مدرسة « فينولوجيه » إلا أن هذا المصطلح يعلق بالحركة العلمية التي أسسها فردريك أوجست وولف منذ عام ١٧٧٧ وما زالت مستمرة حتى أيامنا هذه .

وليسست اللغة وحدها موضوع الدراسة الفيلولوجية ، التي كانت تستهدف قبل كل شيء تصحيح النصوص وتفسيرها والتعليق عليها ، ولكن هذا الاتجاه مال أيضا الى العناية بالتاريخ الأدبي ، وتاريخ الأخلاق والعادات وما إليها ، ومن ثمة شاع منهجه القائم على النقد "La critique" . وعلاج المشاكل اللغوية يأتي من خلال مقارنات النصوص المنتمية للعصور المختلفة ، ليحدد اللغة الخاصة لكل كاتب وليشرح النصوص التي تأخذ بلغة قديمة أو بغموض خاص .

وليس من شك في أن هذه البحوث قد جهزت الطريق الى علم اللغة التاريخي *Linguistique historique* ، ولكن نفس المنهج يقع في خطأ واضح ، ذلك أنه يهتم باللغة المكتوبة ويهمل اللغة الحية ، فلقد كانت العناية باليونانية القديمة وباللاتينية هي التي امتصت كل الجهود .

أما المرحلة الثالثة ، فقد نهضت عندما بدأت مقارنات اللغات بعضها مع بعض . وتلك هي مرحلة « فقه اللغة المقارن » أو « النحو المقارن » ، ففي عام ١٨١٦ نشر فرانز بوب Franz Bopp كتابه عن « نظام التعريف في السنسكريتية ، وفيه قارن السنسكريتية بالألمانية واليونانية وباللاتينية وبغيرها .

ولم يكن « بوب » أول من لاحظ نهايات الكلمات ، ولا أول من قرر انتماء هذه اللغات الى أصل واحد ، فلقد سبقه المستشرق الانجليزى وليم جونز (ت ١٧٩٤) وان كانت ملاحظاته المعزولة والجزئية لم تكن كافية ليظهر في عام ١٨١٦ كتاب يؤكد تلك الحقيقة .

ومن ثمة فلم يكن « لبوب » الفضل في اكتشاف أن السنسكريتية أصل

لبعض لهجات أوربية وآسيوية ولكنه أدرك أن العلاقات بين اللغات ذات القرابة يمكن أن تصير « علما مستقلا » ، فالشيء الذى لم يكن قد تم حتى ذلك الوقت هو أن يلقى ضوء على لغة بدراسة لغة أخرى ، أو أن تشرح قوالب احدهما بالأخرى . ولا شك فى انه لولا اكتشاف السنسكريتية لما استطع « بوب » أن يضع أصول علمه بمثل تلك السرعة . فلقد قدمت له سندا قويا ، الى جوار اليونانية واللاتينية .

والى جانب « بوب » كان العالم اللغوى الممتاز « جاكوب جريم » Jacob Grimm وهو مؤسس الدراسات الألمانية . (نشر كتابه عن الأجرومية الألمانية من عام ١٨٢٢ الى عام ١٨٣٦) .

وكذلك هناك « بوت » Pott الذى قدمت أبحاثه الاشتقاقية أو التناصيلية etymologiques مادة كثيرة بين أيدي الباحثين .

وجاء كوهن "Kuhn" الذى تركزت أبحاثه حول الدراسات النغمية والميثولوجية المقارنة . وهناك أيضا « بنفى » Benfey الذى اهتم بثرات الهنود .

ومن بين رجال هذه المدرسة يجب أن يبرز الدور الذى قام به « ماكس مولر » Max Müller ، ج كورتس G. Curtius ، أوجست شليشر Aug. Schleicher .

وقد شاركوا جميعا فى الدراسات المقارنة ، وكان كتاب ماكس مولر دروس عن علم اللغة "Leçons sur la science du langage" الذى نشر عام ١٨٦١ مما أكسب ذلك الفرع شعبية خاصة . كما كان "Curtius" واحدا من أوائل الذين صالحوا النحو المقارن مع فقه اللغة الكلاسيكى .

ثم كان شليشر أول من قنن النتائج التى وصلت اليها الأبحاث ، وبعض كتابه : مختصر عن النحو المقارن للغات الهندوجرمانية Abrége de grammaire comparée des langues Indo-germaniques نوعا من الدراسة المنتظمة أو نوعا من التتبع للعلم الذى وضع « بوب » أساسه ،

وسنت فهو أول كتاب يبرر ملامح المدرسة المقارنة التي تعتبر أول مرحلة في دراسة علم اللغة الهندو - يوربي . وإذا كان لهذه المدرسة فضل وضع الأصول الأولى لعلم لغة حقيقي فإن نقص الاستقراء الذي استندت إليه يمثل بكرة الخطأ الأولى في مناهجها . وإذا كانت المقارنات مطلوبة وهمة إلا أن عيب الجانب التاريخي كان ضعفا في المدرسة .

ولم يتساءل النغويون عن الظروف التي تحيا فيها اللغات إلا في عام ١٨٧٠ حينما وضع أن التشابه الذي يربطها ليس إلا سمة من الظاهرة النغوية ، وأن المقارنة ليست إلا وسيلة ومنهجاً لإعادة بناء الوقائع .

أما علم اللغة الحاضر فقد ولد عند دراسة اللغات الرومانية واللغات الجرمانية . لقد دشّن « ديز » دراسة اللغات الرومانية بكتابه « *Grammaire des langues romanes* » ، أجرومية اللغات الرومانية ، الذي نشر بين ١٨٢٦ - ١٨٢٨ فكل ما كان غير واضح في اللغات الهندوأوروبية استكمل من خلال دراسته اللاتينية ، وهي اللغة الأم للغات الرومانية . ثم إن الوثائق الكثيرة مكنت من تتبع تطور اللهجات المحلية وكل ذلك أدى إلى انزواء الافتراضات لتحل محلها الملامح المحددة .

وحينما نشر الأمريكي « وتني » Whitney كتابه عن « حياة اللغة » ، *'Vie du Langage'* عام ١٨٧٥ كان ذلك هو النبض الأول في القضية .

وتكونت مدرسة جديدة « مدرسة النحاة الجدد » *"Junggrammatiker"* وكان كل رؤوسها من الألمان ، ومنهم « بروجمان » Brugmann ، وأوستوف H. Osthoff وغيرهما . وفضلهم أنهم وضعوا كل نتائج الدراسات المقارنة في منظور تاريخي . وفي أنهم سلسلوا الحقائق في نظامها الطبيعي .

وبفضلهم ما عدا نرى ظاهرة لغوية تنمو مستقلة بذاتها ، وإنما كل شيء منتسب إلى العقل الجامع للجماعة اللغوية .

ومهما كانت قيمة الخدمات التي أدتها هذه المدرسة فلا يمكن القول بأنها ألقت الضوء كافيا على كل المسألة ، وما زلنا حتى اليوم نشعر أن القضايا الأساسية في علم اللغة العام تحتاج الى حلول .

هذه هي المراحل الخامسة التي شاء دى سوسير أن يتوقف معها في مراجعته لتاريخ الدراسة اللغوية الخاصة لعلم اللغة . ومن نهايتها شرع فيلقاء محاضراته التي دار حولها أغلب اللغويين المحدثين .

وقبل أن نعرض لبعض القضايا التي درسها دى سوسير وأضاف بدراسته لها شوطا جديدا في دراسة « علم اللغة العام » وخاصة في مجال العلاقة بين الرمز اللغوي والفكر الذي يتحرك به ، نقول قبل أن نتوقف مع ذلك - نأخذ من لغوى آخر مالمخص فيه جهد دى سوسير - وذلك حتى يكتمل الشريط - يقول « بوتر » : « لقد نهض منهج دى سوسير (١٨٥٧ - ١٩١٣) مع ملاحظاته المباشرة للغة ، ولقد امتازت محاضراته في باريس وجنيف بأصالة فذة . واذا كان دى سوسير لم ينشر كثيرا في أثناء حياته ، فإن دروسه قد نشرت عام ١٩١٦ بواسطة تلميذه شارل بالي Charles Bally وألبرت سيشاهي Albert Sechahaye تحت عنوان « دروس عن علم اللغة العام » ولن نبالغ اذا ما قلنا أن دى سوسير هو مؤسس علوم اللغة المعاصرة . ولقد عالج أربعة مواضيع في محاضراته :

١ - العلاقة بين اللغة والحديث أو بين العناصر الموروثة في اللغة ، وهي ما أسماها باللغة langue وبين الاستخدام الخاص الذي يزاوله الناس في الحديث Parole

٢ - تحليل الرموز اللغوية .

٣ - التفرقة بين مناهج الدراسة الوصفية Synchronic ومناهجها التاريخية "diachronic" .

٤ - الطرق لدراسة التركيب العام للنظام اللغوى .

ولقد اتسعت تعاليمه على يد تلميذه العبرى انطوان ميه A. Meillet
(١٨٦٦ - ١٩٣٦) بجامعة السربون فى باريس ، وعلى يد نيكولاى
تروبتسكوى Nikolai Trubetzkoy (١٨٩٠ - ١٩٣٨) فى فينا •

كما تابعه كثير من العلماء الامريكيين ، وخاصة « ادوارد سابين »
Edward Sapir (١٨٨٤ - ١٩٣٩) وليونارد بلدمشيلد (١٨٨٧ - ١٩٤٩)
Leonard Bloomfield (١) •

جهد دى سوسير يمثل اذن حلقة واضحة عند الأوربيين فى دراساتهم
الحديثة ، وعلى الرغم من اعتقادى بأثر البيئة فى نمو الفكر ، ثم على الرغم
كذلك من اعتقادى بخطأ التلفيق حين ندعى أن ما وصل اليه فرع من المعرفة
كان عند الأجداد أو عند غيرهم فانه لا بد من رؤية الموقف من القول بالرمز
وعلاقته بالرموز اليه ، تلك العلاقة التى سجلتها الدراسات اللغوية الحديثة
لنرى بعض الوجوه المتشابهة بلا غضاضة أو نفور • اللغة عند دى سوسير
« مجموعة من العلامات تعبر عن الافكار ، ومن هذه الناحية صارت مما يمكن
مقارنتها بالكتابة ، أو « بأبجدية الحرس » أو بالطقوس الرمزية أو بالقوالب
التأديبية ، أو بالاشارات العسكرية الخ • • ولكنها فقط أهم هذه النظم •

ومن ثمة لم يكن صعبا تصور علم يدرس حياة العلامات اللغوية داخل
الحياة الاجتماعية وسيمثل هذا العلم جزءا من السيكلوجية الاجتماعية ،
وبالتالى من السيكلوجية العامة ، ويمكن أن نطلق عليه « علم السيميولوجيا »
Sémiologie (علم العلامات) وسيطلعنا هذا العلم على ما تتكون منه
« العلامات » وما القوانين التى تحركها (٢) •

وواضح من النص أن دى سوسير يأخذ « العلامة » على أساس أنها
محرك بشر معنى ما ، ولذلك يقرب العلامة اللغوية بالعلامة الكتابية أو بالعلامة
الحركية أو بغيرها •

Simeon Potter; Language in the Mod. World éd. 1961 P. 16.

(١)

F. De Saussure; Cours ... P. 33.

(٢)

ولكن من بين كل ذلك نفرد العلامة اللغوية بقدرة خاصه ، لا بها أساسا أساسا الى اثارة العقل أكثر من استنادها الى غيره من الحواس ، ومن ثمة فإنه يقول بعد ذلك : « ان العلامة اللغوية لا تجمع بين شيء واسم ، ولكنها تجمع بين تصور Concept وصورة سمعية أو صوتية Image acoustique (١) » .

والقصد من الصورة الصوتية ليس الصوت المادى فى ذاته ، فذاك شيء عضوى صرف ، ولكنه يقصد الاثر الذى يحدثه الصوت ، وفى رأيه أن الطابع النفسى للصورة الصوتية يظهر فى وضوح حين نتحدث الى أنفسنا ونحن وحدنا ، أو حين نردد قصيدة شعرية دون أن تنفرج شفاهنا أو تتحرك ألسنتنا ، وفى نطاق نظريته تلك . يتناول علمنا العلامة اللغوية - على ما بها من جبرية - بالتحليل التفصيلي : انها ذات طابع خارجى وهو « الدال » Signifiant ثم لها وجهة دلالية وهى المدلول عليه ، أو المقصود اليه بالدالة ويسميه Signifié . وإذا كان هذا التقسيم قريبا جدا الى ما قالوه عن اللفظ والمعنى ، أو عن الشكل form والمضمون Content أو عن الصيغة form والمعنى meaning ، فإن ما قاله دى سوسير كان يتخطى مجرد الاصطلاح ، لقد أراد الصوت الذى يحرك صورة ذهنية وكأنه يستفيد من الاشتقاق الذى يوحى به لفظ "Signe" وأراد أن « الدوال » les Signifiants هى التى تميز الحديث "Parole" حين تشبث بمحور من محاور دراسته وهى التفرقة بين ثلاثة مصطلحات يرددها فى وضوح :

الأول هو le langage ويقصد من ورائه الحديث عن اللغة كظاهرة انسانية منتمية الى الوجود الاجتماعى ، وذلك أثر من آثار الاتجاه الاجتماعى الذى شقه أستاذه « أميل دوركايم » رائد علم الاجتماع عندهم .

الثانى هو la langue ويريد به اللغة المعينة ، أو اللسان المعين الذى - رغم ارتباطه بالاجتماع - يختلف من مجتمع الى آخر .

الثالث : هو la parole « الحديث » أو الجانب الذاتى الذى يتميز به كل مستخدم للسان جماعته .

فى ضوء هذا « الثالث » كان حديث دى سوسير عن الدال
"Signifiant" لانه منفذ الفرد الى الحديث ، ثم منفذه أيضا الى اللسان المعين
ثم من بعد الى القدرة الانسانية على انشاء اللغة . ويصبح الدال عنده رمزا
يحرك ما بعده .

ولقد كان تأثير الفكرة ذات الأبعاد الثلاثة واضحا فى كل البحوث من
بعده ، فعند فندريس وهو واحد من مبرزهم ، نلتقى بما يشبه التقسيم
السالف . ان اللغة عنده ذات مستوى منطقى ومستوى فاعلى ومستوى
انفعالى .

ولو سلطنا الجدل الصاعد لكان الانفعالى شبيها بـ "Parole" ذلك
أن السمة الفردية واضحة . ولكانت الفاعلية شبيها بـ "langue" وذلك
لان السمة الاجتماعية التى تتولد عنها الفاعلية واضحة أيضا .

ثم ان الحديث عن اللغة المنطقية لا يعتمد بنا عن le langage لأن بها
يمتاز الانسان ككائن ناطق قادر على احداث اللغة وصنعها حتى غدت من
مميزاته .

فاذا كان صاحبنا دى سوسير قد ربط بين الدالة والمدلول عليه فانه
عقد الرباط من خلال التفكير المنطقى ، وليس من خلال فكر غيبى ، يمتاز
بأنه ذو طابع دينى أو كنسى فى كثير من أدواره . وكانت فكرة الجرافية التى
قال بها مما استهدفت توكيد دور الانسان والقاء الظل على كل تفسير
ميتافيزيقى . كما أنه لا بد من أن نستحضر فى الذهن دائما أثر الفلسفة
الدارونية التى طغت ، وأوشكت أن تدفع كل نتاج العصر ، ثم مالت العقول
الشابة للتمرد عليها . ومن ثمة كان النفى لفكرة النشوء والنمو ، فلا شئ
يمكننا - كما قال - من معرفة مسار القوانين اللغوية التى تهيمن على أدواتنا
الصوتية ، ولقد كانت النغمة الاجتماعية هى نغمة العصر ، ولا فكاك لنا من
التمرد على شئ . ومن الانتماء لآخر .

الدوال المحفوظة :

إذا كنا قد رأينا بعض محاولات ابن جني وغيره لربط الارتفاع الداخلي للموسيقى الألفاظ بنوع من الارتفاع الخارجي للمعاني ، فلقد كان ذلك سبباً لنوع من الاحساس المبهم بجانب سحرى فى اللغة . وإذا كنا قد رأينا نظرة Pos فى صنيعة شبه الممثل ، مع تفاوت فى الجهد والغوص - فإن دى سوسير قد أثر الجزافية كتفسير لنفس الارتباط : « ان الرباط الذى يقرن الدالة بالمدلول عليه ، جزافى ، او لنقل مادمننا نقصد بالعلاقة النتيجة الكاملة والحادثة من علاقة دالة بمدلول عليه ، لنقل ببساطة ان العلامة اللغوية جزافية : *Le Signe linguistique est arbitraire* » (١) .

ومثاله على ذلك يأتيه من أننا حين نريد أن نعبر عن فكرة الاخت *Sœur* فلا وجود لاي ارتباط داخلى بينها وبين الاصوات *s-ö-r* (كتابة صوتية) التى هى « دالة » ومن الممكن أن نعبر عن الفكرة بأية صورة صوتية أخرى .

ومثال آخر يأتي من أن الفرنسيين يعبرون عن معنى الثور *"Bœuf"* بالدالة *b-ö-f* (كتابة صوتية) بينما يعبر الألمان - على الناحية الأخرى من الحدود - بقولهم *Ocks* أو *o-k-s* (كتابة صوتية) .

الوضع الصوتى الذى يأخذه الدال هو الدليل على جزافية الدوال . ولا مبرر لهذا الا كونها تطلق دون مرجحات . ومن ثمة تصبح « جزافية العلامة » مبدأ مهيمنا على كل لغويات اللسان ، ونتائج هذا المبدأ لا حصر لها ، وحتى اذا لم تظهر عند النظر الأول فانها (النتائج) تؤكد أهمية المبدأ الأول ، وهو الخاص بالعلامة التى يتم الاصطلاح عليها دون مبرر واضح .

انه ينفى انبعاث أى حافظ من الدالة ذاتها . فالحافظ قادم من العادة الجماعية *"habitude collective"* المستندة الى الاتفاق *Convention* .

وعلى سبيل المثال فان علامات التأديب التى يحى بها الصينيون امبراطورهم (فى زمانه) والمتمثلة فى تسع سجديات مثبتة بقاعدة ، والقاعدة

هى التى تجعلهم يستخدمونها وليست قيمة الشعيرة فى حد ذاتها ، وعلى ذلك
فيمكن القول بأن العلامات التى هى جزافية بصورة كلية ، تحقق على صورة
أفضل من أى علامات أخرى ، الصورة المثلى للعملية السيميولوجية .

ولهذا فإن اللغة وهى أكثر أنظمة التعبير تعقيدا وانتشارا - تعتبر من
جهة أخرى أكثرها تميزا بخصائصها ، ومن هذا الاتجاه يمكن أن يصير علم
اللغة الرائد العام لكل فروع السيميولوجيا على الرغم من أن اللغة نظام
خاص ، (١) ومع الحاح دى سوسير على اصطلاحية « الرمز » عند آثاره للعلامة
اللغوية أو عند حديثه عن الدالة إلا أنه يعود ليثير اعتراضات تنهض دون
التسليم لهذه الفكرة بلا محاجة . يقول « من خصائص الرمز أنه ليس جزافيا
بصورة مطلقة أنه ليس مفرغا "il n'est pas vide" فهناك علاقة طبيعية بين
الدالة والمدلول عليه .

فالميزان الذى هو رمز للعدالة لا يمكن أن يستبدل بأى رمز آخر
« بعربة » على سبيل المثال .

وكلمة « جزافى » تستدعى ملاحظة أخرى ، يجب ألا نفهم منها فكرة
أن الدالة "Signifiant" تعتمد على حرية المتكلم فى اختياره ، فالفرد
لا يستطيع أن يحدث أى تغيير فى أية علامة بمجرد أن تستقر وسط مجموعة
لغوية .

إن ما يمكن قوله هو أننا لا نستطيع تفسير سر اختيارها ، أو لماذا
كانت هى المنتقاة ، ومن ثمة فالدالة غير مبررة أو غير محفوزة "Immotive"
وجزافيتها تأتى من جهة اشارتها الى المدلول عليه الذى لا ترتبط معه بأى
رباط طبيعى فى الحقيقة (١) .

وإذا كانت فكرة دى سوسير عن اختيار العلامة اللغوية التى تصير رمزا
لندل على الأفكار والمعانى توتد الى الجزافية المفسرة بالوضع الجمعى ، فإن

(١) المصدر نفسه .

النظرية قد لقيت بعض المعارضة التي سرعان ما تلاشت مع اصرار تلاميذ دي سوسير وقبول العلماء للنظرية ، ومن أشهر الذين نقدوا النظرية كان « بنفنيست » Benveniste وهو يرى أن « لا جرافية » فيما بين علاقة العلامة بالبدال والمدلول عليه ، ويعبر ذلك العالم عن رأيه بقوله :

« أن ما هو جرافي هو أن تكون تلك العلامة وليس غيرها قد أطلقت على شيء من الطبيعة وليس على شيء آخر » (١) .

وكان ذلك أوضح الآراء التي تحركت في عكس نظرية دي سوسير ومع ذلك فقد كان هو نفسه قد وضع تحفظين أو جدلين أثارتها طائفة من الرموز الصوتية .

ان مجموعة الألفاظ المحاكية لأصوات الطبيعة "Onomatopées" تدل على أن اختيار الدوال ليس خاضعا للجرافية بصورة دائمة ، رغم هذه الصدمة الواضحة فان صاحب النظرية يفسر وضع تلك المجموعة بقوله :

« انها لا تمثل أبدا عناصر عضوية "éléments organiques" داخل أي نظام لغوي ، كما أن عددها أقل بكثير مما نعتقد » (٢) .

ويدلل دي سوسير على أن القيمة التي نعلقها بمثل هذه الألفاظ يجب أن تتفاوت وفق الزمان والمكان .

ياخذ صاحبنا مثالين : كلمة Fouet (سوط - كراباج) وكلمة glas (ناقوس) . ويقول أن مثل هاتين الكلمتين يمكن أن يكون لوقعهما « جرس موح » ولكن لنرى أن هذه السمة ليست لها منذ البداية ، يكفي أن نصعد مع التاريخ حتى الأصول اللاتينية : كلمة fonet مشتقة من fagus وكلمة

Benveniste; Nature du Signe Linguistique, (Acto Linguista, (١)
1939) P. 60.

De Saussure; Cours ..., P. 102. (٢)

glas مشتقة من classicum . وعلى ذلك فالقيمة الصوتية التي لهما الآن أو على الأقل التي ننسبها لهما حادثة من تطور تاريخي عرضي « (١) » . من الواضح أن الرأي هنا لا يريد التسليم بالايحاء الصوتي الذي لمثل هذه « الدوال » ، ولعل هذا الإيحاء متخلف عن طول الملابس التاريخية بين الإنسان والألفاظ .

وأيا ما كان رأيه في هذه المجموعة فإن طائفة من الألفاظ كانت أصلب عودا في مقاومة نظريته عن جزافية الرمز اللغوي ، وأعنى بها ما أثاره هو تحت الألفاظ المحاكية محاكاة غير زائفة les onomatopées authentiques ومن قبيل هذا النوع tic-tac وهو صوت حركة منتظمة متوالية أو glou-glou وهو صوت سائل منسكب . وتقنيد دى سوسير لهذه المجموعة أنها ليست فقط محصورة العدد وإنما محاكاتها للأصوات الطبيعية هي أيضا محاكاة تقريبية imitation approximative .

ثم هي خاضعة أيضا إلى ما يشبه الاتفاق الجزئي « demi-Conventionnelle » . إن هذه الألفاظ تصبح بشكل - أو بآخر - مرتبطة بالتطور الصوتي والصيغي morphologique وغير ذلك مما تُعرض له بقية الكلمات اللغوية ، ومن الأمثلة على ذلك لفظة Pipio التي كانت - بحكم جرسها الصوتي - تدل على الحمامة في اللهجة اللاتينية الدارجة فأصبحت في الفرنسية Pigeon ، فذلك دليل واضح على أن هذا النوع من الكلمات قد فقد بعض مميزاته الأولى ، ليكتسب صفات الدوال اللغوية بشكل عام . ومثل هذا التطور يحدث أيضا بلا مبررات أو دوافع « "immotivé" »

(١) المرجع السابق :

من الواضح أن محاكاة كلمة fouet لصوت « الكبراج » ليست خافية . ولكن العلاقة بين classicum , glas لا تبدو واضحة . وهذا ما تقرره المعاجم الاشتقاقية .
دوزا يقول في معجمه :

Glas : D'abord sonnerie de cloches etc., spécialisé en sonnerie mortuaire; paraît représenter le latin classicum, sonnerie de trompettes, le développement phonotique est irrégulier, (le g peut être dû à glatir).

Voir : Dictionnaire Etymologique par Duzat; P. 364.

وهذا الحذر الذى يتقرر هنا عن الكلمات المحاكية ، يأخذ به ولیم جرای :
« عندما نصف كلمة بأنها « انوماتوبيا » لا بد من التزام أشد درجات الحذر ،
والمعيار النقدي فى كل حالة ليس كون الكلمة فى صورتها الأخيرة تبدو
محاكية أم لا ، بل المهم ان تكون الكلمة فى أصلها الهندواوربى ذات محاكاة
للاصوات التى يعبر معناها عنها .

وعندما يطبق هذا المبدأ فان بعض الكلمات التى لا تبدو فيها المحاكاة -
الآن - سيكون من المحتمل أن نردها لاصولها الأولى . مثال ذلك ان كلمة
laugh (يضحك) ، التى لا يكاد يوجد بها شيء يدل على المحاكاة الصوتية
قد يمكننا الفحص التاريخى من ردها الى الاصل التاريخى الذى منه خرجت
الكلمة اللاتينية clangor . وهكذا لو فحصنا - بالمنهج نفسه - كلمات
أخرى توحى أصواتها بالمحاكاة فلن نصل فى النهاية الى اعتبارها من فصيلة
الانوماتوبيا « (١) . وإذا كانت الروح التاريخية طاغية على تفكير جرای فى
وصفه ذاك الا أن النص واضح فى تحديد التأثير النسبى لفكرة المحاكاة التى
تنسب بها كلمات لما تعبر عنه .

وكما تجادل « دى سوسير » مع قضية « الانوماتوبيا » بشقيها ، فانه
يثير أيضا تحفظه على الجزافية من واقع محاكاة عدد من الألفاظ للصيحات
الانفعالية : les exclamations : فهى اذا كانت تبدو على أنها تعابير عفوية
مستمدة من الواقع بل وربما يقول البعض : انها ملاحظة من الطبيعة ، فمن
الممكن أننا نرفض وجود رابط ضرورى بين الدال والمدلول عليه . « ويكفى
أن نقارن بين لغتين لنرى كيف تتباين التعبيرات فى احدهما عن الأخرى ،
فبينما يقول الفرنسيون : aie يقول الألمان : "au" (٢) وذلك تأكيد
لتباين الصيحات الانفعالية ، حتى مع تقارب البلاد . لقد كانت مجموعة
الألفاظ المحاكية أو المعبرة عن المسموعات أو عن الانفعالات هى الجدار الذى
اصطدمت به كل محاولات العقل لتفسير العلاقة بين الدوال ومدلولاتها تفسيراً
عقلانياً خالصاً . وإذا كانت هذه المجموعات قد حفزت بعض قدمائنا لتأمل

دعوى قيام اللغة فى أصلها من التقليد ، فانها ما زالت حتى يومنا تمنح فرصة سائحة ليخترع الممثلون والشعراء وكل من تصدى للتعبير عن ذات المضامين صيحات جديدة ! ولكن أيمكن أن نعتبر الصيحات بمثابة « دوال » ؟ ذلك سؤال يتردد عند حسم ، يجيب عنه . والتردد يأتى من وجهة النظر التى سنأخذ بها : هل تعتبر الكلمات المعبرة عن الانفعالات مثلا ذات معان ، أم أنها تعبير بلا معنى ؟ تبرير طرح وجهات النظر .

ان الأصل فى الرموز اللغوية أن تحيل الى معان مخزنة فى الذهن . أما مع لفظ « الانفعال » فيصبح المدلول عليه مستقرا وكامنا بالذات ، أى لا وجود خارجيا له .

ولنضبط القضية بمثال من محاكاة صوت الضحك .

وأقدم ما وصلنا منسوباً الى صاحب العين(١) : قهقهه ، قهقهة : رجوع فى ضحكة وقه . والشرح هنا يحيل الكلمة الى الحدث ذاته وليس لمجرد حكاية صوتية . فالقهقهة مصدر يزودنا بكل صيغ الاشتقاق المطلوبة . سيان ما كان للفعل أو للاسم ، ومع ذلك فالخليل يقول : قه : حكاية الضحك ، وكه كذلك . وكما صنع الخليل حين سجل هذه المحاكاة التقريبية ، صنع المنطق اللغوى حين أخضع الحكايات للمقاييس الصرفية .

وكان لغير صاحبنا مسجلات أخرى محاكية للضحك :

١ - القهقهة(٢) : صوت الضحك ومثلها الكهكهة(٣) .

٢ - الطخطخة : حكاية بعض الضحك .

وقد طخطخ الضاحك قال : طيخ طيخ .

وهذه منقولة عن أبى حاتم .

(١) الأمثلة الواردة فيما بعد مأخوذة من الجزء الثانى للمختص - ابن سيده ، ص ١٤٤ ،

وبعضها وارد فى فقه اللغة للثعالبي ، ص ١٩٦ .

(٢) يقول الثعالبي : القهقهة حكاية قول الضاحك : قه قه .

ويقول ابن دريد : القهقهة حكاية استغراب الضحك ، ومن معكوسة القهقهة . جمهرة

اللغة ، ج ١ ، ص ١٦٢

(٣) الثعالبي يذكر عن هذه اللفظة : حكاية تنفس القروى فى يديه .

١ - كر كر : رفع صوته بالضحك .

٢ - تغن تغن :

اها اها : وقد رويت أيضا : « آها آها » (١) .

فغن فغن : حكاية لصوت الضحك .

وهذه عن ابن السكيت .

فرقر : حكاية الضحك المستغرب فيه .

وهذه عن ابن دريد .

هذه مجموعة من المحاكاة لانفعال واحد يشترك فيه كل البشر ، ومع ذلك فالتفاوت واضح فى جرس الكلمات . ولم يحل ذلك دون تحديد « قيمة معينة » للدلالة . ومن ثمة كانت محاولات اللغويين لربط الأفعال التى تدل على الدلالة نفسها من غير محاكاة . فحين تنظر فى قولهم عن معنى : ضحك ضحكا ثم فى قولهم : بسم ، أو انكل ، افتر ، أو كشر (٢) ، فنراها تعقد هذه الأفعال المختلفة الى ظهور سن يضحك عنها الضاحك . من ذلك قولهم : ما فى فمه ضاحكة ، أى سن يضحك عنها . ومنه قولهم فى بسم وما ورد معها « كل ذلك إذا بدت منه الأسنان » (٣) .

هل يمكن أخذ الألفاظ المحاكية للضحك على أنها منتمية الى مستوى معين من اللغة المنطوقة أو المشخصة ، ثم نأخذ الألفاظ الدالة على ما هية الانفعال ، وهى ضحك وما إليها على مستوى آخر أو على نوع من التجريد ، وكل تجريد مستحدث من الخبرة الاجتماعية المتكررة . ولن يصعب فى موقفنا أن نرى ملامح التجريد فى محاكاة صوت الضحك الذى تحول الى أنواع من المصادر الصرفية أو الى الأفعال الرباعية . وإذا كانت اللغة قائمة دائما على تعدد الأفراد مما يجعل أى كائن عاجزا عن انشاء لغة ما دام مستقلا فى

(١) يقول الثعالبي الهاهاة : الدعاء بالابل الى العلف .

(٢) فى كشر يقول صاحب العين : الكشر فى الضحك وغيره . انظر المخصصين ج ٢ ص ٢٤

(٣) المصدر السابق ، وإذا كانت مصادرنا لا ترد ضحك الى أى من الصيغ السابقة ، فهل

نطرح سؤالا عن تطورها عن أى منها ، أليست من ضح - ضح ثم حدث الإدغام وإضافة الانفجار الصوتى الذى تمثله الهاء . وجاء الكاف كحرف غير منبوك .

معايشه عن غيره ، فإن القيم التى تكتسبها العلاقات اللغوية تنبع بصورة حتمية من الانتماء للتمدن الذى هو ضد التوحش . ويصبح كل تعبير سمة للمعبر عنه . وفى التحديد لعنى الاسم يقول ابن فارس : «الاسم سمة كالعلامة والسيما» (١) و«لفندريس» الذى تخطى المرحلة التى كان عندها دى سوسير كلام يحدد فيه صدى تلك المرحلة السابقة التى يحاول اللغويون رد الكلمات المحاكية اليها ، أعنى مرحلة اعتماد وضع الأسماء اللغوية ، أو العلامات الصوتية ، تحت تأثير المحاكاة والتقليد .

يقول فنندريس : عند السلف البعيد الذى لم يكن مخه صالحا للتفكير ، بدأت اللغة بصفة انفعالية محضة ، ولعلها كانت فى الأصل مجرد غناء ينظم بوزنه حركة المشى أو العمل اليدوى ، أو صيحة كصيحة - الحيوان تعبر عن الألم أو الفرح ، وتكشف عن الخوف أو الرغبة فى الغذاء ، ثم لعل الصيحة اعتبرت ، بعد أن زودت بقيمة رمزية كأنها إشارة قابلة لأن يكررها آخرون . ولعل الانسان قد وجد فى متناول يده هذا المسلك المريح ، قد استعمله للاتصال ببنى جنسه أو لاثارتهم الى عمل ما أو لمنعهم منه .

ولا بد أن اللغة قبل أن تكون وسيلة للتفكير كانت فى الواقع وسيلة للفعل ، وواحدة من أنجع الوسائل التى يمكن منها الانسان ، وما أن استيقظ فى ذهن الانسان شعوره بالعلامة حتى راح يوسع من شأن هذا الاختراع العجيب . وكان تقدم الجهاز الصوتى يسير بنفس الخطى مع تقدم المخ» (٢) .

ازدهار الاختراع اللغوى كان منذ أدرك الانسان القدرة التى عنده حين ينقل العلامة من شئ الى آخر ، أى حين صارت رمزا أكثر من كونها إشارة .

وفكرة الجرافية بين الدال والمدلول عليه هى أيضا فرض يحاول به أصحابه قفل باب يمكن أن يأتى منه « وجع الدماغ » دون تباشير « راحة بال » .

(١) الصحاحى فى فقه اللغة ، ص ٥٧ .

(٢) فنندريس ، اللغة ، ص ٢٨ - ٢٩ .

فالقول بها صد عن كل المحاولات التى تدعى التنبيش عن نواح
اسطورية أو ميثولوجية أو فينولوجية .

ولعل هذا الأمل هو الذى دعا « السير ادوارد تيلور » - أحد علماء
الانثروبولوجيا ليقول ، فى عام ١٩٣٠ ، وكانت آراء دى سوسير قد غزت
التفكير اللغوى ، : « ان كل ما يصح لنا قوله هو أن معرفتنا لكيفية اختيار
الانسان للعلامات ستجعل من المحتمل أن يكتشف نوع من الملاءمة أو الارتباط
لجعل الصوت المعين يختار للتعبير عن المعنى المعين . ولعل ذلك هو أكثر الآراء
قبولا عندما نواجه مشكلة أصل اللغة » (١) .

ومع ذلك فسواء نجحت فراسة اللغويين فى كشف ملامح من الصلة
الذاتية بين الدالة والمدلول عليه ، كما صنع ابن جنى وابن دريد وغيرهما ،
أو لم تنجح كما قرر دى سوسير من عرض نظريته . ففى الحالتين ستبقى
« التعبيرية » واضحة بين المتحادثين :

« لعل ما ذهب اليه دى سوسير صواب ، ولكن لا شك فى أن هذه
القوانين أو التحولات الصوتية لا تؤثر فى تقدير المتكلم أو السامع لقدرة
الألفاظ على التعبيرية "expressivness" » (٢) .

مستويات التراكيب :

الخلاصة التى يمكن أن يصل اليها بحث دى سوسير عن علاقة العلامة
اللغوية بالمدلول عليه هى نفى الارتباط المباشر أو نفى فكرة أن الصورة
تتحرك وكأنها مشدودة الى نغمات صوتية خاصة ، ولكن مع ذلك فمن حق
دى سوسير أن تكون له اضافته الكبيرة التى أضفها على المنظر اللغوى فى
الدراسات الأوروبية الحديثة ، فالى جانب اصراره على الدراسة الوصفية
والدراسة التاريخية للكلمات ، كانت ثورته تتمثل فى رعايته للدور الذى
يقوم به المتكلم ازاء اللغة . واذا كان قد قرر « جزافية » العلامة اللغوية من

Sir E. Tylor; Anthropology, T.I., P. 104, (ed. 1946).

(١)

S. Ullmann; The principles ... ; P. 90.

(٢)

جهة فانه قرر في نفس الوقت فكره عن « النظام » ~~عناصره~~ والفى يقوم
أساسا على « الوحدات الجزائية » وكانتا لهما وجهين مختلفين تماما : وجه
قر المشواتية ، وجه قر التنظيم . وفي اجتماعهما ينشأ الكل التجانس .
والكلن الذى تحته اللغة وسط السلسلة التصيرية هو الذى يحس من
الفن وضعها المشواتى ويحولها الى شكل « انتخابى » . « والنظام » الذى
به يكون الحديث يحيل الوحدات الى « بناء به مساعدة وتكافل كاملان » ويجوز
مثل ذلك التكافل يبقى تصورا للغة عاجزا عن ادراك العملية التوصيلية او
الاضالية التى على « نظامنا » اللغوى ان يتكفل بها . ومن ثمة فالتركييب
اللغوى قائمة أساسا على « التنظيم » ، ولن يتم ذلك الا فى مستويات خفية .
وكل تركيب لن يصل الى سر « كلمة الا عندما تكون هناك - الى جواره -
يابعد عنه - تراكييب أخرى تضى عليه دلالات معينة او ربما يمكن القول
بان التركيب يكتب شيابه حين يتفرد عن غيره من التراكييب وكانتا لهما ما
يسمى علماء الرياضيات بـ « الفئات » . أى ان الجملة - او التراكييب - لا تستعمل
بمنزلة ثابتة معينة ، وانما هى منتبذة الى جميع أخرى من التراكييب وكان
الدور يعود بنا الى البدء . لنرى جهد قر من قضا علمائنا يتخطى عتبة
تجزئة الألفاظ الى مكوناتها ، يسعون الى نشر نوع من الصلة بين المكونات
والتكونات ، سواء كان ذلك فى نطاق الوحدة والعلامة اللغوية او فى نطاق
المبارة ، والمبارة للنظومة .

ولا شك فى ان قدم العربية ، واحتفاظها بكثير من السمات الرفيعة
فى بيتها قد آذن لهم بمثل ذلك التعقيب .

وأحسب أيضا ان تعلق الفن الشعرى كان ما أرفف « السمع بالقلب »
- ان صرح حيا التميز - املا فى كشف الجانب السحرى والاضلال ومن ثمة
لم يكن من المسير استقبال توجيهات أسطى الاشتقاق ، تمهيدا للاحاساس
بالإيقاع النفسى المرتبط بالإيقاع الصوتى .

ولما كان علم اللغة لا يعتبر الصوت فى ذاته رمزا ، فذلك حق . ولن
يتطرق تلك الصفة الا بعد ان يقره العقل بسلول عليه من خلال نوع من
الخلق الكامل او الجزئى . ولما استقر بنا القول على احاطة بنى الرمزية عن

الصوت - فى ذاته - فان ذلك يوفر علينا القول بأنه يؤدى معنى مستقلا .
فلو أخذنا صوت حرف « كالتون » ثم صوت حرف « كالباء » فلا دلالة لاي
منهما .

وحين نضيف حرف « العين » أو « الغين » فقد استكملت خبرتنا اللغوية
سلسلة من النظام الصوتى المألوف ، ثم يتعرض العقل لتحريك صورته عند
وقع « نبع » أو « نبغ » . وهكذا تتحرك صورة أخرى من « منبع » أو « نبوغ »
وما إليها .

وعلى نفس الدرب نستطيع أن نترسم بناء مثل « نبع الماء فى الصحراء »
أو النبوغ محمول على الاجتهاد » .

والسؤال عندئذ : أيمكن أن يسرى منطق تحليل النظم الى مكوناته مع
تحليل العلامة اللغوية الى مكوناتها ؟

الاعتراض الجوهري على التسليم هو : أن معرفة الحروف أو تقسيم
الكلمات الى « فونيمات » قد حدث متأخرا ، مع بدايات الكتابة فى أية صورة
من صورها ، وان كان ذلك لا يحرم اللغوى من تصور حس خاص كان متحققا
عند وضع أية أجزاء من النظام الصوتى ، بحيث يبدو التنسيق أو الائتلاف
الايقاعى متحققا . وإذا كانت الاصوات عند الانسان غريزة ، فما يمنع أن
نقبل امتداد تلك الغريزة لتكون هى الديدن الذى به استقر النظام الصوتى .

وفى عكس السياق يقول سايبر « ان اللغة غير غريزية ، وان كانت
وسيلة انسانية خالصة ، يستعين بها الانسان لنقل أفكاره وانفعالاته
ورغباته ، ويتم ذلك بعد أن يصطنع الانسان نظاما من الرموز الارادية » (١) .

ولم تستند هذه القضية التى يوردها علماء اللغة المحدثون لأية دراسات
تاريخية ، فان نمتلك شيئا عن مراحل كان فيها الانسان يراوضه فيها
صوته الغريزى ليطويعه الى غير الغريزى ، يبدو نوعا من الوهم المجتث من
أعشاب الخيال .

ولا شك فى أن القدرة التى يعمل بها العقل مع العلامات اللغوية وتحويلها بإرادته من مجال الى مجال هى التى تدفع بنا الى تضخيم الناحية الارادية حتى توشك أن تبدو أمامنا وكأنها - كلها - من صنع الارادة ، ولم نستبعد النقيض !!

ارتباط اللغة بالانفعالات وبالحياة فى أصولها البسيطة الساذجة ، أقوى من ذلك ! واذا كان الزمان يكسب العلامات الصوتية ثباتا ويحيطها برعاية تباعد بها عن العفوية والفجائية ، فذلك مرتين بالاستقرار الاجتماعى ، وبالنموس الذى يسلك الانسان نفسه فيه حتى لا تنبهم أمامه علامات ماضيه أو حاضره أو مستقبله . وكل العلامات اللغوية تتحول بغريزة العقل الانسانى الخاص الى مثيرات لصور ذهنية متماوجة مع حركة الزمن والتقلب الثقافى والحضارى ، ان قضية المحاكاة للأصوات ، أو لأحداث ، تظهر فى الكثير من أصول الكلمات . ولعلنا لو امتلكنا أعنة الأصول والتصاريف التى امتلكها علماء عصورنا القديمة ، لا نقشع شئ من الضباب ، وأنا آخذ فعلا يكاد بنو البشر يزاولونه فى كل مراحل حياتهم ، وأعنى به الحديث همسا ، فنراه عندنا مستمدا نظامه الصوتى أو بنيته من المحاكاة . « وسوس » أو « هسهس » وهو عند الفرنسيين chuchoter ، واللغتان منتميتان الى أسرتين متباعدتين . بينما الأسباب وهم مع الفرنسيين فى الانتماء الى اللاتينية يجعلونه susurrn أما الانجليز فيقولون whisper والألمان يقولون : wispern مثل هذا الاتفاق على الصيغ المتقاربة - فى طبيعتها - لا تفسير له الا من خلال المحاكاة . وهى لم تحدث الا بفضل غريزة آدمية كانت من مصادر المعرفة البشرية .

ومع ذلك فإذا كان من اليسير على العلماء تحليل عشرات أو مئات من النماذج التى لن يصعب ردها الى درجات من التقليد والنقل ، فستبقى الآلاف مستعصية وهاربة من كل القيود . ومرور الزمان وما أحدثه من تحولات صوتية يقف فى موضع الاتهام . ان اللغة وفى مقابلها Le langage - أداة انسانية - تجمع المنطق « النظر الموضوعى » الى جانب العاطفه أو الجانب الانفعالى . وهى أداة انسانية عامة تؤخذ على أنها من صنعه ، وبمهارته كذلك يفسرها .

واذا كان من حق نهضة العلوم اللسانية فى الثقافة الغربية المعاصرة
أن نعترف لها اليوم بسبق فى مجالات التحليل الرمزى والأخذ بفلسفات
رياضية وعلمية جديدة عند الغوص وراء التركيب اللغوى واختياراته ، فليس
من حقنا - فى الموقف نفسه - أن نضيّق المجال الذى نثر فيه قدماؤنا جهودهم
الضخم عند التفتيش عن علاقة الدالة بالمدلول عليه .

« امتزاج النهج التحليلي بالنهج الفلسفي »

الاختيارية عند ابن سيده :

فكرة ثابتة تقلبت حولها الآراء : هناك من يربط الاسم بالمسمى ، وهناك من يربط المعنى بالجرس الذي يكون . ثم كان جدل آخر حول صلة الكلمة بالوجود الخارجى أو الدائر فى الذهن .

وكان هناك رأى ابن سيده الذى قال فيه : « ان اللغة اضطرارية وان كانت موضوعات ألفاظها اختيارية » ومن هذه اللمحة القصيرة التى قالها ، ذلك اللغوى الكبير لا يصعب أن نقرن كلامه بما قرره دى سوسير من جزافية أو اختيارية العلامة *L'arbitraire de signe* . شئ واحد لا بد أن نحترس منه ذلك هو أن نفهم الاختيار مع ابن سيده على أنه القصد . فالذى يغلب على روح علاجه للقضية أنه كان يستهدف تحطيم فكرة الارتباط الطبيعى بين الاسم والمسمى ، أو بين الدالة والمدلول عليه .

انها عملية اختيارية تلك التى يتم بها اختيار الدالة أو هى عملية تحكمية ان شئنا ذلك ، والاختيار لا يقوم به فرد وانما هو من قبول الجماعة ، ولا يصبح فى يد فرد من بنيتها احداث تغيير بالحذف أو الالقاء ، لأن الجماعة هكذا - تلقته ، وهكذا تسلمها الى من بعدها . وحتى حينما تتعرض الألفاظ لتغيرات صوتية فلن يكون من اليسير رد هذه التغيرات الى محدثيها . بل ولا الى عصر حدوثها ، اللهم الا ان أخذنا بمبدأ التقريب والتجاوز عن المنطق العلمى الدقيق .

واذا كانت لفظة « الاختيارية » التى وقع عليها مؤلف الخصائص تثير لدينا الغموض ، فذلك كانت لفظة "arbitraire" التى سجلها - دى سوسير ، وأخذها المحدثون من بعده - والصعوبة ازاء الكلمتين ، أو ما يأتى من قبيلهما ، من « أن اللغة هى أكثر مهارات الانسان غموضا » (١) .

ولم يشفع طول الألف أو كثرة التقليل لحل غموضها . وإذا كان بعض علماء اللغة المحدثين قد رأوا فيما قدمه دي سوسير من تقسيمات المعالجة إلى مستويات *la parole , La langue , Le langage* خروجاً من الغموض^(١) ، في الواقع أنه ما يكاد واحد منهم يمسك بأى من المستويات ليقترّب من أعماقه حتى يشعر بالتواء المسار .

وفي نطاق ما قاله دي سوسير عن « جزافية العلامة » يثير بنفست Benveniste اعتراضه قائلاً : « ان الجزافى هو أن تلك الاشارة ، وليس غيرها تنطبق على ذلك الشيء من الواقع ، وليس على شيء آخر »^(٢) . دلالة ذلك الاعتراض هي أن تحليل العالم السويسرى لم يكن مقنعاً لكل من تناول القضية . ونفس الأمر يضعه أولمان حين تساءل : هل ترجع العلامة الدالة *Signifiant* إلى الأشياء خارجة عن الكلمات أم أنها تعود إلى مضمون عقلى مقابل لها ؟

ويجيب من وضع السؤال : ان القضية قد بقيت بدون حل حاسم . ولعل أولمان ، كما يلح فى كتابه الكبير عن علة الدلالة قد آثر ما ذهب إليه « جومبكر » *Gombocz* حين استعمل مصطلحين بسيطين يستعملان فى اللغة اليومية ، وأحياناً نستخدمهما فى المساقات الدلالية دون أن نحاول منحهما شيئاً من التخصص الفقهى أو الاصطلاحى ، شأنهما فى ذلك شأن الكثير مما يدخل إلى ميدان علوم الدلالة . جومبكر يرى أن الصورة الصوتية للكلمة ، وما تتكون منه من « الفونيمات » تشترك فى تكوين الاسم *name* وهى التى تقابل الدالة *Signifiant*^١ عند دي سوسير . ثم ان الاسم عند ذلك العالم لا يرجع إلى الشيء نفسه ، وإنما يرجع إلى فكرتنا عن الشيء . ويعلق أولمان على اتجاه جومبكر بقوله : للفظه الاسم *name* مظهران :

الأول منها معنوى عام *Virtual* ويبدو فى اللغة حين تختزن على هيئة الصور الذهنية *engrams*

Louis Gray; Foundations of Language, P. 14.

(١)

Ullmann; The principles — PP. 83-84, note No. 2.

(٢)

الثانى منها هو المنطوق actualised ، وتظهر العملية أثناء الحديث

speech أو la parole حين يتحقق فى أداء صوتى .

التصور الذى يثيره الاسم هو ما أطلق عليه المعنى ، Sense ، وهكذا

نصل مع « أولمان » الى أن الاسم name يعادل Signifiant والمعنى :

sense يعادل Signifié . ولن نتحقق المعادلات الا اذا كانت اللفظة

الآخيرة عائدة الى التصور الذهنى ، وليس للشيء نفسه (١) . وسر الاصرار

هنا هو حرص على منح الشيء المعنى وجودا مجردا ، أو على الأقل وجودا غير

حضورى ، فذلك هو ما يجعل للحديث عن الرمز موضعا فى السياق ، والا

اكتفين من الرمز بالعلامة التى فيه ، ويصبح كل ظل عقلى لا وجود له .

ان الموقف ازاء اصطلاحى « دى سوسير » أو اصطلاحى النقد الأدبى

لا يغير كثيرا من حقيقة البحث عن الناحية « الرمزية » وراء المنطق اللغوى .

واذا كان الانسان قد تحدث طوال عمره بلغة ما ، فان البدايات البعيدة التى

أخذ بها منذ تيقظ للدور الاجتماعى ثم النفسى الذى تلعبه فى حياته تؤكد

قدم وجود « علم اللغة » حتى وان لم يعرف الاصطلاح الا مع مراحل التدوين

والتفكير الكتابى . واذا كان عصر ارتباط التفكير فى اللغة كمجرد أداة ساجرة

قد زوحم بالتفكير فيها كعناصر نقدية لفهم مكونات الحياة الاجتماعية عند

الانسان أو لفهم مكونات التيارات الثقافية التى تشكل المواقف النفسية من

الواقع ، اذا كان ذلك قد أصبح مراحل تاريخية أمام علم اللغة المعاصر ،

فاننا مازلنا نصطنع كل المناهج بغية كشف العمليات العصبية المعقدة التى

يقوم بها جهازنا العصبى كله . عند التعبير عن قضايانا . وفى أقل الجمل

بساطة ، لا بد أن نتصور سبق الجهاز العصبى لكل نطق خارجى ، أو داخلى .

وذلك لأن العلامة اللغوية مع الانسان تختلف تمام الاختلاف عن مثلها مع

الحيوانات الأخرى .

ولعل أوضح وجوه الاختلاف حادث عن خضوع « علامتنا » للتغيير ،

وللانتقال . ومراجعة تاريخ عشرات ، بل ومئات من العلامات التى اختفت

وخلت أماكنها لغيرها تؤكد لفكرة التغيير . والشيء الثانى المميز لموقف البشر

فى لغتهم هو ضرورة الالتزام بالاتفاق الجمعى . فهو متحكم دائما عند كل تغيير ، أو استبدال ، أو افتراض ، يحدث فى لغة أو بين لغات . وتتبع هذين العاملين : التغيير والاتفاق يمثل قضية كبرى من قضايا علوم اللغة . ومن درسهما تجتهد مناهج العلوم الحديثة كعلم «الانثروبيولوجيا» أو علم «السيكولوجيا» أو «السوسيولوجيا» لاكتشاف مواضع الاهتمام التى يسعى لها كل منها . وليس من الغريب أن نرى نفس المناهج التى قام بها القدماء من علماء اللغة تصطنع اليوم فى العلوم الانسانية كافة .

ان القدماء استعانوا بـ « الملاحظة » لرصد الظواهر اللغوية أو الصوتية . ثم بعد أن تم لهم - وفق معاييرهم - ذلك الرصد أو التلاحظ - انتقل النظر من الوصف الى درس التركيب . أى الى درس تأثير ما تمت ملاحظته مع العقل والوجدان . ونفس الروح هو السائد الآن ، فحين يأخذ اللغويون فى تحليل موادهم الى « فونيمات » أو الى « مورفيمات » ثم الى شبه جمل أو جمل ثم الى عبارات أو تراكيب ، فالأمر قياس علمى ، واستفادة بارعة من تقدم فروع المعرفة الأخرى ، ثم هو فى الموقف نفسه قد زود كل الباحثين عن تاريخ الانسان : عقائده وقيمه ، حضاراته وثقافته بمفاتيح صالحة . ولعل ذلك هو ما يدفع بعض العلماء الى تقرير « ان عالم اللغة هو عالم الاجتماع الوحيد الذى حقق العناصر الأساسية لموضوع البحث » (١) وهم يفسرون ذلك بقدرته على اكتشاف تركيب مادته ، موضع البحث ، ثم اخضاعها لكل منهج علمى يمكنه من تعميق فحوصه واستجلاء استنتاجاته ، ولقد يفوت ذلك الكثير من الفروع التى ما زالت تستند الى افتراضات أو أخذ عينات محصورة ، زمانيا ومكانيا . ومع ذلك فمن الصعب الاسترخاء لأن مناهج التحليل اللغوية أو مناهج دراسة تركيبها قد وصلت الى كشف عما يدور بالعقل الانسانى وبكل حواسه حين ينفع مع جملة ، أو يكون له رد فعل ازاء قول .

الصعوبة تاتى من قاعدة بسيطة لا مشاحة فيها ، نعى بها أن كل اسم يستدعى مسماء ، بحكم العلاقة المتبادلة بينهما . ولكن ماذا فى الارتباط من استنتاجية ، وماذا فيه من ديناميكية !! فحين أسمع لفظ « البحر » أفكر فى

ذلك الكم المائى المسمى باللفظة . ولو أننى فكرت فيه فسانطق باللفظة ضرورة . سيان فى ذلك منحت اللفظة طاقتها الصوتية المسموعة أو حبستها عنها .

مثل ذلك التداعى بين الاسم والمسمى به يأخذ عند التحليل سمنا آخر هو الارتباط بين الصورة الصوتية والمضمون العقلى . ولا تبقى الصورة الصوتية مجرد علاقة دائما وانما هى رمز Symbol - يحرك شيئا مرتبطا به ذهنيا . والارتباط الذهني هو أهم ما يفرق العلامة عن الرمز .

واذا كان كل منهما قادرا على التعبير عن شئ آخر غيره ، الا أن العلامة - أيا كانت - ترتبط بمدلولها ارتباطا مباشرا ، وهناك نوع من الإشارة المباشرة ، فاشعة الشمس مثلا علامة على أن الشمس طالعة ، والسحاب الأسود علامة على المطر ، أما كلمة « الشمس » أو « المطر » فهى « رمز » للشئ المسمى . ومن ثمة يصبح كل ارتباط بمسمى عن طريق غير « اشارى » أو « علامى » ، وبواسطة صوت لغوى نال حظوة الاتفاق الجماعى - مهما كان محدودا - هو النهج الذى نسلكه لنصل الى معنى اللفظ ، وحينئذ يصبح حد المعنى مشدودا الى العلامة التى تمكن كلا من الاسم والمسمى من اثارة الآخر . وحين تحل « الاثارة » وسط مصطلحنا الوقتى فنحن أمام عملية ديناميكية ، وكان الوضع الثابت أو - الاستاتيكي - لما نصطلح على منحه « المعنى » . قد اكتسب حقيقته الجوهرية من أنه ديناميكي . ويدل هذا المعنى عند البحث عن « الدلالة » عن دوره المستقل ، ذلك أنه تحول « الى علاقة أو الى خط القوة والجذب الرابط لهذه الاصطلاحات بعضها مع بعض » (١) .

وفى الكتاب الذى ألفه « السير الان جاردنر » عن نظرية الحديث واللفظة، أصر المؤلف على التفرقة بين « المعنى » الذى يساوى عنده المسمى - والشئ -

المعنى Thing-meant - أى ما يرجع إليه ، وهو المرتبط ذهنيا بالعلامة اللغوية (١) .

وتفسير موقف « جاردنر » هو أنه لا يستبعد من محاضرات « دى سوسير » حول الرمز اللغوى أنها تجميد لقدرة الانسان على تحريك ما يعتبره دى سوسير رمزا من مجال الى مجال .

والرمز عند « جاردنر » رهين باستخدامه لحظات الحديث ، وكل اهمال لذلك سيجعل اللغة مجموعة من « المفردات » . والحق أن « دى سوسير » لم يفعل ذلك الأمر ، ففي فصل فى كتابه يتحدث مؤلفنا عن طبيعة العلاقة اللغوية فيقول :

« ان بعض الناس حين يرجعون اللغة الى أوليتها يرونها مجموعة من المفردات *nomen clature* أى كشفا بمصطلحات تقابل ما يمثّلها من الأشياء (٢) . » وعنده أن مثل ذلك التصور يجعل الأفكار حاضرة ، وكأن على واضعى اللغة مجرد اختيار العلامات . ومثل ذلك الفرض مرفوض ، لأنه حتى عند الحديث عن مثل ذلك الوضع نضيق الاحساس بطبيعة الاسم الذى وضع ، أكان صوتيا مباشرا أم نفسيا مرتبطا باستخدام معين ، وكلمة مثل « شجرة » *arbor* يمكن أن تقدم تفسيراً - للمجملين - على أساس أن لها وجودا معينا ، وهى خلاصة مستمدة من أنواع عديدة من الأشجار ذات الأسماء المعينة . وكأن افتراض وضع الأسماء بمجرد وجود رابط يناقض الخبرة اللغوية أو التحليلية اللغوية ، ولنفس هذا الاحساس يقرر ذلك العالم أن العلامة اللغوية *le signe linguistique* لا تربط بين شئ واسم ولكن بين مفهوم *concept* وصورة سمعية أو صوتية *image acoustique*.

Sir A. Gardiner, The theory of Speech & Language P. 59.

(١)

De Saussure; Cours ... P. 97.

(٢)

الدلالة والصورة :

الألفاظ لم توضع ، كما أنها لا تستعمل ، لتعيين الأشياء بذواتها ، فهي محركة للمعاني الرمزية فالإنسان يمتلك من تجاربه ، ومن تجارب أترابه ، رصيذا هائلا من الصور الذهنية الكامنة ، فعندما تقول : « رجل » لا يمكن أن يشير هذا اللفظ في نفوسنا شيئا ما لم يكن في ذهننا صورة للرجل ، اللفظ رمز لها ، ومحرك (١) . وتحرك الصورة شيء بالغ التعقيد . وكل معنى حادث عن تداخل دائم بين سلسلة من العلاقات أو عن علاقات بشرية يحملها ما نسميه بـ « المعنى » ولم يكن ما قاله الأصوليون عندنا ضربا من التقعر اللغوي ، حين قسموا دلالة الألفاظ الى ثلاثة مستويات (٢) :

١ - تلك التي أسموها « دلالة التطابق » ، وهي نوع من التطابق بين اللفظ الذي ننطقه والدلالة المشار إليها . ومثالها في أد « البيت » يطلق على مجموعة الجدران ، وان « المدرسة » تطلق على مجموعة الفصول ، وهكذا تتطابق الدالة مع المدلول عليها .

٢ - الثانية التي كانت ، هي دلالة تضمن ، دلالة تفيد فيها الدالة وجود جزء في المدلول عليه ، لا يستغرق كل اللفظ ، ومثالهما : لفظة « الإنسان » وتضمنها معنى « الحيوانية » أو لفظ « البيت » وتضمنه معنى السقف .

٣ - آخرها هو دلالة « التلازم » أي أن الدلالة يلزمها جزء آخر لا تكفي الدالة لحمله .

مثال قولنا : « السقف » فانه يستلزم صورة الجدار الحامل له ، أو قولنا : « المخلوق » يستلزم الدلالة على « الخالق » .

ومع مثل هذا الجدل فإن القضية توشك أن تنفصل عن الفكر البشري حين يدور الجوار حول « اللفظة ومعناها » تطابقا وتضمنا ولزوما ، ولذلك

(١) دكتور محمد مندور : الميزان الجديد ، ص ١٤٣ .

(٢) يمكن استقصاء التقسيمات في مثل كتاب الدكتور علي سامي النشار ، ص ٢٧ وما

بعده : « مناهج البحث عن مفكرى الاسلام » .

كان الحوار الذى استكمل المجال هو « الذى تناول علاقة الفكر • وأصبح علم اللغة يرى أنه يستحيل أن تحمل الأصوات مستقلة أو مركبة أية دلالات دون مساندة دائمة من تفكير المتحدث والسامع • واشتراك العقليين : المرسل والمستقبل ، هو القناة الأساسية التى تكشف لنا عن دلالة العلامات اللغوية ومدى اقتناص رمزياتها من كلا الجانبين • وحين نستحضر فى الذهن متحادثين من أبناء لغة واحدة ، ولكنهما على مستويين مختلفين من الثقافة والاهتمامات الحضارية ، فإن كل محاورة بينهما لا تصل بهما الى استخدام لغوى واحد • ولن نتردد فى القول انهما يستخدمان لغتين ، حتى وان جرت الأصوات اللغوية على جهازى نطقهما • فلو تصورنا الشاعر ذا الرمة مثلا ينشد قصيدة له فيمن لم يألفوا معجمه الشعرى فلقد تكون لهم تعليقات - صوتية - كذلك ، ولكن لن يصح زعمنا أن حوارا مستندا الى « الرموز » اللغوية قد جرى بينهم • وتثير من المواقف المسرحية ، التى يصنعها المؤلفون نلعب دورها حين تزيد المفارقات والمناوشات النفسية على التفاوت العقلى ازاء المقامات اللغوية • وليس من العسير تقرير أن مثل هذه المقامات ناهضة على الجمل أكثر من نهوضها على المفردات ، ومع ذلك فلم يكن « النظم » أو « التأليف » كافيا لازالة الفواصل ، ولن يتم ذلك الا باستكمال الطاقة المفكرة التى لا بد لكل من الأطراف المتحاورين من انفاقها أو اضافتها الى ما عند الآخر • فلا يكفىنى عند سماع جمل أو عبارات من محاورى أن ألتبس فيها معانى وحداتها ، ولكن على دائما أن أضيف الى ما وصلنى • وقد تكون اضافتى مسايرة للتيار الذى امتد بينى وبين رفيقى فى الحديث ، وقد تكون معارضة أو ربما تكون عائمة بين هاتيك • ومهما يكن الموقف فإن الاشتراك العقلى بين المتحادثين هو الذى يمنح « الرمز » اللغوى جدواه ، والا صار مجرد علامة أو فى بعض الأحيان مجرد ضوضاء : « ان سيكولوجية اللغة تمثل مظهرين أحدهما للمتحدث والآخر للسامع ، ولا بد أن تكون هذه السيكولوجيات حينما يعبر عنها المتحدث بالكلمات فى متناول فهم المستمع أو المستمعين ، وان فات ذلك فلن ينتج الا عدم الفهم والتخليط • ولو أن المتحدث من وجهة النظر السيكولوجية ، قدم أفكاره التى لا يمتلك مستمعه عنها معرفة كافية ، أو لو أن عقلية السامع رفضت - تمردا - الاستجابة لتلك الأفكار وعزفت

عن مناقشتها أو اعتبارها ، فلن يتم تفاهم حقيقى بين المتحدث والسامع حتى لو أن الأول نطق كلماته نطقا سليما ، والتقطها السامع التقاطا كاملا . ونفس الشيء يحدث حين يعجز جهاز النطق عند المتحدث عن توضيح الكلمات للسامع ، فلن يتم الحوار والفهم « (١) » . ولو أننا أخذنا من مصطلحنا الدارج مثل العبارات : « خاتمة الألفاظ » أو « المعنى فى بطن الشاعر » ثم أمعنا فيها النظر لوصلت بنا الى فلسفة لغوية واضحة ، انهما وأمثالهما تدوران على وظيفة اللغة الجوهرية ، انها تؤكد لاتحاد كامل بين « اللفظ » و « المعنى » ، ولن يحدث ذلك الا تحت قبة متجانسة - أو على الأقل متقاربة - من الفكر . وصحيح ان اللغة - بطبيعتها - محافظة . أى أن حكم الارتباط الدائم بينها وبين الانسان جعله يسعى الى تثبيتها على قدر ما يستطيع ، ففى الثبات جذر له فى الماضى ، وبدون ذلك لن يسترشد مما ينهض عليه مجتمعه سواء فى الجانب الروحى أو فى الجانب المادى . ومع ذلك فتمتاز العصور الحضارية للحياة بخصائص معينة ، وهذا يكون الصراع بين محافظة اللغة وبين الآفاق الجديدة ، التى تكون اللغة بلا شك من العوامل التى تساعد على الاشراف عليها . وتحل المشكلة من خلال استخدامات انشائية جديدة ، وكل منشئ : حادث ، يفصح عن « دلالة » حادثة ، وهذه القاعدة يستتبعها تحول فى النظام الصوتى . ولن يتوقف مثل ذلك التحول على مورفولوجيتها - أو على نظامها الصرفى - ولكنه كثيرا ما يكون فى فونولوجيتها أو فى طرق الأداء الصوتية . وعلى قدر الارتباط بين اللغة المنطوقة ، أو اللغة الحية اليومية ، واللغة المكتوبة يكون تلمسنا لهذه التحورات . ذلك أنه كلما ضاقت المناطق الفاصلة بين اللغتين كانت التحورات أقل وقوعا . وتبرير ذلك أنه عند كل اتهام لمحدث بالخروج عن الروح المحافظ للغة ، أو لكاتب لمجانبتها تقاليد السلف ، لا يجد ملاذاً له الا فى اعتماده على اللغة التى تقرر أذنه كل يوم ، ويخيل اليه أن نبض الحياة بها أكثر دفئا .

اللغة والطبع :

إذا كان علم اللغة يسعى لتقديم تفسيرات أو شرح أوضاع ، فمن الحق أن نفرا من قدماء نقادنا قد وضعوا أصابعهم على القضايا ، قضايا التباين بين الأداء الصوتي والمضمون الفكرى . ورغم ادراكهم لدور « الطبع » عند اختيار القول ، فإن حسهم ببقية البناء اللغوى كان واضحا وشفافا . ومن خير رجالنا الذين مثلوا الاحساس كان القاضى الجرجانى ، يقول : « وقد كان القوم يختلفون فى ذلك (التعبير الشعرى) ، وتباين فيه أحوالهم ، فيرق شعر أحدهم ، ويصلب شعر الآخر ، ويسهل لفظ أحدهم ، ويتوعر منطق غيره ، وانما ذلك بحسب اختلاف الطبائع ، وتركيب الخلق ، فان سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ، ودماثة الكلام بقدر دماثة الحلقة . وأنت تجد ذلك ظاهرا فى أهل عصرك وأبناء زمانك ، وترى الجافى الجلف منهم كز الألفاظ ، معقد الكلام ، وعز الخطاب ، حتى أنك ربما وجدت ألفاظه فى صوته ونغمته ، وفى جرسه ولهجته . ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك ، ولأجله قال النبى صلى الله عليه وسلم : من بدا جفا - ولذلك تجد شعر عدى ، وهو جاهل ، أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤبة وهما أهلان ، لملازمة عدى الحاضرة وابطانه الريف ، وبعده عن جلالة البدو وجفاء الأعراب ، وترى رقة الشعر أكثر ما تأتيك من قبل العاشق المتيم ، والغزل المتهالك ، فان اتفقت لك الدماثة والصبابة وانضاف الطبع الى الغزل ، فقد جمعت لك الرقة من أطرافها » (١) .

حين نصفى هذا النص الهام من الأحكام النقدية أو القيم الجمالية التى يستشعرها صاحبه فى شعر واحد من الشعراء دون آخر ، أو حين يفسر أثر البيئة على الشاعر فان ثلاث حقائق أساسية تبقى ، وهى مما يهتم به علم اللغة الحديث :

الأولى : تظهر فى قوله ان سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع . والجرجانى لا يقصد بالسلامة هنا كما يقصد غيره الذين آثروا لغة البادية ، لفصاحتها

أو لبعدها عن لين لغة الحواضر والأمصار . انه ببساطة يريد العبارة التي تتفق مع الموقف النفساني ، مما يحدث عنه سلامة النظم أو التأليف .

الثانية : « ربما وجدت ألفاظه في صوته ونغمته ، وفي جرسه ولهجته » . وأظن أن الجانب الذاتي الذي يتميز به كل انسان يتضح في هذه اللمحة ، والدراسة الفنولوجية المعاصرة ما عادت تكتفى بشرح مخارج الحروف وأوصاف أجراسها ، انها تريد الكشف عن النظام الصوتي ، وهو متفاعل مع الألفاظ التي يختارها الشاعر ثم هو مرئي من خلال النغم والجرس . ولو تذكرنا ما أثاره « دي سوسير » عن الحديث *La parole* فلن يضيق علم اللغة بملاحظة الجرجاني الذكي .

الثالثة : ان رقة الشعر تأتينا من قبل الشاعر العاشق الذي ينضاف طبعه الى غزله . وهو توكيد لسيكولوجية اللغة التي تجعل من التأليف صنوا للموقف النفساني ، بل هو الرداء والروح اللذان نستمتع بهما ، وعنهما نعرف بعض ما في الاعماق .

هذه القضايا تمثل حقولا ما زال علم اللغة يحاول أن يستكشفها . واذا كان الجرجاني قد وصف الوضع وحدد معالنه ، فان التنقيب عن سر ذلك هو ما يشغل به المعاصرون حيزا من ضروب نشاطهم . واذا كانت رعاية الناحية الصوتية ، سيان في ذلك سلامة اللفظ أو حركته الاعرابية تمثل رعايتنا التركيب الظاهري للعبارة ، فان رعاية المعاني والتفتيش عنها واحاطتها بالتهيو النفساني يمثل ما يمكن أن نسميه بالتركيب البعدي . ولن ننجح في تلقف المنطق اللغوي المتكامل الا اذا كان الجانبان - الظاهري والبعدي - قد حققا لنا ما نصبو اليه من أغراض لغوية . ولعل الناظر في أقسام المسميات لعلوم اللغة يدرك خلطا واضحا بين الفروع المتجاوزة . فنلاحظ التداخل بين علم الاشتقاق وعلوم الصرف ، والفرعان ، من بعد يختلطان بعلم دلالة الألفاظ . وهذا الأخير يصعب أن نجنيه بعيدا عن علم التراكيب أو عن علم النظم والانشاء . ولا تفسير لهذا الاشتباك الدائم الا بطبيعة اللغة ذاتها التي تتمرد باستمرار على كل الحدود ، بحكم أن الحدود أوضاع منطقية أو فكر منطقى يسعى للتقنين ، وكثيرا ما يشب طوقها عن

القوانين . وكما تمتاز الدلالات بالفروع السابقة ، يبحث الشيء نفسه حين نستعرض علوم المفردات عند وضع المعاجم وأصولها ، وكل ما يتحرك أفقا من آثار الصوتيات ، وذلك سر ارتفاع بعض النماذج التي ترى أن رعاية الصوتيات تقترب من رعاية الدلالات فالدلالات . أن كل دراسة للغة تظهر معها كل الحدود التي تحد الفروع . فالنقطة لا تنهض إلا بالناحيتين الإصطناعية والمنطقية وذلك سر خلودها وحيويتها .

ويتناول « جاردنر » القضية فيقول : « إن الألفاظ - في طبيعتها - تعتمد على ناحيتين : الناحية الأولى هي المعاني والناحية وهي الصوت . واستخدامنا للألفاظ يعنى طلبنا منها للناحية المعنوية ، ومعنى نطقنا لها بالصوت من جهة أخرى . وإذا كانت الصور الصوتية صالحة لأن نعيد نطقها كلما أردنا ، فإن الواقع النفسى لا يضيّب عن تطوره كما عدنا إلى الصوت . وهذا سر كون الألفاظ مواد للتعليم واكتساب المعرفة » (١) .

وفى تراثنا كانت الدراسات النحوية والصرفية ضربا من الرعاية للغة ومن سوء الحظ أن هذه الدراسة لم تأخذ دائما بالنتائج الكثيرة بانضاج ثمارها . ومن الحق أنه بدون معرفة الصواب والخطأ ، ومعرفة صيغ الاشتقاق تبقى معارفنا اللغوية ناقصة . وكان أخطر ما عرقل دراسات السابقين هو خضوعهم لقولات منطقية غير كافية ، مثل تاسيسهم لأنواع الكلمات ، وكان أيضا لاعتمادهم على استقصاء ناقص لطرق الأداء اللغوى عند القبائل العربية المختلفة . ثم كانت معالجتهم للكثير من النماذج معالجة مستقلة عن المسائل النفسية والمضاربة التي كانت تعيط بالنص حين أبدع أو سجل . ولقد أخذ يبحث الاشتقاق الكثير من الطاقات . وسر بعض الهباء به أنه كان « يبحث المفردات اللغوية كما قدمها لنا اللغة ، لتسير بعد ذلك مسعا في البحث عن منشئها ، وتاريخها ، ومراسل تطورها الفنى لئلا يها إلى الحالة التى نجدناها عليها بعد أن استقر أمر اللغة » (٢) .

ومثل هذا التقرير يقف بنسا أمام حالة يسيطر عليها روح قديمى

Goodman: The Theory of Speech & Language, P. 62

(١) .

(٢) محمد الجازق : لغة اللغة ، ص ٥٢

جاف ، والأصل فى الملاحظة اللغوية أن تستند الى شبه ما عبر به الامام الشافعى وقد سئل عن مسألة فقال : « انى لأجد بيانها فى قلبى ، ولكن ليس ينطلق بها لسانى » (١) . وليس الذى ينشده الشافعى - رحمه الله - هو تأكيد عجز اللسان ، وانما يقصد الجانب النفسى أو الجانب السحرى ، الجمالى ، أو المبهم الذى هو ركن من أركان اللغة ، وبدونه تتحول الى علامات اشارية فاقدة لكل جهد رمزى . ومن الريح ذاته يعبر « فندريس » عن قلقه من الدراسة الاشتقاقية : « ان الاشتقاق يعطى فكرة زائفة عن طبيعة المفردات . . لأن كل ما يعنى به هو أن يبين كيف تكونت المفردات ، والكلمات لا تستعمل فى واقع اللغة لقيمتها التاريخية ، فالعقل ينسى خطوات التطور المعنوى التى مرت بها ، ونقول ينساها اذا افترضنا أنه عرفها يوما من الأيام . . وللكلمات دائما قيمة حضورية » (٢) .

ولرأب الصدع فى تراثنا نهض اللغويون بكتبهم اللغوية يستكملون الفحوص . سواء تلك التى اهتمت بالغريب أو بالمشكل أو بالخصائص أو بمعاجم المعانى ثم بالنظريات الدائرة حول علم المعانى (٣) .

وكل القضايا التى تدور حولها هذه الكتب يمكن أن نأخذ فلسفتها فى قضية واحدة : هى الصراع بين النظر الجامد للغة والنظر الحى . الأول يتشبث بتقاليد ومفاهيم يستمدّها من روح المحافظة ، والثانى يسعى الى تبرير بعض القديم ويأخذ بالحديث . يأخذ بأن التصور العقلى للمضمون ينهض أمام الذهن على ما يشبه عمليتين متكاملتين : الأولى هى الأداء الصوتى بكل ما يتولد عنه من المقاييس ، والثانية هى الخضوع للحدس اللغوى الذى يدفع الى اختيار وحدات دون أخرى . وحينما تتحد العمليتان فى المتابعة الصوتية فنحن أمام صور ذهنية سواء كانت ماهياتها حاضرة أم غائبة .

واذا كان الخلاف حول تشريح عملية الأداء الصوتى لم يتعد قديما الاهتمامات الفسيولوجية ، وما نتج عن ذلك من خلاقات فى تغيير أوصاف

(١) الجرجاني : الوساطة ، ص ٤٣٠

(٢) اللغة : ص ٢٢٦

(٣) للدكتور محمد كامل حسين بحث طيب فى مأخذ على علوم الفقه عند القدماء . القاه

فى الدورة السادسة والعشرين للمجمع اللغوى ونشر بمجلته ، ص ١٤٥ - ١٩٣

الحروف وتحديد مخارجها ، ثم اذا كانت نفس العملية تسعى فى السنوات الأخيرة لتحديد وظيفة الفونيمات والمورفيمات فى البناء اللغوى ، فاعتقد أنه لا القديم ولا الحديث بقادر على أن يستوعب الحس « الجزافى » الذى يختاره المتحدث لتتابعته الصوتية حين يريد منها دلالة ، ثم حين نلتقى معه ، أو نختلف عنه ، فى التقاط الدلالة . ان الدالات فى مواقعها ترتكن عند فحصها الى تفنيد اعتباطى أو الى تفنيد يمليه المستقبل على النص . وكان الرموز اللغوية قد خضعت لاختيار وتواضع هندسى .

حول فلك الاسم والمعنى :

ألقى « دى سوسير » بنظريته عن جزافية « الدالة » وحاول أن يتتبع مراحل افتراض هذه الجزافية حين وقف مع العلامة "Signe" وتحولها الى Signifiant . وفى مقابل نظريته يأخذ القائلون بـ « المواضعة » الرموز اللغوية ويلقون بها فى حومة الجدل كذلك . ونصل الى « أن هناك اتفاقا عاما على المواضعة الطبيعية حول المعنى اللفظى ، ولكن الآراء تختلف حول النقطة المعينة التى تدخل فيها المواضعة الى العلاقات الخاصة بالدلالات ، وهناك أيضا عدة تقديرات متفاوتة بالنسبة لأهمية المواضعة ، والمبررات "Motivation" فى كل النظام المعجمى » (١) .

هذه المواضعة الطبيعية وما يحيط بها من مبررات هى التى تكون لكل انسان عالمه الفكرى ، شريطة أن يستوعب من خلال ذلك العالم الخاص ، العالم الأكبر أو المحيط الأعظم « ان عالم الفكر The thought world هو العالم الصغير (Microcosm) الذى يحمله كل انسان معه ، وبه يقيس كل شئ ، فيفهم كل شئ بالنسبة لعالمه » (٢) . ومع ذلك فان هذا العالم الصغير لن يتطابق - ولو جزئيا - مع المحيط الأعظم الا من خلال لحظات معينة يتوقع فيها الاتفاق ، وتبدو مبررات اختيار « الدوال » منتمية الى اختيار « الدلالات » أو أن التوافق تأخذ مدلولها الرياضى .

ويتناول « أولمان » فكرة المواضعة حول المعنى Conventionalty of Meaning في عرض دقيق ، احسب أنه لا بد من تتبع بعض أجزائه .
ان كل الثقافات من اللغويين يتفقون على أنه لا سبب أساسي لتسمية "arbor" (شجرة باللاتينية) بلفظ tree بالانجليزية . ولا شيء يبرر القضية نفسها معكوسة . وهم متفقون كذلك على أنه لا ضرورة لتكون لفظة tree دالة على الشجرة ، وليس على شيء آخر . وينعكس جانب التواضع في العلاقات الدلالية من وجهة النظر الوصفية Synchronistically مع إمكانية تعدد المعاني كالمترادفات والمشارك اللفظي . ان نفس هذه المواضعة تنعكس من الوجهة التاريخية diachronstically في إمكانية تعدد التغير اللغوي ، وسواء من الناحية الصوتية أم من الناحية الدلالية . وكل ذلك ينعكس بشكل واسع وكل في اللغات المختلفة ، التي تتخذ أسماء مختلفة لمعنى واحد أو متقارب مثل : الانجليزية والألمانية والفرنسية التي تعبر عن الشجرة بالألفاظ tree - baum - arbre ، أو تنعكس حين تتخذ اللغات اسما واحدا متوافقا أو متقاربا ، للتعبير عن معان مختلفة .
مثال ذلك أن لفظة Tear الانجليزية تعنى الدموع ، ولفظة tir الفرنسية تعنى طلبة أو قذيفة ، ولفظة tier الألمانية تعنى حيوان . ولا يوجد سبب لهذه الخلافات الا عند التسليم بدور المواضعة ، وهو ما تم الاتفاق عليه .

المواضعة حول المعاني اذن ضرورية سواء اتخذت اللغات أسماء مختلفة لمعنى واحد أو اتخذت أسماء متشابهة لمعاني متعارضة . ومع ذلك فوضع الاسم ليس أقل طلبا للمواضعة العامة عما كان عليه الأمر عند التواضع حول المعنى . وفي جدله حول المواضعة على الاسم Conventionalty of name يعرض « أولمان » القضية بالتساؤل :

هل هناك ضرورة لوجود كلمة انجليزية للتعبير عن arbor

ومن الواضح أن الإجابة : نعم . السبب هو وجود شيء خارج عن اللغة ، extra - linguistic reality ، له سمة خاصة فلا بد أن يعطى اسما .

واذا كان الوجود الحسى للشجرة ، ولو مستخلصا من غيره ، يبرر ذلك . فان المجردات **abstractions** تنال نفس التبرير . ولو انهى الفرض ، أو لو أن البحث عن الرابط الذهني بين الاسم والدلالة المجردة وصل الى طريق مسدود فان الخطأ يكون من تعسف الافتراض . اننا نستخدم الألفاظ لنشير الى أشياء في العالم المحيط ، أو على الأقل نستخدمها ونحن مؤمنون باستخدامنا لها على تلك الصورة . وهذه التبريرات الأساسية لا تعنى بالضرورة حتمية لا يمكن الهروب منها . فالعالم الخارجي أو مملكة الأشياء التي نرجع اليها ، يمدنا فقط بالمواد الأولى للخلق اللغوي . ومن الممكن أن يلقى الانسان هذه المواد بالانتخاب من بين المحيطات ، أو بالتحليل .

والمطافى . . .

كان - دائما - حول الدلالة أن تركزت جهود اللغويين والنحاة والمفكرين . وحين ننظر لاستجلاء مواقع قدمائنا يتوقف النظر مع الدراسات الصوتية التي نمت مع الخليل بن أحمد : كان تتبعه لمخارج الحروف ، أوصافها وأنغامها ، وكانت تقليباته للمواد اللغوية ، وتقطيعاته للأوزان الشعرية ، كلها محاولة واحدة لتحديد منهج في فهم اللغة ، وعلاقاتها بأصحابها .

ثم من بعده كان « الكتاب » الذي صنته سيبويه ، وهو وإن اهتم بالقاعدة أو بالخصائص الاعرابية ، فقد كانت خلاصة فلسفته قائمة على القياس ، والقياس ضرب من المنطق المستند إلى الدلالات ولذلك لن تتأخر القاعدة التي تأخذ الأعراب فرعاً للمعنى ، فيه تتضح المعاني وتبين مواقع الألفاظ حين تتاورها المنازل . وإذا كان جدل النحاة ، أصحاب البصرة وأصحاب الكوفة ، وغيرهم ، وقد اتسم باتسمائه إلى شيء من العصبية فلا شك كذلك في أن « الدلالة » كانت هي الثمرة التي يلوح بها كل مناوش .

شيء هام يجب أن نراه هنا ، ذلك أن الأصل في رعاية التحول لم يكن كما نستسلم عادة لأخبار أبي الأسود الدؤلي وابنته التي سألته : ما أجمل السماء . وما إلى ذلك من نواذر . ولكنني أزعم أن القراءات القرآنية هي التي حركت العقل اللغوي ليقف مع مألوف أدائه ويمعن التأمل في وجوه من القراءات رأى فيها سمات لغوية خاصة من لغات القبائل العربية . كل القراء الذين بزغوا في ذلك الفن ، في عصره الأول ، كانوا من كبار النحاة واللغويين ، ولذلك يقرر المتأخرون أنه كم من قراءة أنكرها بعض أهل النحو أو كثير منهم ولم يعتبر إنكارهم ، بل أجمع الأئمة المقتدى بهم من السلف على قبولها . وهؤلاء الأئمة يحددون موقفهم وفق قاعدة أصيلة ، هي أن

« أئمة القراء لا تعمل فى شىء من حروف القرآن مع الأقشى فى اللغة ، والأقيس فى العربية بل على الأثبت فى الأثر والأصح فى النقل والرواية . اذا ثبتت عنهم لم يردها قياس عربية ولا فثو لغة ، لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها (١) .

ولم يطل المقام الذى استقلت فيه المباحث الجزئية بالحقل ، فما يكاد القرن الثالث يشمر تراثه ، ترجماته وقضاياه ، الا وقد أصبحت البلاغة المتزجة بالنقد صاحبة الريح الذى يلهب البحث عن « الدلالة » . وهناك أقسام البلاغة : بيانها ومعانيها وبديعها : وأسهم النظر الى الفروع فى وضع أصول معارف عديدة : معاجم المعانى ، ومعاجم الاشتقاق . وازدهر الاختصاص بين القديم والجديد ، وكلاهما مستهدف « دلالة » من خلال التراكيب بعد أن بدت أغلبية الألفاظ متعاونة . وفى تلك الحقبة استطاعت العربية ، بعبقريتها ، أن تستوعب كل الفيض الوافد مع تمثل الحضارات الجديدة التى أنضجها الفكر الإسلامى بمرونته المدهشة وشجاعة عقول علمائه . كانت اللغة هى المعبر للدلالات الفكرية والثقافية بكل متشابهاتها العقيدية والفقهية والفنية .

وكان من أروع ما أشرقت به الدراسات اللغوية ، تلك النظرية الواضحة التى تنفرد برعاية « النظم » . لقد أوشكت آراء عبد القاهر أن تكف الأيدى عن تناول المفردات كوحدات مستقلة ، مهما نسب إليها من تلائم حروفها أو فصاحة بنائها ، ومع التسليم بعبقرية الجرجانى فى تحديد معالم نظريته ، فالكثير منها مرتد الى ابداعه الخاص ، أقول ، مع ذلك فلن يصعب على من شاء أن يتتبعها أن يرى جذورها عند الجاحظ أو عند أوائل المفسرين كابن عباس وعكرمة . أولئك الذين لم يتوقفوا مع المفردات قدر توقفهم مع النص المتكامل ، يستفتونه ويلتمسون من لبناته الرشد والعون لاستخلاص الدلالة العامة . سواء كان المنهج مع أهل الظاهر أو مع أهل

الباطن . وكلاهما يمثل موقفا متمائزا من الاستخدام اللغوي فيما بين الذى يسمى بالاستخدام الحقيقى أو الاستخدام المجازى .

ثم : اذا كان عصر ذهبي قد أثمر لنا ما سجله ابن جنى والجرجاني والآمدى ، فان ركودا طويلا قد لف اللغة فيما بعد ، ولن نستطيع الحديث عن تخلف واطلام الا اذا كان عقلنا فطنا الى أن أية نقیصة لن تفهم دون تشرب جهود « الدوال » وتحولها الى أردية خلقه ، تنازلت عن الجدة ، مع تنازلها عن اضافات دلالية جديدة ، فكل استخدام جديد لآى من الدوال اللغوية هو بمثابة خلق مبدع .

وما فات فى عصور التخلف هو الأمل الذى بزغ مع النهضة الحديثة ، لا أمل فى حياة يزكيها الجديد الا مع استخدام الدوال استخداما مشعا . أو لنقل : ان تكون لغتنا فاعلة مع الحياة أو رادة لفعالها النشاط فذلك هو التجديد . واحسب ان نظامنا اللغوى يخضع لضغط مستمر من أجهزة الاعلام المروعة ، ويخضع أيضا لمشيئات النظم السياسية والاقتصادية المختلفة التى نعيش فى كنفها محاولة أن تسجى ردود فعل القادرين على إثارة المحدث من الدلالات ، وسيبقى التجاوب بين الموقفين حتى ينثنى واحد منهما للآخر ، ان كل الدراسات التى تدور حول اللغة فى عصرنا أخذت بآصرة الدلالة . فهى تستهدف البحث والتنقيب ولذلك أصبحت المعارف التى تميزت بمناهج مستقلة تترافد مع الدرس الدلالى . هناك علوم النفس والاجتماع والاقتصاد والرياضة والطب كلها - وغيرها - يقدم زادا لفهم وظائف « الدوال » وكيف تنجح فى تحريك الصور الذهنية أو سر عجزها . بل ان الكثير من تلك المعارف تصطنع منهج « علوم اللغة » القائمة على التحليل الوصفى ، والمالكة للمادة موضع البحث حتى تتوصل الى سرها وفقها . علم النفس يهتم اهتماما بالغا بدور اللغة والألفاظ الدالة على صاحبها ، وعلم الاجتماع اللغوى يرى فى « الدوال » نظاما اجتماعيا مرتبطا بالتركيب الذى هو موضع الفحص . . . وهكذا .

واذا كانت صورة الحياة الحديثة تحدث وقعا سريعا فى كل المجالات حتى لتوشك التطورات التكنولوجية أن تسبق التحولات الاجتماعية

والنفسية فان ردف اللغة لمثل ذلك التطور هو وحده الكفيل برأب الصدع بين الانسان عامة ، ومنجزات الخواص من بنى جلده ، ولقد يكون من أخطر ما وضعته التكنولوجيا فى يد نفر من المعاصرين تلك الأدوات الدقيقة التى عن طريقها يتم تتبع المفكرين والمعارضين لأى من نظم الحياة ، ولقد أصبحت مثل هذه الأجهزة خطرا فيما أعتقد يهدد قدرة اللغة بنظامها المألوف ... ومن هنا كان ذلك القفز الفكرى الذى نلمسه حين نقرأ الرواية الجديدة أو المسرح التجريبي أو الأدب المتمرد وما الى ذلك . انها ملاذ يحتوى بها أصحابها عن متابعة قوى اجتماعية أو سياسية ومن هنا أيضا كانت العودة الى أساطير السابقين نحملها ما نريد فى عصرنا . وكأننا نخرج على مألوف قواميسنا ومعاجمنا للمتراكبات أو بالترتيب للمبعثرات وما أكثر الطرق التى نستطيع أن ننطقها بها .

حين نقول بضرورة التعبير عن معنى « الشجرة » تجبها واقعة لغوية أخرى لا فرار منها ، فمن المحتمل أن نلتقى بلغات بدائية لا تحتاج الى مثل هذه اللفظة العامة التى تقابل كلمة tree . ولكن لا شك فى أن أهل تلك اللغة يستعيضون عن ذلك النقص بمعرفة أسماء خاصة لمختلف أنواع الأشجار . وهناك لابد من وقوع مواصفات كثيرة تدخل فى صناعة ، أو تركيب الإدراك Sense ولكن مثل تلك المواصفات لن تصبح خالصة لأنها لا ترسو على موان خارج اللغة ، كما يرسو غيرها من الألفاظ .

وما يقرره ذلك الجدل يؤكد بعض اللغويين الذين درسوا لغات بعض القبائل . فقد لاحظوا أن أبناء قبائل التاسمينية Tasmanian ، وهم سكان احدى الجزر الصغيرة بجوار أستراليا لا يمتلكون لفظا يقابل دلالة « شجرة » "arbre" . بينما هم يعرفون اسما خاصا لكل شجرة فى محيطهم^(١) . من الممكن اذن أن يجرد الذهن اسما عاما من جزئيات يعرفها باسمائها دون أن يحطم خصائص أى من الوحدات المستقلة ولكن فى أثناء

التحديد يلتقط أجزاء عامة من كل الجزئيات وكل ما نسميه في العربية
أسماء الجنس هو نتج من المجال .

وهو أيضا ما عبر عنه قداماؤنا حين حددوا دلالة الاسم بدلالة لفظية
أو بدلالة غير لفظية . والأولى تعتبر بالنسبة لكمال المعنى الموضوع له
اللفظ ، أو بالنسبة لبعضه ، وكل دلالة كاملة هي مطابقة بين اللفظ
ومدلولها . وكلمة مثل « انسان » ان دلت على بعض ما يتضمنه المدلول
عليه ، كان تدل على ما فيه من حيوانية ، أو على ما فيه ميزة النطق ، فهي
عندئذ دلالة تضمين وان ظلت لفظية (١) . وأما الثانية ، غير اللفظية فهي
ما أدرجوه تحت دلالة الالتزام . ذلك أن اللفظ معنى لازما من الخارج ، وعند
فهم مدلول اللفظ من اللفظ ينتقل الذهن من مدلول اللفظ الى لازمه . ولو
قدر عدم الانتقال الذهني لما كان ذلك اللازم مفهوما . ومن الممكن أن تضرب
مثالا بلفظ « العقل » بمعنى القيد أى عملية العقال ، ثم بمعنى العقل
الشائع ، بعد تخليصه من الارتباط بالمعنى الأول . وذلك التخليص عملية
ذهنية . قد تحدث بمجردات عن نوع من التشبيه بين فعل القيد وفعل
العقل . وقد تحدث عن نوع من القياس بين اصل وفرع . ومع ذلك فالتجريد
هو في ذاته صدى المواقعة الضرورية .

قضية أخرى لابد منها : أهناك سبب ضرورى يحتم أن تحيا في
اللغات مثل تلك الكلمات ذوات الطوايع المجردة ، وأنا آخذ من الانجليز
نفس كلمة tree ، وأمتنع عن أخذ كلمة « شجرة » رغم التكافؤ الكامل
بينهما ، لسبب بسيط هو أننا حين نتعامل مع لغتنا الأم يصعب أن نرد
العقل عن فطرته اللغوية الذى قد تدفق ليتخطى الأصوات وتحولاتها مع
ارتباطها بالمعنى ، أما حين تكون مادة التأمل لفظة من غير لغتنا فهناك لحظات
وقوف تمنحنا ذلك التأمل وتجسم الانتقال من الدالة الى المدلول عليه .
ولذلك أقول أننا حين ندعى أن لا ضرورة لوجود كلمة tree في الانجليزية
أو كلمة arbre الفرنسية أو كلمة Poum في الألمانية ثم كلمة

شجرة فى العربية ، فاننا نتخطى مرحلة الطفولة البالغة الأهمية فى مواقفنا اللغوية . فمثل تلك الصوتيات أو الفوينمات أصبحت مرتبطة بالمضمون العقلى الذى حددناه من مختلف الأشجار التى كانت لنا بها خبرة . وذلك هو ما يدفع بالعالم بنفسه ليقول : ان اللفظ والمضمون العقلى قد طبعاً فى عقولنا . وكلاهما يثير الآخر فى كافة الظروف ، وبينهما ارتباط قريب الى الحد الذى يصبح فيه مفهوم كلمة Böeuf (الثور) كالروح للصورة الصوتية Bœf .

واذن ، فان لم يكن هنالك سبب أساسى لوجود الاسم ، بينما هنالك ما يستبج حياة المسمى ، فمن الواضح أن المواضع الخالصة هى طابع الاسم .

ذاك منهج يرى الوصول الى تحليل وضع كلمة ذات معنى مستخلص ، مجرد ، مثل « شجرة » كان بعد خبرة بالمتخصص من الأسماء . ولكن أيمتنع أن يكون أصلنا اللغوى قد سلك الطريق المعارض ، أعنى أن تكون المتخصصة بأسماء معينة كالتين والنخيل والزيتون وما إليها كانت فى طفولتها البعيدة مندرجة تحت شبيه كلماتنا المستخلصة ! ثم بالتدريج أخذ العقل فى ادراك الفوارق ، وبعد أن فحص المميزات ، خص كل نوع بتسميته . أليس ذلك ما نتعرض له حين نوضع وسط غابة من أشجار لا ندرى عن خصائص أفرادها الا الحضرة والنماء ! هى عندنا « أشجار » ، يتساوى فى ذلك القسطل والآراك والجميز .

التفكير بحث وراء المواضع المعنوية ، ثم لابد حتى يكتمل الجناحان فى أية علاقات لغوية، أن ننظر فى مبررات الاسم motivation of the name forme وهذا يعنى طرح السؤال التقليدى الباحث عن سبب الشكل الذى استقر عيه الاسم كعلامة دالة على معنى معين . ولم لم يكن شكلاً آخر ؟ وحين تكون الاجابة موحية بنوع من الانبعاث الذى يبدو طبيعياً أو شبه طبيعى ، فنحن أمام تفسير ايجابى لاختيار الاسم . ولصاحب « أسس علم الدلالات » - أولمان - علاج يدور فى مستويات متتالية : ذلك النوع من الأسماء الموحى بمناسبة طبيعية بين التسمية والمعنى . ثم المستوى الآخر الذى يحمل فيه العقل عبء الخلق .

فكلاهما مشدود بالمواضع المادية ، سواء في الجانب الصوتي للاسم أو في الجانب المعنوي للعلامة اللغوية .

مثال ذلك قولهم splash وتبرير الاختيار هو التشابه بين الأصوات المتعاقبة لتكوين الكلمة والأصوات النابعة عن الحدث قرين المعنى ، وهو اصطدام السوائل - أو شبهها - عند انسكاب بعضها على بعض . وذلك قريب مما ساقه علماء عن الألفاظ المحاكية لأصوات المسموعات .

مثال آخر : لفظة totter : وتبرير الاختيار نوع من المضارعة والمطابقة بين أصوات الكلمة والحركة التي يرجع اليها المعنى ، وهى السير فى اهتزاز وعدم اتزان . وتردد فونيمات الكلمة نابع من تردد المعنى . وكان تردد حرف التاء - t - مفردا مرة ومزدوجا أخرى ، هو الحافز لعقد الصلة بينه وبين المعنى - المتردد - . وواضح أن التبرير فى المثالين السابقين تبرير صوتي phonitically - ووصف الحروف المنطوقة هو الدهليز الذى يتسرب منه الترابط بين الكلمة ، وخارجها . ان كل الكلمات المحاكية للأصوات ، أو الأنوماتوبيا - والكلمات المعبرة عن الانفعالات المباشرة exclamation تقع تحت راية هذه التفسيرات ، وبداهة ان المحاكاة ليست كاملة . فالأمر ، كما قال جرامون Grammon : ان كل أصوات الاسم ليست محاكية للمعاني المحكية ، ومن ثمة كان الترابط فى ذلك الميدان واسع المدى . يمتد من التقليد الكامل الى النسبى أو شبه التقليد ، وكل من هذه الصفات خاضع بدوره للمساومة . وحين نأخذ بهذا الروح المسلم بالتقارب ، فلن نستبعده ، حين نتعامل مع المسافات المتكاملة ، وسنرى خيطا يخترم كل الألفاظ ، ليحدث نوعا من الانسجام المحاكى : immitative harmony حتى وان صعب التقاطه عند الوهلة الأولى ، فإنه يبقى عنصرا من عناصر الجمال اللغوى أو الأسلوبى .

اللغة هي الوسط الذى يتكون فيه الانسان بكل ما يتواضع عليه من القيم . وكل ما يستصفيه من مقومات الحياة الروحية والحسية . وهى لا تبتعد أبدا عن توجهات الافعال الحسية التى يدركها بالعقل ، ولا من مجال المغامرات التى تاتي من الجوانب السحرية والاسطورية . ولو اعدنا ذر أصل اللغة فلن نعلم من فكرة المحاكاة ، حتى وان اعترض مثل « يسبرسن » بأن المحاكاة نفى للغة ، بحجة أننا نلجأ الى المحاكاة عندما تعوزنا الالفاظ ، أو تفشل الكلمات المتواضع عليها فى التعبير عما فى النفس . ستبقى المحاكاة جامعة للرافدين : العقل والسحرى ، ويتأتى من ذلك الالتقاء جهد تبذله اللغة لتنسق الحياة . ولن يصعب تصور علاقات الحياة وكأنها على نمط اللغة : وحدات متداخلة متبادله التأثير ، وحتى حين تنعكس القضية ونرى اللغة على نمط الحياة ، فستكون هى نفس العلاقات : أفعال وانعكاسات .

ما يقوم به العقل من جمع الالفاظ ذات المعانى المتقاربة ، - وشئ منه عمله ابن جنى - رصد للتجارب الحسية مزودة بطاقتها الانفعالية والنفسية . والشئ نفسه مع فلسفة تقليب المواد اللغوية ، ذلك الجهد المغامر يصل الى تثبيت ملامح من الجهد الارادى . وما زالت لغتنا تحتفظ بكثير مما يبدو فى كتب القدماء اسرافا عقليا . خذ كلمة مثل « ملك » التى جاءت بمعنى القوة والقدرة . انها تتردد على ألسنة فئة من الشعب حين يقولون « المرأة تملك العجين » ، أى انها تلوكه وتحركه لتنضام أجزائه . وحين نستمع لعامتنا يذمون رجلا بأنه « دنف » ألا تحمل الينا اللفظة ما قاله السابقون عنها من الضعف !

ان الأمل معقود بتقدم البحوث حول الصلة الوثيقة بين اللغة والفكر . ولقد أصبح ذلك شغلا يشغل الباحثين فى كثير من فروع المعرفة ، والتحولات النفسية والسلوكية والاجتماعية ، بل والسياسية والاقتصادية والحضارية هى موطن تنقيب عن دالاتها اللغوية . ومع كل هذا فأنا أشعر أن المحاولات التكنولوجية التى تسعى لتحليل المواد اللغوية الى مكوناتها ، سواء تم ذلك بالأجهزة الحاسبة أو بالعمليات الرياضية ستبقى غير قادرة على امطة كثير من الحجب ، لأن اللغة هى بانية العقل ووليدته ، وكأن كل سعى لتسطيحها هو تسطيع للعقل ، وعند ذلك لابد أن تتراجع الجهود لأنه سر الحياة .

فهرس

صفحة	
٣٠ - ٣	مقدمتان
٣	١ - على درب الحياة
١٩	٢ - من نظرات قدمائنا
٤٨ - ٣١	من تاريخ القضية
٣١	الرموز والدلالة
٣٦	الزمن والدلالة
٤٢	أقوال عن الارتباط
٩٧ - ٤٩	عن عبقرية اللغة
٥٣	اتجاه للتدوير
٥٩	دراسة في مناهج التحليل
٦٠	١ - دلالة الجرس
٦٩	٢ - تداخل الحروف لتداخل المعاني
٧٦	٣ - المعاني المتلاقية
٨٤	٤ - الاشتقاق الأكبر
٩٤	الثنائية والدلالة
١٢٦ - ٩٨	ما وراء اللغة
٩٨	الأصول المختصة
١٠٧	« التوهم والحروف » أو النظر السحري والنظر العقلي
١١١	الايقاع والدوال

صفحة

١١٢	الرمز اللغوى
١١٧	جنوح نحو المثالية
١٢٣	ما بين الماهية واللفظ
١٢٧ - ١٥١	بين التاريخية والوصفية
١٢٧	تطور الدالات والدلالات
١٣٦	التفاعل بين الدلالة والاعراب
١٤٥	عن الأصوليين
١٥٢ - ١٧٢	متشابهات متأخرة
١٥٢	من تاريخ الدرس اللغوى
١٦٠	الدوال المحفوزة
١٦٨	مستويات التراكيب
١٧٣ - ١٨٨	امتزاج المنهج التحليلى بالمنهج الفلسفى
١٧٣	الاختيارية عند ابن سيده
١٧٩	الدلالة والصورة
١٨٢	اللغة والطبع
١٨٦	حول فلك الاسم والمعنى
١٨٩ - ١٩٦	والطاف

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٧٤/٣٩٥١

مطبعة اطلس
١١ ، ١٣ ش سوق التوفيقية - القاهرة
ت : ٤٠٧٩٧

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com